
ماركس
انجلس
مختارات

К. МАРКС и Ф. ЭНГЕЛЬС

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ

Часть I

На арабском языке

•

Rm 27 may 76

من الناشر

ان مذهب ماركس وانجلس هو من ابرز منجزات الفكر البشري
ان الماركسية انما هي ايديولوجيا البروليتاريا ، والتعبير العلمي عن مصالحها ، وسلاح روحي لجميع الكادحين في النضال من اجل التحرر الوطني والسلام والاشتراكية

ان مؤسسي الشيوعية العلمية العظيمين قد قاما بمؤلفاتهما بانقلاب حقيقي في ميدان العلم ، في مذهب الاشتراكية فان ماركس وانجلس قد اكتشفا قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية وقدما البرهان العلمي على حتمية هلاك الرأسمالية وانتصار النظام الاشتراكي القضاء على المجتمع الراسمالي ، وتحويل النظام الاجتماعي كله تحويلا ثوريا عميقا ، وبناء مجتمع جديد قائم على مبادئ الحرية والمساواة والاخوة والسلام والعمل — هذه الاهداف العظيمة والنبيلة تشكل الرسالة التاريخية العالمية التي ينبغي للبروليتاريا ان تؤديها لما فيه مصلحة الجماهير الكادحة الواسعة ، بتاييد الفلاحين وجميع قوى المجتمع التقدمية

ينبغي للثورة الاشتراكية ان تضع حداً نهائيا لجميع اشكال الاضطهاد الاستعماري والعرقي . ان حركة التحرر الوطني هي ، حسب مذهب ماركس والجلس ، حليفة الطبقة العاملة وجزء لا يتجزا من العملية الثورية العالمية .

ولقد تنبأ مؤسسا الماركسية بامكان تطور البلدان المتاخرة في الطريق اللاراسمالي بمساعدة الطبقة العاملة المنتصرة في البلدان الاكثر تطوراً .

Ahmed 96

ورسم ماركس وانجلس ستراتيجية وتاكتيك نضال البروليتاريا الثوري ، وصاغا مذهب حزب سياسي مستقل للطبقة العاملة لا يمكن بدونه اسقاط الراسمالية

ان تعاليم ماركس وانجلس تغتني على الدوام بتعميمات التجربة التاريخية الجديدة وقد اسهم فلاديمير ايليتش لينين ، التلميذ العبقري لماركس وانجلس والمواصل لقضيتهما بقسط ضخم في كنز الماركسية ان الماركسية اللينينية تكسب اكثر فاكثر عقول وقلوب الملايين من الناس . وكل عهد تاريخي جديد يحمل تاكيدات جديدة وجديدة ابداً لنظرية ماركس وانجلس ولينين الحية والمتطورة على الدوام

ان هذا المذهب ، كما يبين مثال الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى ومثال نضال الكادحين التحرري في العالم كله ، وكما تبين تجربة الشعوب التي خلعت عنها نير الاستعمار ، هو اقوى سلاح في النضال من اجل التقدم الاجتماعي ، من اجل تحويل العالم على اسس جديدة وعادلة

والمختارات الحالية تشمل مؤلفات ورسائل لماركس وانجلس في غاية الاهمية تعرض اجزاء لا تتجزأ من مذهبهما الثوري العظيم : الفلسفة الماركسية ، والاقتصاد السياسي ، ونظرية الشيوعية العلمية ، وكذلك اسس ستراتيجية وتاكتيك نضال البروليتاريا الطبقي

كذلك تتمثل بعض المؤلفات الاساسية («رأس المال» ، «ديالكتيك الطبيعة» ، وغيرهما) في المختارات بشكل مقتطفات .

وعلى سبيل المقدمة ، قررت دار التقدم ان تقدم المختارات بجزء من مقالة لينين «كارل ماركس» وكذلك بمقالتي لينين «فريدريك انجلس» و«مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة»

ففي هذه المقالات ، اعطى لينين وصفاً كلاسيكيا للماركسية بمجملها وباجزائها المكوِّنة ، وتتبع تاريخ تكوّن نظرات ماركس وانجلس ، وعرض

بايجاز تاريخ حياة معلمي الطبقة العاملة العظيمين ووصف قسط كل منهما في انشاء وتطوير الماركسية ، وفي قيادة نضال البروليتاريا العالميـــة التحرري

واساسا ، ترد المواد في المختارات حسب التسلسل التاريخي ولكن مقدمات المؤلفين ترد ، بصرف النظر عن وقت كتابتها ، مع المؤلفات التي تتعلق بها . اما رسائل ماركس وانجلس ، فقد خصص لها باب خاص .

وتسهيلا للقراء ، جرى تقسيم المجلد الى اربعة اجزاء . وكل جزء مرفق بالملاحظات وبدليل الاسماء اما دليل المواضيع فيأتي في الجزء الرابع

لينين

كارل ماركس

(موجز عن تاريخ حياة كارل ماركس ، يتضمن عرضا للماركسية)

(مقتطف)

ولد كارل ماركس في الخامس من ايار (مايو) سنة ١٨١٨ في مدينة ترير (بروسيا الرينانية) وكان ابوه محاميا وكان يهوديا ، ثم اعتنق البروتستانتية في سنة ١٨٢٤ . ولم تكن عائلة ماركس الميسورة والمثقفة عائلة ثورية . وبعد ان أتم دراسته الثانوية في مدينة ترير ، دخل جامعة بون ، ثم جامعة برلين ، فدرس الحقوق ، وبنوع خاص التاريخ والفلسفة . وفي سنة ١٨٤١ انجز دراسته بتقديم اطروحته الجامعية حول فلسفة ابيقور . اما مفاهيمه ، فكانت حتى ذلك الوقت ، ما تزال مفاهيم هيغلي (نسبة الى هيغل) مثالي . وفي برلين انضم الى حلقة «الهيغليين اليساريين» (برونو باور وغيره) الذين كانوا يحاولون ان يستخلصوا من فلسفة هيغل استنتاجات الحادية وثورية .

وعندما تخرج ماركس من الجامعة القام في مدينة بون حيث كان يامل بالحصول على منصب استاذ في الجامعة . ولكن السياسة الرجعية التي كانت تسلكها حكومة كانت قد اقصت ، عام ١٨٣٢ ، لودفيغ فورباخ عن منصبه كاستاذ ، وعادت في سنة ١٨٣٦ ، فرفضت من جديد السماح له بدخول الجامعة ، ومنعت ، في سنة ١٨٤١ ، الاستاذ الشاب برونو باور من القاء محاضرات في بون ؛ هذه السياسة الرجعية اضطرت ماركس الى العدول عن الحياة

الجامعية في ذلك الوقت ، كانت افكار الهيغلية اليسارية تتقدم تقدماً سريعاً جداً في المانيا . وكان لودفيغ فورباخ قد اخذ ، منذ سنة ١٨٣٦ على الخصوص ، يوجه النقد الى اللاهوت ويتجه نحو المادية التي احرزت الغلبة نهائياً عنده في سنة ١٨٤١ (كتاب «جوهر المسيحية») ؛ وفي سنة ١٨٤٣ ظهر كتابه «اسس فلسفة المستقبل» لقد كتب انجلس فيما بعد حول هذين المؤلفين لفورباخ فقال : «كان يجب ان يكون الانسان قد تحسس بنفسه الاثر التحريري لهذين الكتابين فلقد اصبحنا نحن جميعاً» ، (اي الهيغليين اليساريين بمن فيهم ماركس) «دفعة واحدة ، من اتباع فورباخ» * . وفي ذلك الوقت ، أسس البرجوازيون الراديكاليون في رينانيا ، الذين كان لهم بعض نقاط تماس مع الهيغليين اليساريين ، جريدة معارضة في مدينة كولونيا ، باسم «الجريدة الرينانية» (التي اخذت تصدر ابتداء من اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٤٢) ، وقد دُعي ماركس ، وبرونو باور الى العمل محررين أساسيين فيها . وفي تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٤٢ ، اصبح ماركس رئيس تحريرها ، فانتقل من مدينة بون الى كولونيا . وتحت ادارة ماركس ، أخذ اتجاه الجريدة الديموقراطي الثوري يزداد وضوحاً . فعمدت الحكومة في اول الامر الى اخضاع الجريدة لرقابة ثنائية بل ثلاثية ثم امرت بتعطيلها تماماً ابتداء من اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٤٣ . فاضطر ماركس حينئذ للتخلي عن مركزه في تحرير الجريدة ، ولكن ذهاب ماركس لم ينقذ الجريدة اذ انها منعت من الصدور في آذار (مارس) سنة ١٨٤٣ ومن اهم

---

* انجلس . «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» . الناشر .

المقالات التي نشرها ماركس في «الجريدة الرينانية» ، فضلا عن المقالات المشار اليها فيما بعد (راجع «مكتبة الماركسية» *) ، يشير انجلس الى مقال حول اوضاع الفلاحين الكرّامين في وادي الموزيل ** . وقد ادرك ماركس من نشاطه الصحفي ان معلوماته في الاقتصاد السياسي غير كافية فاندفع بحماسة الى دراسته

في سنة ١٨٤٣ تزوج ماركس في كريزناخ من جيني فون ويستفالن ، صديقة طفولته التي خطبها وهو ما يزال طالبا . كانت زوجته تنحدر من عائلة نبيلة رجعية بروسية . وكان اخو جيني فون ويستفالن الاكبر وزيراً للداخلية في بروسيا في مرحلة كانت من اشد المراحل افراقا في الرجعية ، وذلك بين ١٨٥٠ و١٨٥٨ وفي خريف ١٨٤٣ ، انتقل ماركس الى باريس ليصدر في الخارج مجلة راديكالية مع ارنولد روغه (عاش ارنولد روغه من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٨٠ . وكان هيغليا يساريا . وسجن من ١٨٢٥ الى ١٨٣٠ ، وهاجر بعد سنة ١٨٤٨ . وبعد ١٨٦٦–١٨٧٠ ، أصبح من انصار بيسمارك) . ولكن لم يصدر من هذه المجلة المسماة «الحولية الالمانية الفرنسية» سوى العدد الاول اذ اضطرت للتوقف بسبب الصعوبات الناجمة عن توزيعها بصورة سرية في المانيا وبسبب الخلافات مع روغه .وفي المقالات التي نشرتها هذه المجلة ، برز ماركس ثوريا ينادي «بانتقاد لا هوادة فيه لكل ما هو كائن» بما في ذلك «انتقاد الاسلحة» ويتوجه الى الجماهير والى البروليتاريا .

---

* المقصود هنا قائمة الكتب وضعها لينين لمقاله «كارل ماركس» . الناشر .

** يشار الى مقال ماركس «تبرئة المراسل الموزيلي» .الناشر .

في ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٤٤ جاء فريدريك انجلس الى باريس لقضاء بضعة ايام فيها فاصبح منذ ذلك الحين الصديق الحميم لماركس . وقد أسهم كلاهما باشد الحماسة في الحياة المحمومة للجماعات الثورية التي كانت آنذاك في باريس ، (وكانت تولى هناك اهمية خاصة لمذهب برودون ، وقد صفى ماركس حساب هذا المذهب تصفية قاطعة في كتابه « بؤس الفلسفة » الذي صدر عام ١٨٤٧) ، وخاضا نضالا حاداً ضد مختلف نظريات الاشتراكية البرجوازية الصغيرة ، وصاغا نظرية وتاكتيك الاشتراكية البروليتارية الثورية ، او الشيوعية (الماركسية) . راجع مؤلفات ماركس في هذه المرحلة الممتدة من ١٨٤٤ الى ١٨٤٨ في مكتبة الماركسية . وفي سنة ١٨٤٥ طرد ماركس من باريس لكونه ثوريا خطراً ، بناء على طلب الحكومة البروسية فجاء الى بروكسل واقام فيها . وفي ربيع ١٨٤٧ انتمى ماركس وانجلس الى جمعية سرية للدعاية هي « عصبة الشيوعيين » وقاما بقسط بارز في المؤتمر الثاني لهذه العصبة المنعقد في لندن ، في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤٧ . وبناء على تكليف المؤتمر وضع ماركس وانجلس « بيان الحزب الشيوعي » المشهور الذي نشر في شباط (فبراير) سنة ١٨٤٨ ان هذا الكتاب يعرض بوضوح ودقة عبقريين المفهوم الجديد للعالم ، يعرض المادية المتماسكة التي تشمل ايضا ميدان الحياة الاجتماعية ، والديالكتيك ، بوصفه العلم الاوسع والاعمق للتطور ، ونظرية النضال الطبقي والدور الثوري الذي تضطلع به في التاريخ العالمي البروليتاريا ، خالقة المجتمع الجديد ، المجتمع الشيوعي .

وعندما انفجرت ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ ، طرد ماركس من بلجيكا فعاد الى باريس ليتركها بعد ثورة آذار (مارس) ويعود

الى المانيا ليقيم في مدينة كولونيا ، حيث صدرت ، من اول حزيران (يونيو) ١٨٤٨ الى ١٩ ايار (مايو) سنة ١٨٤٩ «الجريدة الرينانية الجديدة» التي كان ماركس رئيس تحريرها . وقد اثبت مجرى الاحداث الثورية في ١٨٤٨-١٨٤٩ كما اثبتت فيما بعد جميع الحركات البروليتارية والديموقراطية في جميع بلدان العالم صحة النظرية الجديدة على نحو ساطع . في بادئ الامر ، اقدمت الحركة الظافرة المعادية للثورة على إحالة ماركس الى القضاء (فبري في ٩ شباط - فبراير - سنة ١٨٤٩) ثم نفته من المانيا (في ١٦ ايار - مايو - ١٨٤٩) . فانتقل اولا الى باريس ، حيث طرد منها ايضاً بعد تظاهرة ١٣ حزيران (يونيو) ١٨٤٩ ثم ذهب الى لندن حيث عاش حتى آخر ايامه .

ان ظروف حياة المهاجر هذه كانت مضنية الى اقصى حد كما يتبين بوضوح شديد من مراسلات ماركس وانجلس (المنشورة سنة ١٩١٣) ؛ فقد عاش ماركس وعائلته تحت وطأة الفقر المدقع ، ولولا المساعدة المالية الدائمة المخلصة التي كان يقدمها له انجلس ، لما استحال على ماركس انجاز كتاب «رأس المال» وحسب ، بل لكان هلك حتماً من البؤس . ومن جهة اخرى كانت المذاهب والتيارات السائدة في الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية غير البروليتارية بوجه عام تضطر ماركس الى خوض نضال دائم لا هوادة فيه ، كما كانت تضطره احيانا للرد على اكثر التهجمات الشخصية جنونا وغباوة („Herr Vogt") . وقد تحاشى ماركس حلقات المهاجرين وصاغ ، في جملة من المؤلفات التاريخية ، (راجع مكتبة الماركسية) نظريته المادية باذلاً جهده بصورة رئيسية على دراسة الاقتصاد السياسي وقد نفح ماركس في هذا العلم روحا ثورية (راجع مذهب ماركس فيما بعد) في

مؤلفيه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» (١٨٥٩) ، و«رأس المال» (المجلد الاول ، ١٨٦٧) .

ثم جاءت مرحلة انتعاش النشاط في الحركات الديموقراطية ، في اواخر العقد السادس وفي العقد السابع فدفعت ماركس من جديد الى النشاط العملي ففي سنة ١٨٦٤ (٢٨ ايلول — سبتمبر) تأسست في لندن الاممية الاولى المشهورة ، «جمعية الشغيلة العالمية» . وكان ماركس روحها ، كما كان ايضاً واضع «رسالتهـــا»* الاولى وعدد كبير من المقررات والتصريحات والبيانات . ان ماركس ، بجمعه شمل الحركة العمالية في مختلف البلدان ، وسعيه الى توجيه شتى اشكال الاشتراكية غير البروليتارية السابقة للماركسية (مازيني ، برودون ، باكونين ، التريديونيونية الليبرالية الانجليزية ، الانحرافات اللاسالية اليمينية في المانيا ، الخ .) في طريق النشاط المشترك ، وكفاحه نظريات جميع هذه الشيع والمدارس الصغيرة ، قد صاغ تاكتيكا وحيداً لنضال الطبقة العاملة البروليتاري في مختلف البلدان . وبعد سقوط كومونة باريس (١٨٧١) التي قدّرها ماركس تقديراً عميقاً ، أخاذاً ، باهراً ، فعّالا ، ثوريا («الحرب الاهلية في فرنسا» ، ١٨٧١) ، وبعد الانشقـــاق الذي احدثه الباكونيون في الاممية ، لم يعد باستطاعة هذه الاممية ان تعيش في اوروبا ، وعقب مؤتمر ١٨٧٢ في لاهاي ، انتقل المجلس العام للاممية الى نيويورك بناء على رأي ماركس وهكذا انجزت الاممية الاولى مهمتها التاريخية مفسحة المجال لمرحلة من النمو في الحركة العمالية في جميع البلدان نمواً أقوى واشد مما مضى الى ما لا حد له — ، مرحلة

* ماركس «بيان حول تأسيس جمعية الشغيلة العالمية» . الناشر .

تطور هذه الحركة من حيث الاتساع ، مرحلة تاليف احزاب عمالية اشتراكية جماهيرية ، على اساس شتى الدول القومية .

وما بذله ماركس من نشاط شديد في الاممية ، وما قام به من اعمال نظرية بمزيد من الشدة ايضاً ، قد اضرا صحته نهائياً . وقد واصل وضع الاقتصاد السياسي على اسس جديدة ، واتمام كتاب «رأس المال» جامعا عدداً ضخماً من المواد الجديدة ، ودارساً عدة لغات (اللغة الروسية مثلاً) ، ولكن المرض اقعده عن انجاز كتاب «رأس المال» .

وفي الثاني من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٨١ ماتت زوجته وفي ١٤ آذار (مارس) سنة ١٨٨٣ رقد ماركس في كرسيه رقاداً اخيراً هادئاً ، ودفن مع زوجته في مقبرة هايغات في لندن . وقد مات لماركس عدة اولاد وما يزالون اطفالا ، في لندن حين كانت عائلته تعاني بؤساً مدقعاً . وكانت بناته الثلاث متزوجات من اشتراكيين من انجلترا وفرنسا ، وهن : ايليونور ايفلينغ ولورا لافارغ وجيني لونغي ، وابن هذه الاخيرة عضو في الحزب الاشتراكي الفرنسي .

كتب في حزيران – تشرين الثاني
(يوليو – نوفمبر) ١٩١٤
نشر باختصار عام ١٩١٥
في موسوعة غرانات ،
الطبعة السابعة ، المجلد ٢٨

لينين

فريدريك انجلس

اي مشعل للفكر قد انطفــا ،
اي قلب توقف عن الخفقان ! *

في ٥ آب (اغسطس) ١٨٩٥ توفي فريديك انجلس في لندن لقد كان انجلس ، بعد صديقه كارل ماركس (المتوفى في ١٨٨٣) ابرز عالم ومربٍّ للبروليتاريا المعاصرة في العالم المتمدن بأسره . ومنذ ان جمع المصير كارل ماركس وفريدريك انجلس ، أصبح عمل حياة الصديقين عملاً مشتركاً . ولذا ، لاجل ادراك ما صنعه فريدريك انجلس في سبيل البروليتاريا ، ينبغي ان نفهم بوضوح الدور الذي اضطلع به مذهب ماركس ونشاطه في تطوير الحركة العمالية المعاصرة لقد كان ماركس وانجلس اولي من بينا ان الطبقة العاملة تولد بالضرورة ، مع مطالبها ، من النظام الاقتصادي الحالي الذي ، مع البرجوازية ، يخلق وينظم البروليتاريا بصورة حتمية وبيّنا ايضاً ان ليست المحاولات الطيبة التي يقوم بها هؤلاء او اولئك الاشخاص الكرماء هي التي ستحرر الجنس البشري من البلايا التي تضغط عليه في الوقت

---

* نيكراسوف . «ذكرى دوبروليوبوف» . الناشر .

الحاضر ، بل النضال الطبقي الذي تخوضه البروليتاريا المنظمة وقد كان ماركس وانجلس اولي من برهنا ، في مؤلفاتهما العلمية ، على ان الاشتراكية ليست ضرباً من تخيلات الحالمين ، بل هي الهدف النهائي والنتيجة الضرورية لتطور القوى المنتجة في المجتمع المعاصر   ان كل التاريخ المكتوب حتى ايامنا هذه قد كان تاريخ نضال الطبقات ، وتعاقب سيطرة وانتصارات طبقات اجتماعية على طبقات اخرى . وهذه الحالة ستدوم ما دامت اسس نضال الطبقات والسيطرة الطبقية قائمة – اي ما دامت الملكية الخاصة والانتاج الاجتماعي الفوضوي قائمين . ان مصالح البروليتاريا تتطلب تدمير هذه الاسس ؛ فينبغي ، اذن ، ان يُوجه ضدها نضال العمال المنظمين ، الواعي الطبقي . والحال ، ان كل نضال طبقي هو نضال سياسي .

ان كل البروليتاريا المناضلة في سبيل انعتاقها قد استوعبت، الآن ، آراء ماركس وانجلس هذه . ولكن عندما ساهم الصديقان ، في السنوات الاربعين ، بالمنشورات الاشتراكية والحركات الاجتماعية في عصرهما ، بدت هذه المفاهيم جديدة تماماً فعديدين حينذاك كان الناس الموهوبون او غير الموهوبين ، الشرفاء او غير الشرفاء ، الذين كانوا لا يرون تضاد مصالح البرجوازية والبروليتاريا ، نظراً لانسياقهم في غمرة النضال في سبيل الحرية السياسية وضد استبداد الملوك والبوليس ورجال الدين   بل ان هؤلاء الناس كانوا لا يقرون بالفكرة القائلة ان في وسع العمال ان يعملوا كقوة اجتماعية مستقلة   ومن جهة اخرى ، كان عدد كبير من الحالمين ، ومن الحالمين ذوي العبقرية احيانا ، يعتقدون بانه يكفي اقناع الحكام والطبقات السائدة بجور النظام الاجتماعي القائم ، من اجل اقامة السلام والرفاه

الشاملين على الارض وكانوا يحلمون باشتراكية لا صراع من اجلها . واخيراً ، كان جميع اشتراكيي ذلك الحين تقريبا ، واصدقاء الطبقة العاملة بوجه عام ، لا يرون في البروليتاريا سوى قرحة ، وكانوا يرون ، في رعب ، ان هذه القرحة تكبر بقدر ما كانت الصناعة تتطور . ولذا كانوا يسعون جميعا وراء الوسائل لأجل وقف تطور الصناعة والبروليتاريا ، لأجل وقف «دولاب التاريخ» . وعلى نقيض الخوف العام الذي كان يستثيره تطور البروليتاريا ، كان ماركس وانجلس يضعان كل املهما في نموها المتواصل . فكلما ازداد عدد البروليتاريين ، تعاظمت قوتهم بوصفهم طبقة ثورية ، واقتربت الاشتراكية واصبحت ممكنة على هذا النحو يمكن التعبير ، ببضع كلمات ، عن مآثر ماركس وانجلس ازاء الطبقة العاملة : لقد علماها ان تعرف نفسها ، ان تدرك نفسها ، واحلاّ العلم محل الاوهام .

لهذا ينبغي ان يعرف كل عامل من العمال اسم انجلس وحياته . ولهذا يترتب علينا ، في كتابنا هذا ، — الذي يهدف ، كما تهدف جميع منشوراتنا ، الى ايقاظ الوعي الطبقي لدى العمال الروس ، — ان نرسم حياة ونشاط فريدريك انجلس ، احد مربيي البروليتاريا المعاصرة العظيمين .

ولد انجلس عام ١٨٢٠ في بارمن ، وهي مدينة من اقليم ريناني تابع لمملكة بروسيا . وكان والده صاحب مصنع . وفي عام ١٨٣٨ ، اضطر انجلس ، لاسباب عائلية ، وقبل ان ينهي دراسته الثانوية ، لأن يعمل مستخدما في مؤسسة تجارية في مدينة بريمن . ولكن الاعمال التجارية لم تمنع انجلس قط من العمل على تثقيف نفسه علميا وسياسيا . فمنذ ما كان في المدرسة الثانويـــة ، حقد على الاوتوقراطية ، وعلى تعسف الدواوينيـــة

(البيروقراطية) . وقد دفعته دراساته الفلسفية الى أبعد من ذلك . فقد كان مذهب هيغل ، في ذلك الحين ، مسيطراً في الفلسفة الالمانية ؛ واصبح انجلس من اتباعه . ومع ان هيغل نفسه كان معجباً بالدولة البروسية الاوتوقراطية التي كان يخدمها بوصفه استاذاً في جامعة برلين ، فقد كان مذهبه مع ذلك ثوريا ان ايمان هيغل بالعقل البشري وحقوقه ، ومبدأ الفلسفة الهيغلية الاساسي الذي يعتبر العالم في حركة تفاعل دائمة من التحول والتطور ، قد قادا تلامذة الفيلسوف البرليني الذين كانوا لا يريدون ان يقرروا قبول الواقع ، الى التفكير بان النضال نفسه ضد هذا الواقع ، وضد الظلم القائم والشر السائد ، هو من صلب القانون العام للتطور الدائم فاذا كان كل شيء يتطور ، واذا كانت مؤسسات تقوم مقام اخرى ، فلماذا تدوم الى الابد اوتوقراطية ملك بروسيا او قيصر روسيا ، ولماذا يدوم ثراء اقلية ضئيلة جداً على حساب الاكثرية الساحقة ، ولماذا تدوم سيطرة البرجوازية على الشعب ! كانت فلسفة هيغل تعالج تطور العقل والافكار لقد كانت مثالية تجعل تطور الطبيعة والانسان وعلاقات الناس الاجتماعية ناجما عن تطور العقل . وقد احتفظ ماركس وانجلس بفكرة هيغل حول حركة التطور الدائم * ، ولكنهما طرحا وجهة النظر المثالية المفروضة سلفا فبالاستناد الى الحياة ، لاحظا ان ليس تطور العقل هو الذي يفسر تطور الطبيعة ، بل ان الامر

* لاحظ ماركس وانجلس اكثر من مرة انهما مدينان ، الى حد كبير ، بتطورهما الفكري ، لكبار الفلاسفة الالمان ، ولا سيما لهيغل وقد قال انجلس « ولولا الفلسفة الالمانية ، لما كانت هنالك اشتراكية علمية » (انجلس . مقدمة كتاب «حرب الفلاحين في المانيا» . الناشر) .

على العكس تماما ، فيجب ان نعيد منشأ العقل الى الطبيعة ، الى المادة وخلافا لهيغل ، والهيغليين الآخرين ، كان ماركس وانجلس ماديين . وفي اتخاذهما عن العالم والانسانية مفهوما ماديا ، لاحظا انه كما ان الاسباب المادية هي في اساس جميع ظاهرات الطبيعة ، كذلك تطور المجتمع البشري مشروط بتطور القوى المادية ، المنتجة ان علاقات الناس فيما بينهم ، خلال انتاج الاشياء الضرورية لسد حاجات الانسان ، ترتبط بتطور القوى المنتجة . وفي هذه العلاقات ، نجد التفسير لجميع ظاهرات الحياة الاجتماعية ، والمطامع ، والافكار ، والقوانين البشرية . ان تطور القوى المنتجة يخلق علاقات اجتماعية ترتكز على الملكية الخاصة ؛ ولكننا نرى اليوم كيف ان تطور القوى المنتجة نفسه ينتزع الملكية من الاكثرية ليحصرها في ايدي اقلية ضئيلة انه يلغي الملكية ، اساس النظام الاجتماعي المعاصر ، ويسير من نفسه نحو الهدف الذي وضعه الاشتراكيون نصب عيونهم اما الامر الهام فهو ان يدرك هؤلاء الاشتراكيون اية قوة اجتماعية ، لها ، بحكم وضعها في المجتمع المعاصر ، مصلحة في تحقيق الاشتراكية ، حتى يبثوا في هذه القوة وعي مصالحها ورسالتها التاريخية . هذه القوة انما هي البروليتاريا لقد تعرف انجلس على البروليتاريا ، في انجلترا ، في مركز الصناعة الانجليزية ، في منشستر ، حيث اقام سنة ١٨٤٢ ، مستخدما في مؤسسة تجارية كان ابوه مسهما فيها . فان انجلس لم يكتف بعمل بسيط في مكتب المصنع ، بل زار الاحياء القذرة حيث كان يقطن العمال ، وحيث استطاع ان يرى ، بام عينه ، كل بؤسهم ، وبلاياهم . ولم يكتف بملاحظاته الشخصية ، بل قرا ايضا كل ما سجله الغير من قبله عن حالة الطبقة العاملة الانجليزية ، ودرس درسا دقيقا جميع الوثائق

الرسمية التي تمكن من الرجوع اليها ان كتابه «حالة الطبقة العاملة في انجلترا» ، الذي صدر في سنة ١٨٤٥ ، كان ثمرة تلك الدراسات وتلك الملاحظات . ولقد ذكرنا آنفا المأثرة الرئيسية التي حققها انجلس في مؤلفه «حالة الطبقة العاملة في انجلترا» كثيراً كان عدد الذين تحدثـوا ، حتى قبل انجلس ، عـن الام البروليتاريا وأكدوا ضرورة مساعدتها اما انجلس ، فكان اول من اثبت ان البروليتاريا ليست فقط الطبقة التي تتألم ، بل ان الحالة الاقتصادية المخزية التي تعانيها البروليتاريا هي التي تدفع بها الى امام دفعا لا يُردّ ، وتحفزها الى النضال في سبيل تحررها النهائي . والحال ، ان البروليتاريا المناضلة ستساعد نفسهـا بنفسها . ان الحركة السياسية للطبقة العاملة ستقود حتما العمال الى ان يدركـوا ان ليس ابداً من مخرج امامهـم غير طريق الاشتراكية . والاشتراكية ، من جهة اخرى ، لن تصبح قوة ، الا عندما تصبح الهدف لنضال الطبقة العاملـة السياسي هذه هي الافكار الاساسية في كتاب انجلس عن حالـة الطبقة العاملة في انجلترا ، وهي افكار مقبولة اليوم لدى مجموع البروليتاريا التي تفكر وتناضل ، ولكنها كانت جديدة كل الجدة في ذلك الحين . ان هذه الافكار قد عرضت في هذا الكتاب المصوغ باسلوب أخاذ والحافل باصدق المشاهد ، واشدها اثارة للرعب ، عن بؤس البروليتاريا الانجليزية لقد كان هذا الكتاب صك اتهام رهيب ضد الرأسمالية والبرجوازية . وكان الاثر الذي احدثه عظيماً ففي كل مكان كانوا يستشهدون بكتاب انجلس بوصفه خير صورة عن حالة البروليتاريا المعاصرة . وفعلا ، لم يظهر ، لا قبل سنة ١٨٤٥ ، ولا بعدها ، عرض صادق ساطع ، الى هذا الحد ، لشقاء الطبقة العاملة .

لم يصبح انجلس اشتراكيا الا في انجلترا . ففي منشستر اقام علاقات مع اعضاء حركة العمال الانجليزية في ذلك الوقت ، واخذ يكتب في المنشورات الاشتراكية الانجليزية وعند عودته الى المانيا في ١٨٤٤ واثناء مروره في باريس تعرف على ماركس . وكان يراسله منذ بعض الحين . ففي باريس ، وبتاثير الاشتراكيين الفرنسيين ، والحيـــاة الفرنسية ، كان ماركس قد غدا ايضـــا اشتراكيا وهناك كتب الصديقان معا «العائلة المقدسة ، او انتقاد الانتقاد النقاد» وهذا الكتاب الذي كتب ماركس القسم الاكبر منه ، والذي صدر قبل سنة من صدور كتاب «حالة الطبقة العاملة في انجلترا» ، يضع الاسس لهذه الاشتراكية المادية الثورية التي عرضنا آنفا افكارها الرئيسية . و«العائلة المقدسة» هي تسمية هزلية للاخوين الفيلسوفين باور واتباعهما فهؤلاء السادة كانوا يبشرون بالانتقاد الذي يضع نفسه فوق كل واقع ، فوق الاحزاب ، وفوق السياسة ، والذي ينكر كل نشاط عملي ويكتفي بالتامل ، «من وجهة نظر انتقادية» ، في العالم الذي يحيط به ، وفي الحوادث التي تتطور فيه ان هذين السيدين باور كانا ينظران الى البروليتاريا «من عل» معتبرينها جماعة مجردة من كل تفكير انتقادي . لقد وقف ماركس وانجلس موقفا حازما ضد هذا الاتجاه الضار والاخرق . وباسم الشخصية الانسانية الفعلية ، اي العامل الذي تظلمه الطبقات الحاكمة والدولة ، طالبا لا بالتامل ، بل بالنضال في سبيل تنظيم افضل للمجتمع . وهما ، بالطبع ، لا يريان الا في البروليتاريا القوة التي لها مصلحة في خوض هذا النضال والتي هي قادرة على خوضه . وقبل نشر كتاب «العائلة المقدسة» ، نشر انجلس ، في مجلة ماركس وروغه «الحوليـــة الالمانية الفرنسية» ، «دراســـات انتقادية حول

الاقتصاد السياسي» حلل فيها ، من وجهة نظر الاشتراكية ، الوقائع الاساسية في النظام الاقتصادي المعاصر ، الناجمة ، حتماً ، عن سيطرة الملكية الخاصة . ان صلات ماركس بانجلس قد دفعت الاول ، بدون جدال ، الى الاهتمام بالاقتصاد السياسي ، هذا العلم الذي قامت مؤلفاته بثورة كاملة فيه

ومن سنة ١٨٤٥ الى ١٨٤٧ ، عاش انجلس في بروكسل وباريس رابطاً دراساته العلمية بالنشاط العملي بين العمال الالمان في هاتين المدينتين وفي تلك الفترة ، اقام ماركس وانجلس علاقات مع المنظمة الالمانية السرية المسماة «عصبة الشيوعيين»، التي عهدت اليهما بعرض المبادئ الاساسية للاشتراكية التي صاغاها . وهكذا نشأ بيانهما المشهور : «بيان الحزب الشيوعي» الصادر في سنة ١٨٤٨ ان هذا الكتيب يساوي المجلدات الضخمة : فروحه ما تزال ، حتى ايامنا ، تنفذ الى مجموع البروليتاريا المنظمة ، المناضلة ، في العالم المتمدن وتحركها

اما ثورة ١٨٤٨ ، التي اندلعت اولا في فرنسا ، ثم امتدت الى البلدان الاخرى من اوروبا الغربية ، فقد جعلت ماركس وانجلس يقرران العودة الى بلادهما . وهناك ، في بروسيا الرينانية ، قاما على رأس الجريدة الديموقراطية «الجريدة الرينانية الجديدة» التي كانت تصدر في مدينة كولونيا . وكان الصديقان روح جميع المساعي الثورية الديموقراطية في بروسيا الرينانية . وقد دافعا بالقوة والعزم ، عن مصالح الشعب والحرية ضد القوى الرجعية غير ان الغلبة كانت لهذه القوى الرجعية ، كما هو معلوم . فعطلت «الجريدة الرينانية الجديدة» . ولما كان ماركس قد فقد جنسيته البروسية اثناء هجرته ، فقد طرد . اما انجلس فقد اشترك في انتفاضة الشعب المسلحة ، واشترك في ثلاث معارك

من اجل الحرية ، وبعد هزيمة الثوار ، هرب الى لندن بطريق سويسرا .

كذلك جاء ماركس وأقام في لندن ، اما انجلس فقد عاد بعد حين مستخدماً من جديد ، ثم شريكاً في المؤسسة التجارية نفسها ، في منشستر ، حيث كان قد اشتغل في السنوات الاربعين . وحتى سنة ١٨٧٠ عاشا ، انجلس في منشستر ، وماركس في لندن ولكن هذا لم يكن يمنعهما من ان تكون وحدة افكارهما وثيقة اشد الوثوق . فكانا يتراسلان في كل يوم تقريبا . وفي هذه المراسلات كان يطالع الصديق صديقه بآرائه ومعلوماته وكانا يتابعان معاً صياغة الاشتراكية العلمية وفي سنة ١٨٧٠ اقام انجلس في لندن مواصلا مع ماركس حياتهما الفكرية المشتركة الزاخرة بنشاط شديد ، حتى عام ١٨٨٣ ، عام وفاة ماركس وقد كانت ثمرة هذا العمل ، بالنسبة لماركس — كتابه «رأس المال» ، اعظم مؤلف في الاقتصاد السياسي في عصرنا . وكانت ، بالنسبة لانجلس ، عدداً من المؤلفات الكبيرة والصغيرة . كان ماركس يعمل في تحليل الظاهرات المعقدة في الاقتصاد الراسمالي . وكان انجلس يعرض في مؤلفاته المكتوبة باسلوب واضح وجدلي في كثير من الاحيان ، اهم القضايا العلمية .ومختلف وقائع الماضي والحاضر ، بروح المفهوم المادي للتاريخ لدى ماركس ونظريته الاقتصادية . وبين مؤلفات انجلس هذه نذكر كتابه الجدلي ضد دوهرينغ (الذي حلل فيه اهم قضايا الفلسفة ، والعلوم الطبيعية والاجتماعية) * ، وكتابه «اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة»

---

* انه كتاب رائع ، تثقيفي وغني المحتوى ومن المؤسف انه لم يترجم منه الى الروسية سوى جزء صغير يتعلق باللمحة التاريخية عن

(الترجمة الروسية الصادرة في سانت-بطرسبورغ ، الطبعة الثالثة ، ١٨٩٥) ، و«لودفيغ فورباخ» (الترجمة الروسية مع ملاحظات بقلم بليخانوف ، جينيف ، ١٨٩٢) ، ومقالا حول السياسة الخارجية للحكومة الروسية (صدرت ترجمته بالروسية في جريدة «سوسيال-ديموقراط» ، العددين الاول والثاني ، في جينيف) ، والمقالات الرائعة حول مسالة السكن ، واخيراً ، مقالين موجزين عن التطور الاقتصادي في روسيا ، ولكنهما ذات قيمة كبيرة («فريدريك انجلس يكتب عن روسيا» ، الترجمة الروسية بقلم زاسوليتش ، جينيف ، ١٨٩٤) . وقد توفي ماركس قبل ان يتمكن من انجاز مؤلفه العظيم عن رأس المال اما مسودة المخطوطة فكانت جاهزة . وهكذا قام انجلس بالعبء الثقيل بعد وفاة صديقه ، فنقح واصدر المجلدين الثاني والثالث من «رأس المال» : فقد نشر المجلد الثاني في ١٨٨٥ ، والثالث في ١٨٩٤ (ولم يتوافر له الوقت لتحضير المجلد الرابع) ولقد اضطر لبذل مجهود كبير جداً لتحضير واصدار المجلدين المذكورين وقد لاحظ الاشتراكي-الديموقراطي النمساوي آدلر ، بحق ، ان انجلس ، باصداره المجلدين الثاني والثالث من «رأس المال» ، قد نصب لصديقه العبقري اثراً جليلا كتب عليه ، دونما قصد ، باحرف لا تمحى ، اسمه الخاص الى جانب اسم ماركس . فان هذين المجلدين من «رأس المال» هما ، بالفعل ، عمل ماركس وانجلس المشترك . ان الأساطير القديمة تروي امثلة مؤثرة عن

تطور الاشتراكية («تطور الاشتراكية العلمية» ، الطبعة الثانية ، جينيف ، ١٨٩٢) (المقصود هنا كتابي انجلس «ضد دوهرينغ» و«الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» . الناشر) .

الصداقة . وبوسع البروليتاريا الاوروبية ان تقول ان علمها قد خلقه عالمان ومناضلان ، تفوق علاقاتهما الشخصية ما ترويه جميع اساطير الاقدمين البالغة الاثر عن الصداقة بين الناس ان انجلس قد وضع نفسه ، دائماً – وحقاً من حيث الاساس – بعد مرتبة ماركس . وقد كتب لأحد اصدقائه القدماء يقول «ولقد كنت دائماً ثاني عازف على الكمان بجانب ماركس»* . لقد كان حبه لماركس ، حياً ، وتكريمه للذكراه ، ميتاً ، لا حد لهما . لهذا المناضل الصارم ، والمفكر الشديد ، كانت له روح محبة ، على نحو عميق .

بعد حركة ١٨٤٨ – ١٨٤٩ ، لم يتجل نشاط ماركس وانجلس في المنفى ، في ميدان العلم فقط . فقد أسس ماركس في سنة ١٨٦٤ «جمعية الشغيلة العالمية» التي قام بقيادتها مدة عشر سنوات وكذلك ، اسهم انجلس بقسط نشيط في شؤونها اما «الجمعية العالمية» التي كانت ، حسب فكرة ماركس ، توحّد البروليتاريين من جميع البلدان ، فقد كان نشاطها ذا اهمية كبرى في تطور الحركة العمالية . ومع ان هذه الجمعية قد حُلت ، في السنوات السبعين ، فان الدور التوحيدي الذي قام به ماركس وانجلس لم يتوقف ، بل خلافاً لذلك ، نستطيع القول بان دورهما كمرشدين فكريين للحركة العمالية ، كان يتعاظم دائماً ، لأن الحركة نفسها كانت تتطور دونما توقف . وبعد وفاة ماركس ، اصبح انجلس ، وحده ، المستشار والمرشد للاشتراكيين الاوروبيين . واليـه كان يأتي ، لطلب النصائح والارشادات ،

---

* راجع رسالة انجلس الى بيكر في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٨٤ . الناشر .

الاشتراكيون الالمان ، الذين لم تنفك قوتهم تنمو نمواً سريعاً رغم الاضطهــادات الحكومية ، وكذلك ممثلو البلدان المتاخرة الاسبانيون ، والرومانيون ، والروس ، الذين كان عليهم ان يتبصروا ويزنوا خطاهم الاولى لقد كانوا جميعاً ينهلون من الينبوع الدفاق ، ينبوع معارف الشيخ انجلس وتجربته

ان ماركس وانجلس ، اللذين كانا يعرفان الروسية ، ويقرآن الأدب بهذه اللغة ، كانا يهتمان بروسيا اهتماماً شديداً ، ويتتبعان بعطف الحركة الثورية في هذه البلاد ، ويقيمان العلاقات مع الثوريين الروس . لقد كانا ديموقراطيين قبل ان يصبحا اشتراكيين . وكان شعورهما الديموقراطي ، الذي يدفعهما الى الحقد على التعسف السياسي ، قويــا الى الحد الاقصى ان هذا الشعور السياسي الفطري ، بالاضافة الى فهم نظري عميق للعلاقة بين التعسف السياسي والطغيان الاقتصادي ، والى تجربة غنية في الحياة ، كل هذا جعل ماركس وانجلس يتمتعان بحس مرهف في الميدان السياسي بالذات ولذا ، فان النضال البطولي الذي كانت تقوم به حفنة قليلة من الثوريين الروس ضد الحكومة القيصرية الكلية الجبروت قد لاقى اشد ما يكون من العطف في قلب كل من هذين الثوريين المجربين وعكساً لذلك ، فمحاولة الاعراض باسم منافع اقتصادية مزعومة ، عن اهم المهمات واكثرها الحاحــا الموضوعة امـــام الثوريين الروس ، ونعني بها الظفر بالحرية السياسية ، ان هذه المحاولة كانت تبدو لهما بطبيعة الحال ، شيئاً مشتبهاً فيه ، بل كانا يعتبرانها ، بكل بساطة ، خيانة لقضية الثورة الاجتماعية الجليلة وان تحرير البروليتاريا يجب ان يكون من عمل البروليتاريا نفسها» هذا ما علّمه دائما ماركس وانجلس . ولكن ، لكي تناضل البروليتاريا في سبيل

تحررها الاقتصادي ، يجب عليهـــا ان تظفر ببعض الحقوق السياسية . ومن جهة اخرى ، كان ماركس وانجلس يريان بوضوح ان الثورة السياسية في روسيا ستكون لها اهمية عظيمة بالنسبة للحركة العمالية في اوروبا الغربية ايضا . فان روسيا الاوتوقراطية كانت دائماً حصن الرجعية الأوروبية كلها . ان وضع روسيا الدولي الملائم الى اقصى حد ، والناشئ عن حرب سنة ١٨٧٠ التي بذرت الخلاف بين المانيا وفرنسا مدة طويلة ، قد زاد زيادة لا تقبل الجدل ، من اهمية روسيا الاوتوقراطية ، بوصفها قوة رجعية فقط روسيا حرة ، لا تعود في حاجة ، لا الى اضطهاد البولونيين والفنلنديين والالمان والارمن وغيرهم من الشعوب الصغيرة ، ولا الى العمل دائماً على تحريض المانيا وفرنسا احداهما على الاخرى ، ستتيح لاوروبا المعاصرة ان تتنفس الصعداء اخيراً من اعباء الحرب ، وستضعف جميع العناصر الرجعية في اوروبا ، وتزيد قوى الطبقة العاملة الاوروبية ولهذا السبب ، وفي سبيل نجاح الحركة العمالية في الغرب ايضا ، كان انجلس يرغب رغبة حارة في ان تقوم الحرية السياسية في روسيا لقد فقد الثوريون الروس في شخصه خير صديق لهم .

الذكرى الخالدة للمناضل العظيم ، ولمربي البروليتاريـــا الكبير فريدريك انجلس !

كتب في خريف ١٨٩٥
نشر لاول مرة في ١٨٩٦
في مجموعة «رابوتنيك» ،
العدد ١ــ٢

لينين
مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة

يثير مذهب ماركس ، في مجمل العالم المتمدن ، اشد العداء والحقد لدى العلم البرجوازي كله (سواء الرسمي ام الليبرالي) ، اذ يرى في الماركسية ضرباً من «بدعة ضارة» ليس بالامكان توقع موقف آخر ، اذ لا يمكن ان يكون ثمة علم اجتماعي «غير متحيّز» في مجتمع قائم على النضال الطبقي . فكل العلم الرسمي والليبرالي يدافع ، بصورة او باخرى ، عن العبودية الماجورة ، بينما الماركسية اعلنتها حرباً لا هوادة فيها ضد هذه العبودية ان تطلب علماً غير متحيز في مجتمع قائم على العبودية الماجورة ، لمن السذاجة الصبيانية كان تطلب من الصناعيين عدم التحيز في مسالة ما اذا كان يجدر تخفيض ارباح الراسمال من اجل زيادة اجرة العمال .

ولكن ليس ذلك كل ما في الامر . فان تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم الاجتماعي يبيّنـان بكل وضوح ان الماركسيـة لا تشبه «الانعزالية» بشيء بمعنى انها مذهب متحجر ومنطو على نفسه ، قام بمعزل عن الطريق الرئيسي لتطور المدنية العالمية . بل بالعكس فان عبقرية ماركس كلها تتقوم بالضبط في كونه اجاب على الاسئلة التي طرحها الفكر الانساني التقدمي . وقد ولد

مذهبه بوصفه التتمة المباشرة الفورية لمذاهب اعظم ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية

ان مذهب ماركس لكلّي الجبروت ، لانه صحيح . وهو متناسق وكامل ؛ ويعطي الناس مفهوما منسجما عن العالم ، لا يتفق مع اي ضرب من الاوهام ، ومع اية رجعية ، ومع اي دفاع عن الطغيان البرجوازي وهو الوريث الشرعي لخير ما ابدعته الانسانية في القرن التاسع عشر : الفلسفة الالمانية ، والاقتصاد السياسي الانجليزي ، والاشتراكية الفرنسية

واننا سنتناول بايجاز مصادر الماركسية الثلاثة هذه ، التي هي في الوقت نفسه اقسامها المكوّنة الثلاثة .

١

ان المادية هي فلسفة الماركسية ففي غضون كل تاريخ اوروبا الحديث ، ولا سيما في اواخر القرن الثامن عشر ، في فرنسا ، حيث كان يجري نضال حاسم ضد كل نفايات القرون الوسطى ، ضد الاقطاعية في المؤسسات وفي الافكار ، كانت المادية الفلسفة الوحيدة المنسجمة الى النهاية ، والامينة لجميع تعاليم العلوم الطبيعية ، والمعادية للاوهام ولتصنع التقوى ، الخ .. ولذا بذل اعداء الديموقراطية كل قواهم «لدحض» المادية ، لتقويضها ، للافتراء عليها ؛ ودافعوا عن شتى اشكال المثالية الفلسفية التي تؤول ابداً ، على نحو او آخر ، الى الدفاع عن الدين او الى نصرته .

ولقد دافع ماركس وانجلس بكل حزم عن المادية الفلسفية وبيّنا مراراً عديدة ما في جميع الانحرافات عن هذا الاساس من اخطاء عميقة . ووجهات نظرهما معروضة باكثر ما يكون من

الوضوح والتفاصيل في مؤلفي انجلس «لودفيغ فورباخ» و«دحض دوهرينغ» ، اللذين هما ، على غرار «البيان الشيوعي» ، الكتابان المفضلان لدى كل عامل واع

ولكن ماركس لم يتوقف عند مادية القرن الثامن عشر ، بل دفع الفلسفة خطوات الى الامام فاغناها بمكتسبات الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، ولا سيما بمكتسبات مذهب هيغل ، الذي قاد بدوره الى مادية فورباخ . وأهم هذه المكتسبات ، الديالكتيك ، اي نظرية التطور باكمل مظاهرها واشدها عمقاً ، واكثرها بعداً عن ضيق الافق ، نظرية نسبية المعارف الانسانية التي تعكس المادة في تطورها الدائم . ان احدث اكتشافات العلوم الطبيعية — الراديوم ، والالكترونات ، وتحوّل العناصر — قد اثبتت بشكل رائع صحة مادية ماركس الديالكتيكية ، رغم الف مذاهب الفلاسفة البرجوازيين ورغم ردّاتهم «الجديدة» نحو المثالية القديمة المهترئة .

وقد عمق ماركس المادية الفلسفية وطوّرها ، فانتهى بها الى نهايتها المنطقية ووسع نطاقها من معرفة الطبيعة الى معرفة المجتمع البشري . ان مادية ماركس التاريخية كانت اكبر انتصار احرزه الفكر العلمي . فحل اثر البلبلة والاعتباط اللذين كانا سائدين حتى ذلك الحين في مفاهيم السياسة والتاريخ ، جاءت نظرية علمية روعة في التناسق والتجانس والانسجام ، تبين كيف ينبثق ويتطور ، من شكل معين من التنظيم الاجتماعي ، ومن جراء نمو القوى المنتجة ، شكل آخر ، ارفع ، — كيف تولد الراسمالية من الاقطاعية ، مثلا .

وكما ان معرفة الانسان تعكس الطبيعة القائمة بصورة مستقلة عنه ، اي المادة في طريق التطور ، كذلك تعكس معرفة

الانسان الاجتماعية (اي مختلف الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية والسياسية ، الخ .) نظام المجتمع الاقتصادي ان المؤسسات السياسية تقوم كبناء فوقي على اساس اقتصادي ؛ فاننا نرى ، مثلا ، كيف ان مختلف الاشكال السياسية للدول الاوروبية العصرية هي ادوات لتعزيز سيطرة البرجوازية على البروليتاريا

ان فلسفة ماركس هي مادية فلسفية كاملة ، اعطت الانسانية ، والطبقة العاملة بخاصة ، ادوات جبارة للمعرفة

٢

بعدما لاحظ ماركس ان النظام الاقتصادي يشكل الاساس الذي يقوم عليه البناء الفوقي السياسي ، اعار انتباهه اكثر ما اعاره لدراسة هذا النظام الاقتصادي . ومؤلف ماركس الرئيسي «رأس المال» مكرّس لدراسة النظام الاقتصادي في المجتمع الحديث ، اي الرأسمالي

لقد تكون الاقتصاد السياسي الكلاسيكي ما قبل ماركس في انجلترا ، وكانت اكثر البلدان الرأسمالية تطوراً . فقد درس آدام سميث ودافيد ريكاردو النظام الاقتصادي فسجلا بداية نظرية القيمة-العمل وواصل ماركس عملهما فاعطى هذه النظرية اساساً علمياً خالصاً وطورها بصورة منسجمة الى النهاية . وبين ان قيمة كل بضاعة مشروطة بوقت العمل الضروري اجتماعياً لانتاج هذه البضاعة .

وحيث كان الاقتصاديون البرجوازيون يرون علاقات بين الاشياء (مبادلة بضاعة ببضاعة اخرى) ، اكتشف ماركس علاقات بين الناس . ان تبادل البضائع يعبر عن الصلة القائمة ، بوساطة السوق ، بين المنتجين المنفردين . والمال (النقد) يعني

ان هذه الصلة تزداد وثوقا ، جامعة في كل واحد لا يتجزأ كل حياة المنتجين المنفردين الاقتصادية والرأسمال يعني استمرار تطور هذه الصلة : فان قوة عمل الانسان تغدو بضاعة فالاجير يبيع قوة عمله لمالك الارض ولصاحب المصنع وادوات الانتاج والعامل يستخدم قسما من يوم العمل لتغطية نفقات اعالته واعالة اسرته (الاجرة) ؛ ويستخدم القسم الآخر للشغل مجاناً ، خالقا للرأسمالي **القيمة الزائدة** ، التي هي مصدر ربح ، مصدر الثراء للطبقة الرأسمالية

ان نظرية القيمة الزائدة تشكل حجر الزاوية في نظرية ماركس الاقتصادية

ان الرأسمال الذي يخلقه عمل العامل ينيخ بثقله على العامل ، ويخرب صغار ارباب العمل ، وينشئ جيشاً من العاطلين عن العمل وانتصار الانتاج الضخم في الصناعة امر ظاهر من النظرة الاولى ؛ ولكننا لنلاحظ ظاهرة مماثلة في الزراعة ايضاً فان تفوق الاستثمار الزراعي الرأسمالي الضخم واستخدام الآلات يزدادان ، والاستثمارات الفلاحية تقع في ربقة الرأسمال النقدي وتنحط ويحل بها الخراب تحت وطأة تكنيكها المتاخر ان اشكال هذا الانحطاط في الانتاج الصغير تختلف في الزراعة عنها في الصناعة ، ولكن الانحطاط نفسه واقع لا جدال فيه .

ان الرأسمال ، اذ يتغلب على الانتاج الصغير ، يؤدي الى زيادة انتاجية العمل والى خلق وضع احتكاري في صالح جمعيات الرأسماليين الكبار . وصفة الانتاج الاجتماعية تزداد بروزاً يوما بعد يوم مئات الآلاف والملايين من العمال يجمعون في هيئة اقتصادية متناسقة ، بينما قبضة من الرأسماليين تستملك نتاج العمل المشترك . وتشتد فوضى الانتاج ، والازمات والركض المجنون وراء الاسواق ، وعدم ضمان العيش لسواد السكان .

ان النظام الراسمالي يزيد من تبعية العمال ازاء الرأسمال ويخلق في الوقت نفسه قدرة العمل الموحد الكبيرة .

لقد تتبع ماركس تطور الراسمالية منذ عناصر الاقتصاد البضاعي الاولية ، التبادل البسيط ، حتى اشكالها العليا ، الانتاج الكبير .

وان تجربة جميع البلدان الراسمالية ، القديمة منها والجديدة ، تبين بوضوح ، وسنة بعد سنة ، صحة مذهب ماركس هذا لعدد متزايد ابداً من العمال .

لقد انتصرت الراسمالية في العالم باسره ، ولكن هذا الانتصار ليس سوى المقدمة لانتصار العمل على الرأسمال .

٣

عندما دُك النظـــام الاقطاعي ، ورأى المجتمع الراسمالي «الحر» النور ، تبين فوراً ان هذه الحرية تعني نظاما جديداً لاضطهاد الشغيلة واستثمارهم . وفوراً اخذت تنبثق شتى المذاهب الاشتراكية ، انعكاساً لهذا الاضطهاد واحتجاجا عليه . ولكن الاشتراكية البدائية كانت اشتراكية طوبوية . فقد كانت تنتقد المجتمع الراسمالي ، وتشجبه ، وتلعنه ، وتحلم بازالته ، وتتخيل نظاما افضل ؛ وتسعى الى اقناع الاغنياء بان الاستثمار مناف للاخلاق .

ولكن الاشتراكية الطوبوية لم تكن بقادرة على الاشارة الى مخرج حقيقي . ولم تكن لتعرف كيف تفسر طبيعة العبودية الماجورة في ظل النظام الراسمالي ، ولا كيف تكتشف قوانين تطور الراسمالية ، ولا كيف تجد القوة الاجتماعية القادرة على ان تصير خالقة المجتمع الجديد .

غير ان الثورات العاصفة التي رافقت سقوط الاقطاعية ، القنانة ، في كل مكان من اوروبا وخاصة في فرنسا ، بينت بوضوح متزايد على الدوام ان النضـــال الطبقي هو اساس كل التطور وقوته المحركة .

فما من حرية سياسية تم انتزاعها من طبقة الاقطاعيين دون مقاومـــة يائسة . ومـــا من بلد رأسمالي قـــام على اساس حر ، ديموقراطي ، الى هذا الحد او ذاك ، دون قيام نضال حتى الموت بين مختلف طبقات المجتمع الرأسمالي

ومن عبقرية ماركس ، انه كان اول من استخلص هذا الاستنتاج الذي ينطوي عليه التاريخ العالمي وطبقـــه بصورة منسجمة الى النهاية . وهذا الاستنتاج هو مذهب النضال الطبقي .

لقد كان الناس وسيظلون ابداً ، في حقل السياسة ، اناساً سذجـاً يخدعهم الآخرون ويخدعون انفسهم ، مـــا لم يتعلموا استشفاف مصالح هذه الطبقات او تلك وراء التعابير والبيانات والوعود الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية فان انصار الاصلاحات والتحسينات سيكونون ابداً عرضة لخداع المدافعين عن الاوضاع القديمة طالما لم يدركوا ان قوى هذه الطبقات السائدة او تلك تدعم كل مؤسسة قديمة مهما ظهر فيها من بربرية واهتراء فلكي نسحق مقاومة هذه الطبقات ليس ثمة سوى وسيلة واحدة هي ان نجد في نفس المجتمع الذي يحيط بنا القوى التي تستطيع — وينبغي عليها بحكم وضعها الاجتماعي — ان تغدو لقوة القادرة على تكنيس القديم وخلق الجديد ، وان نثقف هذه القوى وننظمها للنضال .

فقط مادية ماركس الفلسفية بينت للبروليتاريا الطريق الواجب سلوكه للخروج من العبودية الفكرية التي كانت تتخبط

فيها حتى ذاك جميع الطبقات المظلومة فقط نظرية ماركس الاقتصادية اوضحت وضع البروليتاريا الحقيقي في مجمل النظام الرأسمالي .

ان المنظمات البروليتارية المستقلة تتكاثر في العالم باسره من اميركا الى اليابان ومن اسوج الى افريقيا الجنوبية . والبروليتاريا تتعلم وتتربى في غمرة نضالها الطبقي وتتحرر من اوهام المجتمع البرجوازي وتزداد تلاحماً على الدوام وتتعلم كيف تقدر نجاحاتها حق قدرها وتوطد قواها وتنمو بشكل لا مرد له .

«بروسفيشينيه» ، العدد ٣ ،
آذار (مارس) ١٩١٣

ماركس

موضوعات عن فورباخ (١)

١

ان النقيصة الرئيسية في المادية السابقة بأسرها – بما فيها مادية فورباخ – هي ان الشيء (Gegenstand) ، الواقع ، الحساسية ، لم تعرض فيها الا بشكل موضوع (Objekt) او بشكل تأمل (Anschauung) ، لا بشكل نشاط انساني حسي ، لا بشكل تجربة ، لا من وجهة النظر الذاتية . ونجم عن ذلك ان الجانب العملي ، بخلاف المادية ، انما طورته المثالية ، ولكن فقط بشكل تجريدي ، لان المثالية لا تعرف ، بطبيعة الحال ، النشاط الواقعي الحسي كما هو وفورباخ يريد الموضوعات الحسية التي تتميز في الحقيقة عن الموضوعات الفكرية ، ولكنه لا ينظر الى النشاط الانساني نفسه بوصفه نشاطا واقعيا (gegenstäundliche) . ولهذا لم يعتبر في كتابه «جوهر المسيحية» شيئا انسانيا حقا الا النشاط النظري ، في حين انه لم ينظر الى النشاط العملي ولم يحدده الا من حيث شكله التجاري الوسخ . ولهذا ، لا يدرك اهمية النشاط «الثوري» ، «النقدي-العملي» .

٢

ان معرفة ما اذا كان التفكير الانساني له حقيقة واقعية (gegenstäundliche) ليست مطلقا قضية نظرية ، انما هي قضية

عملية ؛ ففي النشاط العملي ينبغي على الانسان ان يثبت الحقيقة ، اي واقعية وقوة تفكيره ووجود (Diesseitigkeit) هذا التفكير في عالمنا هذا . والنقاش حول واقعية او عدم واقعية التفكير المنعزل عن النشاط العملي انما هو قضية كلامية بحتة

٣

ان النظرية المادية التي تقر بان الناس هم نتاج الظروف والتربية ، وبالتالي بان الناس الذين تغيروا هم نتاج ظروف اخرى وتربية متغيرة ، — هذه النظرية تنسى ان الناس هم الذين يغيرون الظروف وان المربي هو نفسه بحاجة للتربية ولهذا فهي تصل بالضرورة الى تقسيم المجتمع قسمين احدهما فوق المجتمع (عند روبرت اوين مثلا)

ان اتفاق تبدل الظروف والنشاط الانساني لا يمكن بحثه وفهمه فهماً عقلانيا الا بوصفه عملا ثوريا

٤

ان فورباخ ينطلق من واقع ان الدين يبعد الانسان عن نفسه ، ويشطر العالم الى عالم ديني موهوم وعالم واقعي . وعمله ينحصر في جر العالم الديني الى قاعدته الأرضية . وهو لا يرى انه متى انتهى هذا العمل ، يبقى الشيء الرئيسي غير منجز . والواقع ان القاعدة الارضية تفصل نفسها عن نفسها وتنقل نفسها الى السحاب بوصفها ملكوتا مستقلا لا يمكن تفسيره الا بالنزاعات والتناقضات الداخلية الملازمة لهذه القاعدة الارضية . يجب اذن ، اولا ، فهم هذه الاخيرة في تناقضها ، وبعد ذلك يجب تعديلها

بشكل ثوري عن طريق ازالة هذا التناقض . وعليه ، حين يكتشف ، مثلا ، سر العائلة المقدسة في العائلة الارضية ، يجب انتقاد العائلة الارضية نفسها نظريا وتحويلها ثوريا بشكل عملي

٥

ان فورباخ الذي لا يرضيه **التفكير المجرد** يستنجد **بالتأمل الحسي** ؛ ولكنه لا يعتبر الحساسية نشاطا **عمليا** للحواس الانسانية .

٦

ان فورباخ يذيب الجوهر الديني في الجوهر الانساني . ولكن الجوهر الانساني ليس تجريدا ملازما للفرد المنعزل فهو في حقيقته مجموع العلاقات الاجتماعية كافة

ان فورباخ الذي لا ينتقد هذا الجوهر الحقيقي مضطـر اذن الى :

١ – ان يتجرد عن سير التاريخ وان يعتبر الشعور الديني (Gemüt) في ذاته ، مفترضا وجود فرد انساني مجرد **منعزل** ؛

٢ – ان يعتبر ، بالتالي ، الجوهر الانساني فقط بوصفه «نوعا» ، تعميما داخليا اخرس ، يربط كثرة من الافراد بعرى **طبيعية** بحتة .

٧

ولنتيجة لذلك لا يرى فورباخ ان «الشعور الديني» هو نفسه **نتاج اجتماعي** وان الفرد المجرد الذي يحلله يرجع في الحقيقة الى شكل اجتماعي معين .

٨

ان الحياة الاجتماعية هي بالاساس حياة عملية . وكل الاسرار الخفية التي تجر النظرية نحو الصوفية ، تجد حلولها العقلية في نشاط الانسان العملي وفي فهم هذا النشاط .

٩

ان الذروة التي بلغتها المادية التأملية ، اي المادية التي لا تعتبر الحساسية نشاطا عمليا انما هي تأمل افراد منعزلين في «المجتمع المدني»

١٠

ان وجهة نظر المادية القديمة هي المجتمع «المدني» ؛ ووجهة نظر المادية الجديدة هي المجتمع الانساني او الانسانية التي تتسم بطابع اجتماعي .

١١

ان الفلاسفة لم يفعلوا غير ان فسروا العالم باشكال مختلفة ولكن المهمة تتقوم في تغييره .

كتبها كارل ماركس
في ربيع عام ١٨٤٥
نشرها انجلس لاول مرة
في عام ١٨٨٨ في ملحق لطبعة
منفردة لكتابه «لودفيغ فورباخ
ونهاية الفلسفة الكلاسيكية
الالمانية»

يصدر حسب نص طبعة
عام ١٨٨٨ المقارن
بمخطوطة ماركس
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

ماركس وانجلس

بيان الحزب الشيوعي (٢)

مقدمة الطبعة الالمانية عام ١٨٧٢

ان عصبة الشيوعيين (٣) ، وهي جمعية شغيلة عالمية لم يكن من الممكن بحكم الظروف في ذلك العهد الا ان تكون جمعية سرية ، كلفت الموقعين ادناه ، في مؤتمر لندن المنعقد في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٤٧ ، بوضع برنامج مفصل للحزب ، نظري وتطبيقي ، قصد نشره . هذا هو منشأ هذا «البيان» الذي ارسلت نسخته الخطية لتطبع في لندن قبل ثورة شباط (٤) بعدة اسابيع . وقد نشر «البيان» بادئ الامر بالالمانية وصدر منه في هذه اللغة ما لا يقل عن اثنتي عشرة طبعة مختلفة في المانيا وانكلترا واميركا ثم نقلته الى الانجليزية المس هيلين ماك فارلن ، ونشر للمرة الاولى عام ١٨٥٠ في لندن بجريدة "Red Republican„ («ريد ريببليكان») (٥) . وفي عام ١٨٧١ ظهر منه في اميركا ما لا يقل عن ثلاث ترجمات مختلفة بالانجليزية . وظهرت الترجمة الفرنسية للمرة الاولى في باريس قبيل انتفاضة حزيران (يونيو) عام ١٨٤٨ (٦) ، ونشرته في الآونة الاخيرة جريدة "Le Socialiste„ («السوسياليست») (٧) في نيويورك . والآن تهيأ له ترجمة اخرى . وصدرت منه طبعة باللغة البولونية في لندن بعد ظهور الطبعة الالمانية الاولى بمدة وجيزة . ثم صدر

باللغة الروسية في جينيف في العقد السابع ، وترجم كذلك الى اللغة الدانماركية بعيد نشره .

ورغـــم ان الظروف تبدلت كثيراً خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة ، فالمبادئ العامة الواردة في هذا «البيان» لا تزال بالاجمال محافظة حتى اليوم على كل صحتها ، وان كان يجب ادخال بعض التعديل على عدد من الفقرات ان «البيان» نفسه يوضح ان تطبيق هذه المبادئ يتعلق دائماً وفي كل مكان بالظروف والاوضاع التاريخية في وقت معين ، فلا تعلق اهمية قائمة بذاتها على التدابير الثورية المذكورة في نهاية الفصل الثاني . ونحن لو عمدنا الى انشاء هذا المقطع اليوم ، لاختلف في اكثر من نقطة عن الاصل . وقد شاخ هذا البرنامج اليوم في بعض نقاطه ، نظراً للرقي العظيم في الصناعـــة الكبرى خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة وما رافق هذا الرقي من تقدم الطبقة العاملة في تنظيمها الحزبي ، ونظراً للتجارب الواقعية التي تركتها ثورة شباط (فبراير) اولاً ، ثم على الخصوص كومونة باريس (٨) حين كانت السلطة السياسية لاول مرة بين ايدي البروليتاريـــا لمدة شهريـــن . فقد برهنت الكومونـــة بصورة خاصـــة ان «الطبقة العاملـــة لا يمكنهـــا ان تكتفي بالاستيلاء على جهاز الدولة القائم واستخدامه في غاياتهـــا الخاصة» (راجع „Der Bürgerkrieg in Frankreich, Adresse des Generalrats der Internationalen Arbeiterassoziation“ «الحرب الاهلية في فرنسا نداء المجلس العام لجمعية الشغيلة العالمية» ، الطبعة الالمانية ، ص ١٩ ، حيث بسطت هذه الفكرة بصورة اكمل *) .

---

* راجع الطبعة الحالية ، الجزء الثاني . الناشر .

ومما لا ريب فيه ايضاً ان نقد الأدب الاشتراكي هو الآن غير كامل ، اذ انه يتوقف عند عام ١٨٤٧ ومن المفهوم كذلك ان الملاحظات بشان موقف الشيوعيين من مختلف احزاب المعارضة (الفصل ٤) ، وان كانت صحيحة اليوم ايضاً من حيث مبادئها ، الا انها اصبحت عتيقة من حيث تفاصيلها ، لمجرد كون الحالة السياسية قد تغيرت بتمامها ، والتطور التاريخي قد قضى على معظم الاحزاب المذكورة فيها

و«البيان» ، مع كل هذا ، وثيقة تاريخية لا نعتبر من حقنا تعديلها ، وربما نتوفق ونرفق احدى طبعاته المقبلة بمقدمة تستطيع ملء الفراغ بين عام ١٨٤٧ وايامنا هذه اما الطبعة الحالية من «البيان» فقد فوجئنا بها مفاجاة ، ولم يكن لدينا الوقت لمثل هذا العمل .

كارل ماركس
فريدريك انجلس

لندن ، ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٧٢

نشرت في كراس
„Das Kommunistische Manifest. Neue Ausgabe mit einem Vorwort der Verfasser". Leipzig. 1872

يصدر حسب نص الكراس
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

من مقدمة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠

لقد عاش «البيان» حياة خاصة به ، فاستقبلته عند صدوره طليعة الاشتراكية العلمية ، وكانت اذ ذاك قليلة العدد جداً ، بتحيات الحماسة (وتشهد على ذلك الترجمات المذكورة في المقدمة الاولى *) ، ثم قذفت به الرجعية الى مركز ثانوي

* راجع الطبعة الحالية ، ص ٤١ . الناشر .

عقيب انكسار العمال الباريسيين في حزيران (يونيو) ١٨٤٨ ، وفي آخر الامر أصبح «البيان» محرماً «بمقتضى القانون» عند صدور الحكم على شيوعيي كولونيا في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٥٢ (٩) . ومع زوال حركة العمال التي قامت في ثورة شباط (فبراير) عن مسرح الحياة الاجتماعية ، غاب «البيان» ايضاً .

ولما استعادت الطبقة العاملة الاوروبية قواها لهجوم جديد على سلطة الطبقات الحاكمة ، نشأت جمعية الشغيلة العالمية ، وكان هدفها ان تصهر جميع القوى المناضلة في الطبقة العاملة الاوروبية والاميركية في جيش جرار واحد فلم يكن في استطاعتها ، اذن ، ان تنطلق بصورة مباشرة من المبادئ المعروضة في «البيان» ، اذ كان عليها ان تضع برنامجاً لا يقفل الباب امام النقابات الانكليزية ولا امام البرودونيين الفرنسيين والبلجيكيين والايطاليين والاسبانيين ، ولا امام اللاساليين الالمان * وهذا البرنامج — الذي هو توطئة النظام الداخلي للاممية ** — وضعه ماركس بمهارة اعترف بها حتى باكونين والفوضويون وكان ماركس يؤمن الايمان كله بالانتصار النهائي للمبادئ الواردة

---

* كان لاسال يؤكد دائما في علاقاته معنا انه «تلميذ» لماركس ، وعلى هذا النحو كان يقف موقف «البيان» ، بالطبع ولكن الامر لم يكن كذلك مع بعض انصاره الذين لم يتجاوزوا برنامجه عن جمعيات انتاج تعاونية تمدها الدولة بالاعتمادات والذين قسموا كل الطبقة العاملة الى قسمين انصار الاعتماد على الحكومة وانصار الاعتماد على النفس (ملاحظة انجلس .)

** راجع كارل ماركس . النظام الداخلي العام ولائحة التنظيم لجمعية الشغيلة العالمية . الناشر .

في «البيان» ، وهو يعتمد في ذلك كليا وبوجه الحصر على التقدم الفكري للطبقة العاملة ، الذي كان يجب ان ينتج حتماً عن النشاط المشترك والمناقشة . ولم يكن من الممكن ان تمر الحوادث وتتتابع الانتصارات والاندحارات في النضال ضد الراسمال ، والاندحارات اكثر من الانتصارات ، دون ان تشعر المناضلين بان علاجاتهم الشافية غير كافية ، وتجعلهم يدركون ادراكا عميقا الشروط الحقيقية الضرورية لتحرير العمال وكان ماركس محقا فيما يذهب اليه . فان الطبقة العاملة في عام ١٨٧٤ ، بعد حل الاممية كانت تختلف اختلافا كليا عن تلك التي كانت في عام ١٨٦٤ عند تأسيس الاممية فالبرودونية في البلاد اللاتينية ، واللاسالية الموصوفة في المانيا ، كانتا في دور الاحتضار وحتى النقابات الانجليزية نفسها المغرقة في الرجعية كانت تقترب شيئا فشيئا من اللحظة التي كان يستطيع فيها رئيس * مؤتمرها المنعقد في سوانسي عام ١٨٨٧ ان يصرح باسمها «ان الاشتراكية القارية لم تعد تخيفنا» الا ان الاشتراكية في القارة الاوروبية كانت آنذاك ، اي عام ١٨٨٧ ، تنطبق كلها تقريبا على النظرية المشروحة في «البيان» . وهكذا يعكس تاريخ «البيان» ، الى حد ما ، تاريخ حركة العمال الحديثة منذ عام ١٨٤٨ . ولا ريب انه في الوقت الراهن لوسع المطبوعات الاشتراكية انتشاراً واكثرها امميـة ، بل هو البرنامج العام للملايين العديدة من العمال في جميع البلدان ، من سيبيريا الى كاليفورنيا .

ومع ذلك لم يكن في استطاعتنا ان نسميه عند صدوره بالبيان الاشتراكي ففي عام ١٨٤٧ كانت كلمة «الاشتراكي»

---

* – بيفن . الناشر .

هذه تضم نوعين من الناس . من جهة اتباع مختلف النظم الطوبوية ، واخصهم «الاوينيون» في انجلترا ، و«الفوريريون» في فرنسا ، وكانوا جميعاً قد اصبحوا حلقات بسيطة في دور الاحتضار . ومن جهة اخرى المشعوذون الاجتماعيون من كل شاكلة وطراز ، الذين كانوا يريدون بواسطة اكداس العلاجــات ، وكل انواع الترقيع والترميم ، ان يمحوا البؤس الاجتماعي دون ان يصيبوا الرأسمال والربح بأدنى ضرر . وفي كلتا الحالتين ، لم يكن هؤلاء جميعاً سوى اناس يقفون خارج حركة العمـــال وينتظرون ، بالاحرى ، العون والتأييد من الطبقات «المثقفة» . وبعكس ذلك ، كان هناك قسم من العمال مقتنع بعدم كفاية الانقلابات السياسية الصرف ، ويسعى وراء تغيير المجتمع تغييراً جوهرياً كاملاً ، وكان هذا القسم يسمي نفسه اذ ذاك شيوعيا وكانت شيوعيتهم هذه غير مكتملة ، شيوعية غريزية ، فيها احياناً شيء من الخشونة ، الا انه كان فيها ، مع ذلك ، القوة الكافية لتكوين منهجين من الشيوعية الطوبوية : في فرنسا «ايكارية» كابه ، وفي المانيا منهج ويتلينغ كانت الاشتراكيــة تدل في عام ١٨٤٧ على حركـة برجوازية ، والشيوعية على حركة عمال وكانت للاشتراكية ، في القارة الاوروبية على الاقل ، مداخلها الى المجتمع الراقي ، اما الشيوعية ، فكان الامر معها على عكس ذلك تماماً ! ولما كان رأينا الصريح الواضح منذ ذلك الحين ان «تحرير الطبقة العاملة لا يمكنه الا ان يكون من صنع الطبقة العاملة نفسها» ، لم يكن في استطاعتنا ان نتردد لحظة في الاسم الذي ينبغي لنا ان نختاره بين الاسمين . ولم يخطر لنا قط منذ ذلك الوقت ان ننبذ هذه التسمية

«يا عمال العالم ، اتحدوا !» — حينما القينا هذه الكلمات في العالم لم تجاوبنا سوى بضعة اصوات فقط . وكان ذلك منذ

اثنتين واربعين سنة وكنا اذ ذاك على اعتاب الثورة الباريسية ، اول ثورة خاضتها البروليتاريا بمطاليبها الخاصة (١٠) ولكن لم يحن يوم ٢٨ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٦٤ حتى كان العمال من اكثر اقطار اوروبا الغربية يتحدون ويؤلفون جمعية الشغيلة العالمية ذات الذكرى المجيدة ان الاممية نفسها لم تعش سوى تسع سنوات . اما التحالف الابدي الذي انشأته بين عمال جميع البلدان ، فليس ادل من يومنا هذا نفسه على انه لا يزال موجودا ، وانه الآن اقوى منه في اي وقت مضى ففي اللحظة (١١) التي اكتب فيهـــا هذه السطور ، تستعرض البروليتاريا الاوروبية والاميركية قواها الكفاحية التي تنتظم لاول مرة في جيش **واحد** ، وتحت علم **واحد** ، وفي سبيل هدف مباشر **واحد** — هو تحديد يوم العمل العادي بثماني ساعات تحديداً مشروعاً ، هذا اليوم الذي طالب به مؤتمر الاممية المنعقد في جينيف عام ١٨٦٦ ، وطالب به من جديد مؤتمر العمال المنعقد في باريس عـــام ١٨٨٩ ان مرأى هذا اليوم سوف يبين للراسماليين وكبار اصحاب الاراضي في كل الاقطار ، ان عمال العالم متحدون الآن اتحاداً حقيقيا فعليا

الا ليت ماركس الى جانبي ليرى بعينيه كل هذا !

فريدريك انجلس

لندن ، اول ايار (مايو) ١٨٩٠

نشرت في كتاب
„Das Kommunistische Manifest".
London, 1890

يصدر حسب نص الكتاب
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

بيان الحزب الشيوعي

هناك شبح يجول في اوروبا – هو شبح الشيوعية . وقد اتحدت كل قوى اوروبـــا العجوز في حلف مقدس لملاحقته والتضييق عليه من البابا والقيصر الى مترليخ وغيزو ، ومن الراديكاليين في فرنسا الى رجال الشرطة في المانيا

اي حزب معارض لم يتهمه خصومه القابضون على زمام السلطة بالشيوعية ؟ واي حزب معارض لم يلصق ، بدوره ، تهمة الشيوعيـة – الدامغة – سواء باقســام المعارضة التي هي اكثر تقدماً منه ، ام باخصامه الرجعيين ؟

ومن كل ذلك نستخلص شيئين :

اولهما ان الشيوعية اصبحت قوة معترفاً بها من جميع القوى الاوروبية .

والثاني ان الشيوعيين قد آن لهم ان يعرضوا امام العالم بأسره مفهوماتهم واهدافهم وميولهم ، ويدحضوا خرافة شبح الشيوعية ببيان من الحزب نفسه

ولهذه الغاية اجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات ووضعوا «البيان» التالي الذي ينشر باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والفلمنكية والدانماركية .

١

البرجوازيون والبروليتاريون *

ان تاريخ كل مجتمع ** الى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات .

---

* نعني بالبرجوازية طبقة الرأسماليين المعاصرين ، مالكي وسائل الانتاج الاجتماعي الذين يستخدمون العمل المأجور ونعني بالبروليتاريا طبقة العمال الاجراء المعاصرين الذين لا يملكون اية وسائل انتاج فيضطرون بالتالي الى بيع قوة عملهم لكي يعيشوا . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

** وعلى الاصح التاريخ المكتوب : ففي عام ١٨٤٧ كان تاريخ النظام الاجتماعي الذي سبق كل تاريخ مكتوب ، اي عهد ما قبل التاريخ ، مجهولا تقريباً . وبعدئذ اكتشف هاكستهاوزن في روسيا الملكية المشاعية للارض ، وبرهن مورير ان هذه الملكية المشاعية كانت الاساس الاجتماعي الذي انطلق منه تاريخيا تطور جميع القبائل الجرمانية ، ثم تبين شيئاً فشيئاً ان المشاعة الريفية مع التملك الجماعي للارض كانت في الماضي او تؤلف الآن الشكل الابتدائي للمجتمع في كل مكان من الهند الى ارلنده واخيراً اتضح تماما التنظيم الداخلي لهذا المجتمع الشيوعي الابتدائي بما فيه من ميزات اساسية ، عقب اكتشاف مورغان الذي بين الطبيعة الحقيقية للعائلة الابتدائية الاولى ومكانها من القبيلة وبانحلال هذه المشاعة الابتدائية يبدأ انقسام المجتمع الى طبقات متمايزة تصبح آخر الامر متعارضة وقد حاولت تتبع سير هذا الانحلال في كتابي „Der Ursprung der Familie, des Privateigentums und des Staats“, 2.Aufl., Stuttgart, 1886 (واصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » ، الطبعة الثانية ، شتوتغارت ، ١٨٨٦ .) (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية سنة ١٨٨٨ .) .

فالحر والعبد ، والنبيل والعامي ، والسيد الاقطاعي والقن ، والمعلم * والصانع ، اي بالاختصار المضطهِدون والمضطهَدون ، كانوا في تعارض دائم ، وكانت بينهم حرب مستمرة تارة ظاهرة وتارة مستترة ، حرب كانت تنتهي دائما اما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع باسره واما بانهيار الطبقتين المتناضلتين معا

وخلال العهود التاريخية السابقة نجد المجتمع في كل مكان تقريبا ، منظما تنظيما متسلسلاً ، والاوضاع الاجتماعية على مراتب ودرجات متفاوتة ففي روما القديمة نجد النبلاء ، ثم الفرسان ، ثم العامة ، ثم الارقـاء ؛ في القرون الوسطى نجد الاقطاعيين الاسياد ، ثم الاقطاعيين الاتباع ، ثم المعلمين ، ثم الصناع ، ثم الاقنان ، ونجد تقريبا داخل كل طبقة من هذه الطبقات مراتب ودرجات خاصة .

امـا المجتمع البرجوازي الحديث الذي نشـا على انقاض المجتمع الاقطاعي فانه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات ، بل اقام طبقات جديدة بدلاً من القديمة ، واوجد ظروفا جديدة للاضطهاد واشكالاً جديدة للنضال .

الا ان الذي يميز عصرنا الحاضر ، عصر البرجوازية هو انه جعل التناحر الطبقي اكثر بساطة فان المجتمع آخذ في الانقسـام اكثر فاكثر الى معسكرين فسيحين متعارضين ، الى طبقتين كبيرتين ، العداء بينهمـا مباشر – همـا البرجوازية والبروليتاريا

---

* المعلم : عضو كامل الحقوق في الحرفة ، معلم في داخل المشغل لا رئيسه . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية سنة ١٨٨٨ .)

فمن اقنان القرون الوسطى نشأت عناصر المدن الاولى ؛ ومن هؤلاء السكان المدنيين خرجت العناصر الاولى للبرجوازية .

ثم كان اكتشـــاف اميركا والطريق البحري حول شواطئ افريقيا الذي قدم للبرجوازية الصاعدة ميداناً جديداً للعمل . فان اسواق الهند والصين واستعمار اميركا والتبادل مع المستعمرات وتعدد وسائل التبادل وتدفق البضائع بوجه عام ، كل هذه الامور دفعت التجارة والملاحة والصناعة الى الامام بقوة لم تكن معروفة الى ذلك الحين وامنت بذلك نمواً سريعاً للعنصر الثوري في المجتمع الاقطاعي الآخذ في الانحلال .

ولم يعد في استطاعة اسلوب الانتاج الصناعي القديم ، الاقطاعي او الحرفي ، ان يلبي الحاجات التي كانت تزداد مع افتتاح الاسواق الجديدة ، فحلت المانيفاكتورة محله ، واخذت الفئة الصناعية المتوسطة مكان المعلمين ، واختفى تقسيم العمل بين هيئات الحرف المختلفة امام تقسيم العمل في قلب الورشة نفسها .

الا ان الاسواق كانت تتسع وتتعاظم دون انقطاع ، والطلب يزداد باستمرار ، فاصبحت المانيفاكتورة نفسهـــا غير وافية بالحاجة وعندئذ احدث البخار والآلة انقلاباً ثورياً في الانتاج الصناعي ، وحلت الصناعة الكبرى الحديثة محل المانيفاكتورة ، واخلت الفئة الصناعية المتوسطة الميدان لرجال الصناعة اصحاب الملايين ، لقواد الجيوش الصناعية الحقيقية اي لبرجوازيي العصر الحاضر

وخلقت الصناعة الكبرى السوق العالمية التي هياها اكتشاف اميركا . وادت السوق العالمية الى توسع التجارة والملاحة وتقدم المواصلات البرية بصورة هائلة ثم عاد هذا التوسع فاثر بدوره في مجرى الصناعة ، وكلمـــا كانت الصناعة والتجارة والملاحة

والسكك الحديدية تتقدم وتنمو ، كانت البرجوازية كذلك تنمو وتتعاظم وتضاعف رساميلها وتدفع الى الوراء جميع الطبقـات التي خلفتها القرون الوسطى .

فالبرجوازية المعاصرة نفسها ، كما نرى ، هي نتيجة تطور طويل وسلسلة من الثورات في اساليب الانتاج والتبادل

وكانت كل مرحلة من مراحل التطور التي مرت بها البرجوازية يقابلها رقي سياسي مناسب تحرزه هذه الطبقة فقد كانت البرجوازية في بادئ الامر فئة مضطهدة تحت عسف الاقطاعيين واستبدادهم ، ثم كانت جماعة مسلحة تدير نفسها بنفسها في الكومونة * ، هنا جمهورية مدينية مستقلة ، وهناك طبقة ثالثة ضمن المملكة تدفع الجزية للملك ، ثم في عهد المانيفاكتورة كانت البرجوازية قوة توازن رجحان قوة النبلاء في الممالك ذات الحكم المقيد او المطلق وحجر الزاوية للممالك الكبرى بوجه عام ، وآخراً منذ ان توطدت الصناعة الكبرى وتاسست السوق العالمية استولت البرجوازية على كل السلطة السياسية في الدولة التمثيلية الحديثة . فالحكومة الحديثة ليست سوى لجنة ادارية تدير الشؤون العامة للطبقة البرجوازية باسرها .

---

* «الكومونة» — هكذا كانت تسمى في فرنسا المدن الناشئة حتى قبل ان تنتزع من مالكيها واسيادها الاقطاعيين الادارة المحلية الذاتية والحقوق السياسية «للطبقة الثالثة» وبوجه عام ، اخذت انجلترا هنا نموذجا لتطور البرجوازية الاقتصادي واخذت فرنســا نموذجـا لتطور البرجوازية السياسي (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

الكومونة — هكذا كان سكان المدن في ايطاليا وفرنسا يسمون مجموعتهم المدينية ، فور ابتزاعهم او شرائهم من سادتهم الاقطاعيين حقوقهم الاولية في ادارة ذاتية . (ملاحظة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

لقد لعبت البرجوازية في التاريخ دوراً ثوريا للغاية .

فحيثما استولت البرجوازية على السلطة سحقت تحت اقدامها جميع العلاقات الاقطاعية والبطريركية والعاطفية ، وحطمت دون رأفة الصلات المزخرفة التي كانت في عهد الاقطاعية تربط الانسان «بسادته الطبيعيين» ولم تبق على صلة بين الانسان والانسان الا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف «نقداً وعداً» واغرقت الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورقة البرجوازية الصغيرة في مياه الحساب الجليدية المشبعة بالانانية ، وجعلت من الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادل لا اقل ولا اكثر ، وقضت على الحريات الجمة ، المكتسبة والممنوحة ، واحلت محلهـــا حرية التجارة وحدها ،هذه الحرية القاسية التي لا تشفق ولا ترحم . فهي ، بالاختصار ، استعاضت عن الاستثمار المقنع بالاوهام الدينية والسياسية باستثمار مكشوف هائن مباشر فظيع

وانتزعت البرجوازية عن المهن والاعمال التي كانت تعتبر الى ذلك العهد محترمة مقدسة ، كل بهائها ورونقها وقداستها ، وادخلت الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم في عداد الشغيلة الماجورين في خدمتها

ومزقت البرجوازية الحجاب العاطفي الذي كان مسدلا على العلاقات العائلية واحالتها الى علاقات مالية صرف .

وبينت البرجوازيـــة كيف ان الكسل والخمول في القرون الوسطى كانا التتمة الطبيعية لذلك المظهر الفظ للقوة الجسمانية التي تعجب بها الرجعية ايما اعجاب . والبرجوازية هي اول من اظهر ما يستطيع ابداعه النشاط الانساني ، فقد خلقت عجائب تختلف كل الاختلاف عن اهرامـــات مصر والاقنية الرومانيـــة

والكنائس القوطية ، وقادت حملات لا تشابه في شيء تنقلات الشعوب والحروب الصليبية (١٢) .

ان البرجوازية لا تعيش الا اذا ادخلت تغييرات ثورية مستمرة على ادوات الانتاج ، وبالتالي على علاقات الانتاج ، اي على العلاقات الاجتماعية باسرها . وبعكس ذلك ، كانت المحافظة على اسلوب الانتاج القديم ، الشرط الاول لحياة الطبقات الصناعية السالفة . فهذا الانقلاب المتتابع في الانتاج ، وهذا التزعزع الدائم في كل العلاقات الاجتماعية ، وهذا التحرك المستمر وانعدام الاطمئنان على الدوام ، كل ذلك يميز عهد البرجوازية عن كل العهود السالفة ، فان كل العلاقات الاجتماعية التقليدية الجامدة ، وما يحيط بها من مواكب المعتقدات والافكار ، التي كانت قديما محترمة مقدسة ، تنحل وتندثر ؛ اما التي تحل محلها فتشيخ ويتقادم عهدها قبل ان يصلب عودها . وكل ما كان تقليديا ثابتاً يطير ويتبدد كالدخان ، وكل ما كان مقدساً يعامل باحتقار وازدراء ويضطر الناس في النهاية الى النظر لظروف معيشتهم وعلاقاتهم المتبادلة باعين يقظة لا تغشاها الاوهام .

وبدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة تنطلق البرجوازية الى جميع انحاء الكرة الارضية . فينبغي لها ان تدخل وتتغلغل في كل مكان ، وتوطد دعائمها في كل مكان ، وتقيم الصلات في كل مكان .

وباستثمـــار السوق العالمية تصبغ البرجوازية الانتـــاج والاستهلاك في كل الاقطار بصبغة كوسموبوليتية وتنزع من الصناعة اساسها الوطني ، بين يأس الرجعيين وقنوطهم ، فتنقرض الصناعات الوطنية التقليدية القديمة او تصبح على وشك ان تنقرض . وتحل محلها صناعات جديدة يصبح ادخالها وتعميمها

مسالة حيوية لكل الامم المتمدنة ، صناعات لم تعد تستعمل المواد الاولية المحلية بل المواد الاولية الآتية من ابعد مناطق العالم ولا تستهلك منتجاتها في داخل البلاد نفسها فحسب بل في جميع انحاء المعمورة . وتتولد ، بدلا من الحاجات القديمة التي كانت تكفيها المنتجات الوطنية ، حاجات جديدة تتطلب لكفايتهـا منتجات اقصى الاقطار ومختلف المناخات . ومكان الانعزال المحلي والوطني السابق والاكتفاء الذاتي ، تقوم بين الامم صلات شاملة وتصبح الامم متعلقة بعضها ببعض في كل الميادين . وما يقال عن الانتاج المادي ينطبق ايضا على الانتاج الفكري . فثمار النشاط الفكري عند كل امة تصبح ملكا مشتركا لجميع الامم ويصبح من المستحيل اكثر فاكثر على اية امة ان تظل محصورة في افقها الضيق ومكتفية به . ويتالف من مجموع الآداب القومية والمحلية ادب عالمي .

وتجر البرجوازية الى تيار المدنية كل الامم ، حتى اشدها همجية ، تبعاً لسرعة تحسين جميع ادوات الانتاج وتسهيل وسائل المواصلات الى ما لا حد له فان رخص منتجاتها هو في يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتخرق كل ما هنالك من اسوار صينية ، وتنحني امامها رؤوس اشد البرابرة عداء وكرهاً للاجانب . وتجبر البرجوازية كل الامم ، تحت طائلة الموت ، ان تقبل الاسلوب البرجوازي في الانتاج وان تدخل اليها المدنية المزعومة ، اي ان تصبح برجوازية . فهي ، بالاختصار ، تخلق عالماً على صورتها ومثالها

واخضعت البرجوازية الريف للمدينة ، فانشات المدن الكبرى وزادت سكان المدن زيادة هائلة بالنسبة لسكان الاريـاف ، وانتزعت بذلك قسما كبيراً من السكان من بلادة الحياة القروية .

وكما انها اخضعت الريف للمدينة ، كذلك اخضعت البلدان الهمجية ونصف الهمجية للبلدان المتمدنة ، الامم الفلاحية - للامم البرجوازية ، الشرق - للغرب

وتقضي البرجوازية اكثر فاكثر على تبعثر وسائل الانتاج والملكية والسكان . وقد كدست السكان ومركزت وسائل الانتاج وجمعت الملكية في ايدي افراد قلائل . وكانت النتيجة المحتومة لهذه التغييرات نشوء التمركز السياسي فالمقاطعات المستقلة التي كانت العلاقات بينها تكاد تكون علاقات اتحادية ، والتي كانت لها مصالح وقوانين وحكومات وتعرفات جمركية مختلفة ، انما جمعت كلها ، دمجت في امة واحدة مع حكومة واحدة ، وقوانين واحدة ، ومصلحة قومية طبقية واحدة ، وراء حاجز جمركي واحد .

وخلقت البرجوازية ، منذ تسلطها الذي لم يكد يمضي عليه قرن واحد ، قوى منتجة تفوق في عددها وعظمتها كل ما صنعته الاجيال السالفة مجتمعة . فان اخضاع قوى الطبيعة ، واستخدام الآلات وتطبيق الكيمياء في الصناعة والزراعة ، ثم الملاحة البخارية والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائي ، وهذه القارات الكاملة التي كانت بوراً فاخصبت ، وهذه الانهار والترع التي اصلحت وراحت البواخر تمخر عبابها ، وهذه الشعوب التي كانما قذفتها من بطن الارض قوة سحرية ، - اي عصر سالف واي جيل مضى كان يحلم بـان مثل هذه القوى المنتجـة العظيمة كامنة في قلب العمل الاجتماعي !

وهكذا تبين لنا ان وسائل الانتاج والتبادل التي قامت البرجوازية على اساسها ، نشات داخل المجتمع الاقطاعي ، ثم ، لما بلغت هذه الوسائل حداً معيناً من التقدم والرقي ، لم تعد

الظروف التي كان المجتمع الاقطاعي ينتج ويبادل ضمنها ، لم يعد التنظيم الاقطاعي للزراعة والصناعة ، اي بكلمة واحدة ، لم يعد النظام الاقطاعي للملكية يتفق مع القوى المنتجة في ملء تقدمها ، بل اصبح يعرقل الانتاج عوضاً عن تطويره ، ثم تحول الى قيود تكبله ، واصبح من الواجب تحطيم هذه القيود ، فحطمت.

وحلت محلها المزاحمة الحرة ، يرافقهــا نظام اجتماعي وسياسي يناسبها ، وقامت معها السيطرة الاقتصادية والسياسية للطبقة البرجوازية.

وتجري الآن امام اعيننا حركة مماثلة لهذه فان علاقات الانتاج والتبادل البرجوازية وعلاقات الملكية البرجوازية ، اي كل هذا المجتمع البرجوازي الحديث الذي خلق وسائل الانتاج والتبادل العظيمة الهائلة اصبح يشبه الساحر الذي لا يدري كيف يقمع ويخضع القوى الجهنمية التي اطلقها من عقالها بتعاويذه. فليس تاريخ الصناعة والتجارة منذ بضع عشرات السنين سوى تاريخ تمرد القوى المنتجة الحديثة على علاقات الانتاج الحديثة ، على علاقات الملكية التي يقوم عليها وجود البرجوازية وسيطرتها. ويكفي ذكر الازمات التجارية التي تقع بصورة دورية وتهدد اكثر فاكثر وجود المجتمع البرجوازي بامره فكل ازمة من الازمات لا تكتفي باتلاف كمية من المنتجات المصنوعة الجاهزة فقط ، بل تقضي ايضاً على قسم كبير من القوى المنتجة القائمة نفسها . وينقض على المجتمع وباء لم يكن ليعتبر في جميع العهود السابقة سوى خرافة غير معقولة ، ـ هذا الوباء ، هو فيض الانتاج . فيرتمي المجتمع فجاة في حالة همجية حتى ليخيل للمرء ان هنالك مجاعة او حرباً طاحنة تقطع عن المجتمع وسائل معيشته وموارد رزقه ، وكانما الصناعة والتجارة التي عليهما

الخراب والدمار . ولم ذلك ؟ ذلك لانه اصبح في المجتمع شيء كثير من المدنية ، وكثير من وسائل العيش ، وكثير من الصناعة والتجارة . ولم تعد القوى المنتجة الموجودة تحت تصرف المجتمع تساعد على نمو علاقات الملكية البرجوازية وتقدمها ، بل بالعكس اصبحت هذه القوى عظيمة جداً بالنسبة لهذه العلاقات البرجوازية التي اضحت عائقاً في سبيل تقدمها وتوسعها . وكلما شرعت القوى المنتجة تتغلب على هذا العائق رمت المجتمع البرجوازي باسره في الاضطراب والاختلال وهددت وجود الملكية البرجوازية بالانهيار . لقد اصبحت العلاقات البرجوازية اضيق من ان تستوعب الثروات الناشئة في قلبها فكيف تتغلب البرجوازية على هذه الازمات ؟ تتغلب بالتدمير القسري لمقدار من القوى المنتجة من جهة ، وبالاستيلاء على اسواق جديدة وزيادة استثمار الاسواق القديمة من جهة اخرى . بماذا اذن ؟ بتحضير ازمات اعم واهول ، وتقليل الوسائل التي يمكن تلافي هذه الازمات بها

فالاسلحة التي استخدمتها البرجوازية للقضاء على الاقطاعية ترتد اليوم الى صدر البرجوازية نفسها .

ولكن البرجوازية لم تصنع فقط الاسلحة التي سوف تقتلها ، بل اخرجت ايضاً الرجال الذين سيستعملون هذه الاسلحة : وهم العمال العصريون ، او البروليتاريون .

تبعــا لتطور البرجوازية ، اي لتطور الراسمال ، تتطور البروليتاريا ، طبقة العمال العصريين الذين لا يعيشون الا اذا وجدوا عملاً ، ولا يجدونه الا اذا كان عملهم هذا ينمي الراسمال . وهؤلاء العمال المجبرون على بيع انفسهم بالمفرق هم بضاعة ، هم مادة تجارية كغيرها ، يعانون كل تقلبــات المزاحمة وكل تموجات السوق .

ونتيجة لاتساع استعمال الآلات ولتقسيم العمل ، فقد عمل البروليتاريين كل صبغة شخصية ، واضاع بذلك كل جاذب ، واصبح العامل عبارة عن ملحق بسيط للآلة لا يطلب منه الا القيام بعملية بسيطة رتيبة سهلة التلقين . وبذلك اصبح ما يكلفه العامل اليوم هو تقريبا ما تكلفه وسائل المعيشة اللازمة للاحتفاظ بحياته ولتخليد نوعه الا ان ثمن العمل (١٣) كثمن كل بضاعة يساوي تكاليف انتاجه اذن كلما اصبح العمل باعثا على الاشمئزاز ، هبطت الاجور . وفوق ذلك ينمو ، مع استخدام الآلة وتقسيم العمل ، مجموع الجهد المصروف في العمل ، اما بازدياد ساعات العمل ، واما بزيادة الجهد المطلوب في مدة معينة من الزمن ، او بتعاظم سرعة حركة الآلات ، الخ ..

ان الصناعة الحديثة حولت ورشة المعلم الحرفي البطريركي الصغيرة الى مصنع كبير للصناعي الرأسمالي ، واخذت جماهير العمال المتكدسين في هذا المصنع يخضعون لتنظيم اشبه بالتنظيم العسكري . فهم جنود الصناعة البسيطون الخاضعون لسلسلة كاملة من كبار الضباط وصغارهم كانهم في جيش عسكري . وهم ليسوا عبيد الطبقة البرجوازية والدولة البرجوازية فحسب ، بل هم في كل يوم وكل ساعة عبيد للآلة وللمناظر وللبرجوازي ، صاحب المعمل نفسه بوجه خاص . وكلما تبين بصراحة ان الربح هوالهدف الوحيد لكل هذا الاستبداد ، ازداد هذا الاستبداد بشاعة وقبحا واثارة للسخط والحفيظة

وكلما قل تطلب العمل اليدوي للمهارة والقوة ، اي كلما ترقت الصناعة الحديثة ، استعيض عن عمل الرجل بعمل النساء والاولاد . ولا تبقى للفروق في الجنس او السن اهمية اجتماعية بالنسبة للطبقة العاملة ، فليس ثمة سوى ادوات للعمل تتغير كلفتها حسب العمر والجنس .

ومتى انتهى العامل من مقاساة استثمار صاحب المعمل ، وحسبت له اجرته ، اصبح فريسة لعناصر اخرى من البرجوازية : مالك البيت والبائع بالمفرق والمرابي ، الخ

اما صغار الصناعيين والتجار واصحاب الايرادات والحرفيون والفلاحون ، اي الدرجـــات السفلى من الطبقـة المتوسطـــة ، فيتدهورون الى صفوف البروليتاريا ، وذلك لان رساميلهم الضعيفة لا تسمح لهم باستعمال اساليب الصناعة الكبرى ، فيندحرون ويهلكون في مزاحمتهم لكبار الرأسماليين ، ولان مهارتهم الفنية تفقد قيمتها واهميتها تجاه اساليب الانتاج الجديدة ، وعلى هذه الصورة تتجند البروليتاريا من كل طبقات السكان .

وتمر البروليتاريا في تطورهـــا بمراحل مختلفة ، ويبدأ نضالها ضد البرجوازية منذ نشأتها

يقوم بالنضال ، بادئ الامر ، عمال فرادى منعزلون ، ثم يتكاتف عمال معمل واحد ، ثم يضم النضال كل عمال الفرع الصناعي الواحد في محلة واحدة ضد البرجوازي الذي يستثمرهم بصورة مباشرة . ولا يكتفي العمال بتوجيه ضرباتهم الى علاقات الانتاج البرجوازية ، بل يوجهونها ايضاً الى ادوات الانتاج نفسها ، فيتلفون البضائع الاجنبيـــة التي تزاحمهم ، ويحطمون الآلات ويحرقون المصانع ويسعون الى استعادة الوضع المضاع الذي كان يتمتع به العامل في القرون الوسطى باستعمال القوة .

وفي هذه المرحلة يكون العمال عبارة عن جماهير مبعثرة في البلاد تفتتها المزاحمة . واذا اتفق ان ضم العمال صفوفهم في جموع متراصة ، فلا يكون ذلك في هذا الدور نتيجة لوحدتهم الخاصة بهم ، بل نتيجة لوحدة البرجوازية التي ينبغي لها ، لكي تبلغ مراميها السياسية ، ان تحرك البروليتاريا باسرها ،

وهي ما تزال تملك القدرة على ذلك . وفي هذه المرحلة لا يحارب البروليتاريون اعداءهم بل اعداء اعدائهم ، اي بقايا الحكم الملكي المطلق وكبار اصحاب الاراضي والبرجوازيين غير الصناعيين وصغار البرجوازيين وهكذا تكون الحركة التاريخية كلها متمركزة في ايدي البرجوازية ، وكل انتصار في هذه الظروف ، يكون انتصاراً للبرجوازية

الا ان الصناعة ، عندما تتقدم وتنمو ، لا تضخم عدد البروليتاريين فقط ، بل تمركزهم ايضاً وتضمهم في جماهير اوسع واعظم ، فتنمو قدرتهم ويدركون مدى هذه القوة وتتساوى يوماً فيوماً مصالح البروليتاريين وظروف معيشتهم ، تبعاً لما تقوم به الآلة من محو كل فرق في العمل ومن انزال الاجرة في كل مكان تقريباً الى مستوى متماثل في انخفاضه . ونظراً لنمو التزاحم فيما بين البرجوازيين ، وما ينتج عن ذلك من الازمات التجارية ، تصبح اجور العمال يوماً بعد يوم اكثر تقلباً واقل استقراراً ؛ ويؤدي استمرار الاتقان في صنع الآلات بسرعة متزايدة على الدوام الى جعل حالة العمال اكثر فاكثر عديمة الاستقرار ، غير مضمونة ؛ وتصطبغ المصادمات الفردية بين العامل والبرجوازي ، شيئاً فشيئاً ، بصبغة المصادمات بين طبقتين . ويبدأ العمال في تاليف الجمعيات ضد البرجوازيين من اجل الدفاع عن اجورهم ويتقدمون في هذا السبيل ويؤلفون جمعيات دائمة لكي يؤمنوا وسائل العيش لانفسهم في حال وقوع اصطدامات ؛ وهنا وهناك ينفجر النضال بشكل انتفاضة

وقد ينتصر العمال احياناً ، ولكن انتصارهم يكون قصير الامد . والنتيجة الحقيقية لنضالهم هي هذا التضامن المتعاظم بين جميع الشغيلة ، لا ذلك النجاح المباشر الوقتي . والذي يسهل

تقدم هذا التضامن واشتداده هو نمو وسائل المواصلات التي تخلقها الصناعة الكبرى والتي تسمح للعمال ، في مختلف الجهات والمناطق ، باتصال بعضهم ببعض ويكفي هذا الاتصال بين العمال ، لتحويل النضالات المحلية المتعددة ذات الصبغة المتماثلة في كل مكان ، الى نضال طبقي واحد يشمل القطر بأسره غير ان كل نضال طبقي هو نضال سياسي . والاتحاد الذي كان سكان المدن في القرون الوسطى يقضون قروناً لتحقيقه نظراً لطرقهم الوعرة الابتدائية ، تحققه البروليتاريا الحديثة خلال بضع سنين فقط بفضل السكك الحديدية

الا ان انتظام البروليتاريا في طبقة ، وبالتالي — في حزب سياسي ، يحطمه بصورة مستمرة تزاحم العمال فيما بينهم ولكن هذا الانتظام لا يختفي حتى يعود فيولد من جديد وهو دائماً اشد قوة واكثر صلابة واقوى بأساً ، ويستفيد من انقسامات البرجوازيين فيما بينهم ، فيجبرهم على جعل بعض مصالح الطبقة العاملة مشروعة معترفاً بها قانونياً ، مثل قانون جعل مدة العمل اليومي عشر ساعات في انجلترا .

ان المصادمات التي تقع في المجتمع القديم تساعد بصورة عامة ، وبشتى الصور والاشكال ، على تطور البروليتاريا وتقدمها فان البرجوازية تعيش في حالة حرب مستمرة ، في بادئ الامر ، ضد الارستقراطية ، ثم ضد تلك الجماعات من البرجوازية نفسها التي تتناقض مصالحها مع رقي الصناعة ، وبصورة دائمة ضد برجوازية الاقطار الاجنبية جميعاً وترى البرجوازية نفسها مضطرة ، في كل ميادين النضال هذه ، الى الالتجاء للبروليتاريا وطلب معونتها ، فتجرها بذلك الى مضمار الحركة السياسية وهكذا تقدم البرجوازية بيديها الى البروليتاريين عناصر ثقافتها ، اي انها تسلمهم السلاح الذي سيحاربونها به .

اضف الى كل ذلك ما رأيناه من ان جماعات كاملة من الطبقة الحاكمة تتدهور ، بنتيجة تطور الصناعة وتقدمها ، الى طبقة البروليتاريا ، او تكون على الاقل مهددة في ظروف معيشتها وشروط حياتها فهذه الجماعات تحمل كذلك الى البروليتاريا عدداً عديداً من عناصر الثقافة .

واخيراً ، عندما يقترب نضال الطبقات من الساعة الحاسمة الفاصلة ، يتخذ انحلال الطبقة الحاكمة والمجتمع القديم باسره طابعاً يبلغ من حدته وعنفه ان جزءاً صغيراً من هذه الطبقة الحاكمة نفسها ينفصل عنها وينضم الى الطبقة الثورية ، الى الطبقة التي تحمل في قلبها المستقبل . وكما انتقل فيما مضى قسم من النبلاء الى جانب البرجوازية ، كذلك في ايامنا هذه ينتقل قسم من البرجوازية الى جانب البروليتاريا ، وخصوصاً القسم المؤلف من البرجوازيين المفكرين الذين تمكنوا من الاحاطة بمجموع الحركة التاريخية وفهمها بصورة نظرية

وليس بين جميع الطبقات التي تقف الآن امام البرجوازية وجهاً لوجه الا طبقة واحدة ثورية حقاً ، هي البروليتاريا . فان جميع الطبقات الاخرى تنحط وتهلك مع نمو الصناعة الكبرى ، اما البروليتاريا فهي ، على العكس من ذلك ، اخص منتجات هذه الصناعة .

ان الفئات المتوسطة ، من صغار الصناعيين والباعة بالمفرق والحرفيين والفلاحين ، تحارب البرجوازية من اجل الحفاظ على وجودها بوصفها فئات متوسطة فهي ليست اذن ثوريه ، بل محافظة ، واكثر من محافظة ايضا ، انها رجعية ، فهي تطلب ان يرجع التاريخ القهقرى ويسير دولاب التطور الى الوراء . واذا كنا نراها تقوم باعمال ثورية ، فما ذلك الا لخوفها من ان

تتدهور الى صفوف البروليتاريا ، وهي اذ ذاك تدافع عن مصالحها المقبلة ، لا عن مصالحها الحالية ، وهي تتخلى عن وجهة نظرها الخاصة لتتخذ لنفسها وجهة نظر البروليتاريا .

اما رعاع المدن ، هذه الحشرات الجامدة ، حثالة ادنى جماعات المجتمع القديم ، فقد تجرهم ثورة البروليتاريا الى الحركة ، ولكن ظروف معيشتهم واوضاع حياتهم تجعلهم اكثر استعداداً لبيع انفسهم الى المكائد الرجعية

ان ظروف معيشة المجتمع القديم قد اضمحلت ولم يبق لها اثر في ظروف معيشة البروليتاريا فالبروليتاري محروم من الملكية ، وليست هناك اية صفة مشتركة بين علاقاته العائلية وعلاقات العائلة البرجوازية . والعمل الصناعي الحديث الذي يضم في طياته استعباد العامل من قبل الرأسمال ، قد جرد العامل ، سواء في انجلترا او فرنسا او اميركا او المانيا من كل صبغة وطنية . وما القوانين والقواعد الاخلاقية والاديان بالنسبة اليه الا اوهام برجوازية تستتر خلفها مصالح برجوازية

ان كل الطبقات التي كانت تستولي على السلطة فيما مضى ، كانت تحاول تثبيت اوضاعها المكتسبة باخضاع المجتمع باسره لاسلوب التملك الخاص بها . ولا تستطيع البروليتاريا الاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية الا بهدم اسلوب التملك الخاص بها حاليا ، وبالتالي بهدم كل اسلوب للتملك مرعي الاجراء الى يومنا هذا ولا تملك البروليتاريا شيئا خاصا بها حتى تصونه وتحميه ، فعليها اذن ان تهدم كل ما كان يحمي ويضمن الملكية الخاصة .

وكانت الحركات الى يومنا هذا كلها حركات قامت بها القليات او جرت في مصلحة الاقليات . اما حركة البروليتاريا فهي حركة

قائمة بذاتها للاكثرية الساحقة في سبيل مصلحة الاكثرية الساحقة . والبروليتاريا ، التي هي طبقة سفلى في المجتمع الحالي ، لا يمكنها ان تهب وتقوم عودها الا اذا نسفت كل الطبقات المتراكب بعضها فوق بعض والتي تؤلف المجتمع الرسمي .

وبالرغم من ان نضال البروليتاريا ضد البرجوازية ليس في اساسه نضالاً وطنيا ، فهو مع ذلك يتخذ هذا الشكل في بادئ الامر . اذ لا حاجة للقول ان على البروليتاريا في كل قطر من الاقطار ان تقضي قبل كل شيء على برجوازيتها الخاصة

اننا ، اذ وصفنا مراحل تطور البروليتاريا ، بخطوطها الكبرى ، قد اوردنا في الوقت نفسه تاريخ الحرب الاهلية ، المستترة الى حد ما والتي لا تنفك تاكل المجتمع وتنخره حتى الساعة التي تنفجر فيها هذه الحرب بشكل ثورة علنية ، وتؤسس البروليتاريا سيطرتها بعد القضاء على البرجوازية بالشدة والعنف .

ان كل المجتمعات السالفة قامت ، كما رأينا ، على التناحر بين الطبقات المضطهِدة والمضطهَدة ولكن لاجل اضطهاد طبقة ما ينبغي على الاقل ان يكون في الاستطاعة تامين شروط معيشة لها تمكنها من الحياة تحت وطأة الاستعباد والاضطهاد . فقد كان القن في عهد القنانـــة يتوصل لان يصبح عضـــواً في احدى الكومونـــات ، وكذلك البرجوازي الصغير (Kleinbürger) حتى تحت اشد انواع الاستبداد الاقطاعي ، كان يتوصل الى مرتبة البرجوازي اما العامل في عصرنا فهو على عكس ذلك تماما ، فعوضا عن ان يرتفع ويرقى مع رقي الصناعة ، لا ينفك يهوى في انحطاط ، الى ان ينزل الى مستوى هو ادنى واحط من شروط حياة طبقته نفسها . ويسقط الشغيل في مهاوي الفاقة ، ويزداد الفقر والاملاق بسرعة تفوق سرعة ازدياد السكان ونمو الثروة .

فمن البين اذن ان البرجوازية لا يبقى بوسعها ان تقوم بدورها كطبقة حاكمة وان تفرض على المجتمع شروط حياة طبقتها واوضاع حياتها كقانون اعلى انها لم تعد تستطيع ان تحكم ، اذ لم يعد في امكانها ان تؤمن لعبدها حتى معيشة تتلاءم مع عبوديته ، وهي مجبرة على ان تدعه ينحط الى درجة يصبح معها من واجبها هي ان تطعمه بدلاً من ان تطعم نفسها بواسطته . فلم يعد من الممكن ان يحيا المجتمع تحت سيادتها وسيطرتها ، اي بعبارة اخرى اصبح وجود البرجوازية منذ الآن فصاعدا غير متلائم مع وجود المجتمع .

ان الشرط الاساسي للوجود والسيـــادة بالنسبة للطبقة البرجوازية هـــو تكديس الثروة في ايدي بعض الافراد وتكوين الرأسمال وانماؤه . وشرط وجود الرأسمال هو العمل المأجور والعمل المأجور يرتكز ، بصورة مطلقة ، على تزاحم العمال فيما بينهم ورقي الصناعة الذي ليست البرجوازية الا خادما منفعلاً له ومقسوراً على خدمته يستعيض عن انعزال العمال الناتج عن تزاحمهم ، باتحاد ثوري بواسطة الجمعيات . وهكذا ينتزع تقدم الصناعة الكبرى من تحت اقدام البرجوازية نفس الاسس التي شادت عليها نظام انتاجها وتملكها ان البرجوازية تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها ، فسقوطها وانتصار البروليتاريا كلاهما امر محتوم لا مناص منه .

٢

البروليتاريون والشيوعيون

ما هو موقف الشيوعيين بالنسبة الى مجموع البروليتاريا ؟
ان الشيوعيين لا يؤلفون حزباً خاصاً معارضاً لاحزاب العمال الاخرى .

وليست لهم مصالح منفصلة عن مصالح البروليتاريا بمجموعها .

وهم لا يدعون الى مبادىء خاصة يريدون تكييف الحركة البروليتارية في قالبها

ان الشيوعيين لا يتميزون عن بقية الاحزاب البروليتارية الا في نقطتين هما :

١ – في النضالات التي يقوم بها البروليتاريون من مختلف الامم ، يضع الشيوعيون في المقدمة ويبرزون المصالح المستقلة عن الجنسية والعامة الشاملة لمجموع البروليتاريا

٢ – في مختلف مراحل التطور التي يمر بها النضال بين البروليتاريين والبرجوازيين يمثل الشيوعيون دائماً ، المصالح العامة للحركة بكاملها

فالشيوعيون هم اذن ، من الناحية العملية ، احزم فريق من احزاب العمال في جميع البلدان واشدها عزيمة ، الفريق الذي يدفع الى الامام كل الفرق الاخرى . وهم من الوجهة النظرية يمتازون عن بقية البروليتاريين بادراك واضح لظروف حركة البروليتاريا وسيرها ونتائجها العامة .

اما هدف الشيوعيين المباشر فهو الهدف نفسه الذي ترمي اليه جميع الاحزاب البروليتارية ، اي : تنظيم البروليتاريين في

طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية .

ومفهومات الشيوعيين النظرية لا ترتكز مطلقاً على افكار او مبادى اكتشفها او اخترعها مصلح من مصلحي العالم

فما هي سوى التعبير الاجمالي عن الظروف الواقعية لنضال طبقي موجود ولحركة تاريخية تتطور من ذاتها امام اعيننا وليس هدم علاقات الملكية القائمة هو الطابع المميز للشيوعية

فقد كابدت علاقات الملكيـــة تغييرات متتابعة وتقلبـــات تاريخية مستمرة .

فالثورة الفرنسية (١٤) مثلا قضت على الملكية الاقطاعية لمصلحة الملكية البرجوازية

فليس الذي يميز الشيوعية هو محو الملكية بصورة عامة ، بل هو محو الملكية البرجوازية

غير ان الملكية الخاصة في الوقت الحاضر ، اي الملكيـــة البرجوازية ، هي آخر واكمل تعبير عن اسلوب الانتاج والتملك ، المبني على تناقضات الطبقات واستثمار بعض الناس لبعضهـــم الآخر .

وعلى هذا ، فباستطاعة الشيوعيين ان يلخصوا نظريتهم بهذا الصدد في هذه الصيغة الوحيدة وهي القضاء على الملكية الخاصة .

ويأخذون علينا ، نحن الشيوعيين ، اننا نريد محو الملكية المكتسبة شخصياً بالعمل ، هذه الملكية التي يصرحون انها اساس كل حرية وكل نشاط وكل استقلال فردي .

الملكية ، ثمرة العمل والكفاءة ! هل يعنون بذلك هذا الشكل من الملكيـــة ، السابق للملكية البرجوازية ، أي ملكيـــة

البرجوازي الصغير والفلاح الصغير ؟ ان كانت هذه هي الملكية التي يعنونها ، فليس لنا ، نحن الشيوعيين ، ان نمحوها ونزيلها ، لان رقي الصناعة قد محاها او يمحوها يوماً بعد يوم .

ام تراهم يعنون الملكية الخاصة البرجوازية الحالية ؟

ولكن هل يخلق العمل الماجور ملكية للبروليتاري ؟ كلا ! بل هو يخلق الراسمال ، اي الملكية التي تستثمر العمل الماجور ، والتي لا يمكن ان تنمو الا بشرط ان تنتج ايضاً وايضاً عملا ماجوراً لتستثمره من جديد . فالملكية في شكلها الحالي تتحرك بين هذين الطرفين المتناقضين الراسمال والعمل الماجور . فلنبحث كلا من طرفي هذا التناقض

ان كون المرء رأسمالياً يعني انه لا يشغل مركزاً شخصياً فحسب ، بل كذلك مركزاً اجتماعياً في الانتاج الراسمال هو نتاج جماعي ، فهو لا يمكن ان يدار ويشغل الا بجهود متضافرة يبذلها كثير من الافراد ، بل هو في آخر تحليل لا يدار ويشغل الا بالجهود المشتركة لجميع اعضاء المجتمع

فليس الراسمال قوة شخصية اذن ، بل هو قوة اجتماعية .

وعليه ، اذا تحول الراسمال الى ملك مشترك يخص جميع اعضاء المجتمع ، فلا يكون معنى ذلك ان ثمة ملكية شخصية قد تحولت الى ملكية اجتماعية ، بل كل ما هنالك ان الصفة الاجتماعية للملكية تكون قد تغيرت ، اي تفقد الملكية صفتها الطبقية .

ولننتقل الآن الى العمل الماجور .

ان الثمن المتوسط الذي يشترى به العمل الماجور ، هو الحد الادنى للاجرة ، اي مجموع وسائل المعيشة اللازمة للعامل لكي يعيش كعامل وينتج من ذلك ان مـــا يستملكه العامل الماجور بجهده وكده لا يساوي الا ما يلزمه بالضرورة للاحتفاظ

بوجوده الهزيل وللابقاء على نوعه فنحن لا نريد ابداً ولا بشكل من الاشكال ، محو هذا التملك الشخصي لمنتجات العمل ، هذا التملك الضروري لحفظ الحياة البشرية وتكثيرها ، فان هذا التملك لا يترك اقل فائض يتسلط المرء بواسطته على عمل غيره . اما الذي نريده فهو محو اسلوب التملك الكئيب المظلم الذي يجعل العامل لا يحيا الا لاجل انماء الرأسمال ، ولا يحيا الا بمقدار ما تتطلبه مصالح الطبقة الحاكمة فقط

في المجتمع البرجوازي ليس العمل الحي الا وسيلة لانماء العمل المتراكم . اما في المجتمع الشيوعي فليس العمل المتراكم الا وسيلة لتفريج حياة الشغيلة واغنائها وترفيهها

وهكذا ، ففي المجتمع البرجوازي الماضي يسيطر على الحاضر . وفي المجتمع الشيوعي : الحاضر يسيطر على الماضي في المجتمع البرجوازي الرأسمال مستقل وشخصي في حين ان الفرد الذي يعمل تابع لغيره ومحروم من شخصيته .

فهدم هذه الحالة تعيبه وتشجبه البرجوازية وتزعم انه هدم للشخصية والحرية ! وهي على حق فيما تزعم ، لان هذا الهدم هو في الحقيقة هدم للشخصيـــة البرجوازية وللاستقلال البرجوازي وللحرية البرجوازية .

انهم يعنون بالحرية ، في الظروف الحالية للانتاج البرجوازي ، حرية التجارة ، حرية الشراء والبيع .

ولكن اذا تلاشت التجارة ، تلاشت التجارة الحرة ايضاً غير ان جميع الكلمات الضخمة التي ترددها برجوازيتنا عن حرية التجارة وكل تصلفها وانتفاخها وغطرستها حول الحريات ، لا معنى لها الا اذا قوبلت بالتجارة المقيدة والبرجوازي المستعبد في القرون الوسطى ، ولا يبقى لها اقل معنى او دلالة عندما تدور

المسالة حول ما ترمي اليه الشيوعية من ازالة التجارة وعلاقات الانتاج البرجوازية والبرجوازية نفسها .

يهولكم ويروعكم اننا نريد محو الملكية الخاصة . ولكن في مجتمعكم هذا ذاته تسعة اعشار اعضائه محرومون من اية ملكية خاصة ، واذا كانت هذه الملكية موجودة فلأن هؤلاء الاعشار التسعة محرومة منها . فانتم تاخذون علينا اذن اننا نريد محو شكل للملكية ، شرط وجوده ان تكون الاكثرية الساحقة محرومة من كل ملكية .

اي بكلمة ، تتهموننا باننا نريد محو ملكيتكم انتم . وحقا هذا الذي نريد

وما ان يغدو من المستحيل ان يتحول العمل الى راسمال ونقد وريع عقاري ، اي الى قوة اجتماعية قابلة للاحتكار ، او بعبارة اخرى ، ما ان يصبح من المستحيل ان تتحول الملكية الفردية الى ملكية برجوازية ، حتى تزأرون وتصيحون بأن الفرد قد امحى وابيد .

فانتم تعترفون اذن انكم ، عندما تتكلمون عن الفرد ، لا تعنون بكلامكم الا البرجوازي ، اي المالك البرجوازي وبالفعل ان هذا الفرد يجب ان يباد ويمحى نهائيا

ان الشيوعية لا تسلب احدا القدرة على تملك منتجـات اجتماعية ، انها لا تنزع سوى القدرة على استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملك

ويعترضون علينا بقولهم ان محو الملكية الخاصة يؤدي الى توقف كل نشاط وانتشار كسل يعمّ العالم باسره

ولو كان ذلك كذلك ، لكان المجتمع البرجوازي قد سقط منذ امد طويل في بؤرة الكسل والخمول ، ما دام الذين يشتغلون

في هذا المجتمع لا يمتلكون ، والذين يمتلكون لا يشتغلون . وهكذا يؤول كل اعتراضهم الى تكرار ممل للحقيقة التالية وهي : حيث لا يبقي الراسمال ، لا يبقى عمل ماجور .

وجميع التهـــم الموجهة الى الاسلوب الشيوعي في انتاج واستملاك المنتجات المادية وجهت الى انتاج واستملاك منتجات الفكر ايضا ، فكما ان زوال الملكية الطبقية يعادل بالنسبـــة البرجوازي زوال كل انتاج ، فكذلك زوال الثقافة الطبقية يعني بالنسبة أليه زوال كل ثقافة

غير ان هذه الثقافة التي يبكي البرجوازي وينتحب على فقدها ، ما هي عند الاكثرية الساحقة الا تدريبا على عمل مثل الآلة .

ولكن لا فائدة من مماحكتكم لنا ، اذا كان قصدكم من ذلك ان تطبقوا على محو الملكية البرجوازية معيار مفهوماتكم البرجوازية عن الحرية والثقافة والحق ، الخ ان افكاركم نفسها ناتجة عن علاقات الانتاج البرجوازية وعلاقات الملكية البرجوازية ، كما ان الحق لديكم ليس الا ارادة طبقتكم مخطوطة بشكل قانون هذه الارادة التي تحدد فحواها ومبناها ظروف الحياة المادية لطبقتكم .

ان مفهوماتكم المغرضة تدفعكم الى جعل العلاقات الاجتماعية المتولدة عن اسلوبكم في الانتاج وعلاقات الملكية – هذه العلاقات التاريخية التي يمحوهـــا سير الانتـــاج نفسه – قوانين طبيعية وعقلية ، خالدة ابدية . ولستم منفردين بهذه المفهومات ، بل سبقتكم اليها كل الطبقات الحاكمة التي زالت اليوم ولكن ما تقبلونه وتقرونه بالنسبة للملكية القديمة ، ما تقبلونه وتقرونه فيما يتعلق بالملكية الاقطاعية ، لم يعد في امكانكم ان تقبلوه بالنسبة للملكية البرجوازية .

هدم العائلة ! حتى اشد الراديكاليين تطرفاً تسخطهم نية الشيوعيين هذه ، الفاضحة المرذولة .

ولكن ، على اية قاعدة ترتكز العائلة البرجوازية في الوقت الحاضر ؟ انها ترتكز على الرأسمال والربح الفردي . وهي ، بكامل كيانها وتمام بنيانها ، ليست موجودة الا عند البرجوازية فقط ولكن تتمتها هي الالغاء القسري للعائلة بالنسبة للبروليتاري ، ثم البغاء العلني .

ان العائلة البرجوازية تضمحل طبعاً باضمحلال تتمتها هذه . وكلتاهمـــا ، العائلة البرجوازية وتتمتهـــا ، تتلاشيان بتلاشي الرأسمال .

اتأخذون علينا اننا نريد القضاء على استثمار الابناء من قبل اهلهم وذويهم ؟ ان كان ذلك فنحن نعترف بهذه الجريمة .

وتزعمون اننا نحطم اقدس الاواصر والصلات بابدالنا التربية في العائلة بالتربية في المجتمع

ولكن تربيتكم انتم ، أليس المجتمع ايضاً هو الذي يحددها ؟ أليست تحددها العلاقات الاجتماعية التي تربون فيها اولادكم ؟ الا يحددها تدخل المجتمع بصورة مباشرة او غير مباشرة بواسطة المدرسة ، الخ ؟ ان تدخل المجتمع في التربية ليس من ابتكار الشيوعيين . فكل ما يفعله الشيوعيون انهم يغيرون طبيعة التربية ويحورون صفتها وشكلها وينتزعونها من تأثير الطبقة الحاكمة ونفوذها

ان تشدق البرجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية وعن الاواصر والصلات العذبة التي تربط الولد باهله ، اصبحت تقزّ منه النفس اكثر فاكثر ، اذ ان الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الاولاد الى مواد تجارية بسيطة وادوات عمل صرف .

والآن اسمعوا البرجوازية تصيح من كل جانب : « انكم ايها الشيوعيون تريدون اشاعة المرأة » .

ليست امرأة البرجوازي عنده سوى اداة انتاج بسيطة ، وهو يسمع ان ادوات الانتاج يجب ان تكون مشتركة ، فيستنتج من ذلك بالطبع ان النساء انفسهن سوف يسري عليهن ذلك .

ولا يدخل في وهم البرجوازي ان المسألة هي على العكس تماماً ، واننا نريد اعطاء المرأة دوراً غير هذا الدور الذي تقوم به الآن كأداة انتاج بسيطة .

ولشد ما يضحكنا هذا الذعر فوق الاخلاقي الذي توحيه الى البرجوازيين اشاعة النساء الرسمية التي يزعمون ان الشيوعيين يدعون اليها . ليست بالشيوعيين حاجة الى ادخال اشاعة النساء ، فهي تقريباً كانت دائماً موجودة .

ولا يكتفي البرجوازيون بأن تكون تحت تصرفهم نســـاء البروليتاريين وبناتهم – هذا عدا البغاء الرسمي – بل يجدون لذة خاصة في اغواء بعضهم لنساء بعض

ليس الزواج البرجوازي في الحقيقة والواقع سوى اشاعة النساء المتزوجات فقصارى ما يمكن ان يتهم به الشيوعيون اذن هو انهم يريدون ، كما يزعم ، الاستعاضة عن اشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة ، باشاعة صريحة رسميه

ولكن من البديهي الواضح ان محو علاقات الانتاج الحالية يؤدي ، بطبيعة الحال ، الى محو اشاعة النساء التي تنتج منه ، اي ان البغاء ، سواء أكان رسمياً ام غير رسمي ، يضمحل ويزول

ويتهمون الشيوعيين ، عدا ذلك ، بالرغبة في الغاء الوطن والقومية .

ليس للعمال وطن ، فليس في الاستطاعة اذن سلبهم ما لا يملكون . وبما ان على البروليتاريا ان تستولي اولا على السلطة السياسية ، وان تشيد نفسها بحيث تغدو الطبقة القائدة للامة ، وان تصبح هي الامة ، فهي لا تزال بعد اذن وطنية ، ولكن ليس بالمعنى البرجوازي لهذه الكلمة .

وها هي الفواصل الوطنية والتناقضات بين الشعوب تزول يوماً بعد يوم تبعاً لتطور البرجوازيـــة ، وحرية التجارة ، والسوق العالمية ، وتشابه الانتاج الصناعي وشروط المعيشة الناجمة عن ذلك .

وعندما تستولي البروليتاريا على الحكم تعمل لازالتها اكثر ايضا فان نضال البروليتاريا نضالا مشتركا يشمل الاقطـــار المتمدنة على الاقل ، هو احد الشروط الاولية لتحررها

ازيلوا استثمار الانسان للانسان ، تزيلوا استثمار امة لاخرى .

وعندما يزول تناحر الطبقات في قلب كل امة يزول في الوقت نفسه العداء والحقد بين الامم .

اما التهم الاخرى الموجهة الى الشيوعية من وجهات نظر دينية وفلسفية ، وبوجه عام ، من وجهات نظر فكرية ، فهي لا تستحق بحثا عميقا مستفيضا .

اذ هل يحتاج المرء الى تعمق كبير ليدرك ان نظرات الناس ومفهوماتهم وتصوراتهم الفكرية ، او بالاختصار ادراكهم ، يتغير مع كل تغيير يطرا على ظروف حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وشروط معيشتهم الاجتماعية ؟

وهلا يبرهن تاريخ الافكار على ان الانتاج الفكري يتبدل ويتحور مع تبدل الانتاج المادي وتحوره ؟ فالافكار والآراء السائدة في عهد من العهود لم تكن سوى افكار الطبقة السائدة وآرائها .

وحينما يتحدثون عن افكار تؤثر تأثيراً ثورياً في مجتمع باسره ، انما يعبرون في الحقيقة عن هذا الحادث وهو انه تشكلت في قلب المجتمع القديم عناصر مجتمع جديد ، وان انحلال الافكار القديمة يسير جنباً الى جنب مع انحلال ظروف المعيشة القديمة .

فحينما كان العالم القديم على اعتاب السقوط والزوال ، انتصر الدين المسيحي على الاديان الاخرى القديمة ، وحينما تركت الافكار المسيحية محلها في القرن الثامن عشر لافكار الرقي الجديدة ، كان المجتمع الاقطاعي يقوم اذ ذاك بمعركته الاخيرة ضد البرجوازية التي كانت حينذاك ثورية . ولم يكن ظهور الافكار القائلة بحرية المعتقد والحرية الدينية الا ايذانا بسيطرة المزاحمة الحرة في ميدان العقائد

وقد يقولون : «نعم ان الافكار الدينية والاخلاقية والفلسفية والسياسية والحقوقية وما اليها قد طرأ عليها التعديل خلال التطور التاريخي ، ولكن الدين والاخلاق والفلسفة والسياسة والحقوق كانت مع ذلك تحافظ دائماً على بقائها خلال هذا التحول المستمر

وهنالك فوق ذلك حقائق ابدية ، مثل الحرية والعدالة ، الخ . ، وهي واحدة مشتركة في جميع مراحل التطور الاجتماعي . اما الشيوعية فهي تلغي الحقائق الابدية ، تلغي الدين والاخلاق عوضاً عن تجديدهما ؛ فهي تناقض اذن كل التطور التاريخي السابق» .

ففيم تتلخص هذه التهمة ؟ ان تاريخ كل مجتمع حتى الآن قائم على التناحر بين الطبقات وقد اتخذ التناحر اشكالا مختلفة حسب العهود .

ولكن مهما كان الشكل الذي اتخذه هذا التناحر ، فقد كان هنالك دائماً شيء مشترك بين جميع العصور السالفة ، وهو

استثمار قسم من المجتمع لقسم آخر منه . فلا غرابة اذن في ان نرى الادراك الاجتماعي في جميع العصور ، رغم كل الاختلاف وكل تنوع ، يتطور ضمن اشكال مشتركة معينة ، اشكال للادراك لن تنحل تماماً الا بزوال التناحر بين الطبقات زوالا تاماً

ان الثورة الشيوعية تقطع من الاساس كل رابطة مع علاقات الملكية التقليدية ؛ فلا عجب اذن ان هي قطعت بحزم ايضاً ، اثناء تطورها ، كل رابطة مع الافكار والآراء التقليدية

ولكن لندع الآن جانباً ما تبديه البرجوازية من الاعتراضات على الشيوعية .

ان الخطوة الاولى في ثورة العمال هي ، كما رأينا ، تحول البروليتاريا الى طبقة سائدة ، والظفر بالديموقراطية

وستستخدم البروليتاريا سيادتهـا السياسية لاجل انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئاً فشيئاً ، ومركزة جميع ادوات الانتاج في ايدي الدولة ، اي في ايدي البروليتاريـا المنظمة في طبقـة حاكمة ، وزيادة كمية القوى المنتجة وانمائها باسرع ما يمكن .

ولا يتم ذلك طبعاً في بادى الامر الا بخرق حق التملك وعلاقات الانتاج البرجوازية بالشدة والعنف ، اي باتخاذ تدابير تتراءى من الوجهة الاقتصادية غير كافية ولا مامونة البقاء ، ولكنها تتعاظم وتتجاوز نفسها بنفسها خلال الحركة وتكون ضرورية لا غنى عنها كوسيلة لقلب اسلوب الانتاج باسره

وستختلف هذه التدابير ، طبعاً ، في مختلف الاقطار .

غير انه يمكن تطبيق التدابير التالية ، بصورة عامة تقريباً في اكثر البلاد تقدماً ورقياً :

١ – نزع الملكية العقارية وتخصيص الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة .

٢ – فرض ضرائب متصاعدة جداً
٣ – الغاء الوراثة
٤ – مصادرة املاك جميع المهاجرين والعصاة المتمردين
٥ – مركزة التسليف كله في ايدي الدولة بواسطة مصرف وطني رأسماله للدولة ويتمتع باحتكار تام مطلق .
٦ – مركزة جميع وسائل النقل في ايدي الدولة
٧ – تكثير المصانع التابعة للدولة وادوات الانتاج واصلاح الاراضي البور وتحسين الاراضي المزروعة حسب منهاج عام
٨ – جعل العمل اجبارياً للجميع على السواء وتنظيم جيوش صناعية ، وذلك لاجل الزراعة على الخصوص
٩ – الجمع بين العمل الزراعي والصناعي واتخاذ التدابير المؤدية تدريجيا الى محو الفرق بين المدينة والريف
١٠ – جعل التربية عامة ومجانية لجميع الاولاد ومنع تشغيل الاحداث في المصانع كما يجري اليوم ، والتوفيق بين التربية وبين الانتاج المادي ، الخ

وما ان تختفي الفوارق الطبقية وتزول خلال سير التطور ، ويصبح كل الانتاج متمركزاً في ايدي جمعية واسعة تشمل الامة بأسرها ، حتى تفقد السلطة العامة صبغتها السياسية اذ ان السلطة السياسية بالمعنى الصحيح هي السلطة المنظمة لطبقة من اجل اضطهاد طبقة اخرى . فاذا كانت البروليتاريا ، في نضالها ضد البرجوازية ، تبني نفسها حتماً في طبقة ، واذا كانت تجعل نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة ، ثم بصفتها طبقة حاكمة ، تهدم بالعنف والشدة علاقات الانتاج القديمة ، فانها بهدمها علاقات الانتاج القديمة تهدم في الوقت نفسه ظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات وتهدم الطبقات بصورة عامة ، وبذلك تهدم ايضاً سيادتها ذاتها من حيث هي طبقة .

وعلى انقاض المجتمع البرجوازي القديم بطبقاته وتناقضاته الطبقية يبرز مجتمع جديد تكون حرية التطور والتقدم لكل عضو فيه شرطاً لحرية التطور والتقدم لجميع الاعضاء

٣

الأدب الاشتراكي والشيوعي

١ ـ الاشتراكية الرجعية

أ ـ الاشتراكية الاقطاعية

كتبت الارستقراطية الفرنسية والانجليزية كثيراً من الرسائل الهجائية في ذم المجتمع البرجوازي الحديث ، مدفوعة الى ذلك بحكم وضعيتها التاريخية ، اذ انها في الثورة الفرنسية في تموز (يوليو) عام ١٨٣٠ وكذلك في حركة الاصلاح الانجليزية (١٥) كانت قد غلبت على امرها مرة اخرى وتداعت تحت ضربات الوافد الجديد البغيض المكروه . فلم يعد في امكانها القيام بنضال سياسي جدي ، لم يبق لها سوى النضال الادبي ، ولكن في الميدان الادبي ايضاً لم يعد يقام وزن للعبارات المبهرجة الفارغة التي كانت سوقها رائجة في عهد عودة الملكية * . فلكيما تتمكن الارستقراطية من ايجاد من يعطف عليها ، كان عليها ان تتظاهر بانها لا تهتم بمصالحها الخاصة ، وانها توجه اتهاماتها الى البرجوازية غيرة منها على مصلحة الطبقة العاملة المستثمرة فحسب ، وعلى هذه الصورة

* ليس المقصود هنا عودة الملكية في انجلترا ١٦٦٠-١٦٨٩ ، بل في فرنسا في ١٨١٤-١٨٣٠ (١٦) . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

كانت تؤمن لنفسها لذة السخر بسيدها الجديد والدمدمة في اذنه بنبوءات النحس والشؤم عن مستقبل ايامه

وهكذا نشــات الاشتراكية الاقطاعية مزيجــا من الشكاوى والاهاجي ، من ذكريات الماضي واخطار المستقبل واذا كان انتقادها المر اللاذع البارع يصيب البرجوازية احياناً في صميم قلبها ، فان عجزها المطلق عن فهم سير التاريخ الحديث كان يسبل عليها دوماً ثوباً من السخافة والسخرية .

وقد لوح الارستقراطيون بجراب البروليتاريــا الشحاذي واتخذوه علماً لهم لكي يقودوا الشعب وراءهم ولكن ما ان تراكض الشعب نحوهم حتى رأى الشعارات الاقطاعية القديمة تزين مؤخرتهم ، فتولى عنهم وهو يقهقه قهقهة السخر والاستخفاف

وقد مثل هذا المشهد امــــام العالم قسم من الليجيتيميين الفرنسيين (١٧) وكذلك «انجلترا الفتاة» (١٨)

وعندما يبرهن الاقطاعيون ان اسلوب الاستثمار الاقطاعي كان غير اسلوب الاستثمار البرجوازي ، لا ينسون الا شيئاً واحداً هو ان الاقطاعية كانت تستثمر ضمن شروط وظروف اخرى تلاشت اليوم ومضى زمانها . وكذلك عندما يلاحظون ان البروليتاريــا الحديثة لم تكن موجودة في ظل حكمهم ، لا ينسون ايضاً الا شيئاً واحداً هو ان البرجوازية الحديثة نفسها ليست سوى الوليدة الضرورية لنظامهم الاجتماعي .

وتظهر ، من جهة اخرى ، الطبيعة الرجعية لانتقاداتهم في كون اهم ما يلومون البرجوازية عليه انها خلقت في عهدها طبقة سوف تهدم كل النظام الاجتماعي القديم .

انهم لا يجرمون البرجوازية لانها انتجت البروليتاريا ، بمقدار ما يجرمونها لان هذه البروليتاريا التي انتجتها هي ثورية .

وعليه فانهم في النضال السياسي يساهمون في جميع تدابير العنف والشدة ضد الطبقة العاملة . وتراهم كذلك في حياتهم العادية بالرغم من عباراتهم المبهرجة المنتفخة ، ينحنون لالتقاط الثمار الذهبية التي تنشرها شجرة الصناعة ، ويبيعون الشرف والحب والوفاء بالصوف وسكر الشمندر وكاس الخمرة * .

وكما كان الكاهن والاقطاعي يسيران دوما يداً بيد ، كذلك تسير الاشتراكية الكهنوتية جنباً لجنب مع الاشتراكية الاقطاعية .

وليس اسهل من ان يطلى النسك والزهد المسيحي بطلاء من الاشتراكية افلم تدع المسيحية ايضا ضد الملكية الخاصة والزواج والدولة ؟ ألم تبشر ، عوضاً عنها ، بالمحبة والاحسان والاسمال الرثة والتبتل وقتل الجسد والتقشف والرهبانية والكنيسة ؟ ان الاشتراكية المسيحية ليست سوى الماء المقدس الذي يسكبه الكاهن على نار الغيظ المتاججة بين جوانح الارستقراطية

ب – الاشتراكية البرجوازية الصغيرة

ليست الارستقراطية الاقطاعية الطبقة الوحيدة التي هدمتها البرجوازية ولا الطبقة الوحيدة التي تنحل ظروف معيشتها وتفنى

* وهذا ينطبق ، بالدرجة الاولى على المانيا ، حيث الارستقراطيون الزراعيون واليونكر (١٩) يشرفون على ادارة الشؤون الاقتصادية في القسم الاكبر من اراضيهم على حسابهم الخاص بواسطة الوكلاء ، ويملكون ، علاوة على ذلك ، معامل كبيرة للسكر والخمور . اما الارستقراطيون الانجليز الذين هم اغنى منهم ، فلم تبلغ بهم الحال هذه الدرجة بعد ؛ الا انهم يعرفون هم ايضاً كيف يعوضون عن هبوط الريع ، بتقديم اسمائهم لمؤسسي شركات مساهمة مشكوك فيها لهذا الحد او ذاك . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨) .

شيئا فشيئا في المجتمع البرجوازي الحديث كان سكان المدن وصغار الفلاحين في القرون الوسطى اسلاف البرجوازية الحديثة وفي البلاد المتأخرة صناعتها وتجارتها لا تزال هذه الطبقة تحيا حياة الضيق والشقاء الى جانب البرجوازية المزدهرة النامية

لقد تألفت في البلاد ، التي ازدهرت فيها المدنية الحديثة ، برجوازية صغيرة جديدة تتذبذب بين البروليتاريا والبرجوازية ولما كانت هذه الطبقة جزءاً مكملا للمجتمع البرجوازي فانها تتكون بدون انقطاع ، ولكن الافراد الذين يؤلفون هذه الطبقة يتدهورون على الدوام ، بنتيجة المزاحمة ، الى صفوف البروليتاريا . وفوق ذلك يشعرون ، مع سير الصناعة الكبرى الى امام ، باقتراب الساعة التي ينقرضون فيها كليا بوصفهم قسما متميزاً من المجتمع الحديث ، ليحل محلهم في التجارة والصناعة والزراعة ، النظار والمستخدمون .

وكان من الطبيعي في اقطار مثل فرنسا ، يؤلف فيها الفلاحون اكثر بكثير من نصف السكان ان يعمد بعض الكتاب الذين يناصرون البروليتاريا ضد البرجوازية ، الى انتقاد النظام البرجوازي والدفاع عن العمال من وجهة نظر خاصة بصغار البرجوازيين والفلاحين وعلى هذه الصورة تشكلت الاشتراكية البرجوازية الصغيرة . وكان سيسموندي زعيم هذا الادب لا في فرنسا فحسب ، بل في انجلترا ايضا

وقد حللت هذه الاشتراكية ، بكثير من التعمق ، التناقضات اللاصقة بعلاقات الانتاج الحديثة وكشفت القناع عن تقاريظ الاقتصاديين المملوءة رياء ونفاقا والبتت ، بشكل مفحم لا يدحض ، النتائج القتالة لادخال الآلة في الصناعة ولتقسيم العمل ، وتمركز الرساميل والملكية العقارية ، وفيض الانتاج ، والازمات ،

وانحطاط البرجوازيين الصغار والفلاحين وتدهورهم المحتوم ، وبؤس البروليتاريا ، والفوضى في الانتاج ، والتفاوت الفاحش في توزيع الثروة ، والحرب الصناعية المبيدة المهلكة بين الامم ، وانحلال الاخلاق القديمة والعلاقات العائلية القديمة والقوميات القديمة

ولو رحنا نحكم على هذه الاشتراكية حسب مضمونها الحقيقي ، لرأينا اما انها تبغي ان تعيد وسائل الانتاج والتبادل القديمة وتوطدها من جديد وتعيد معها علاقات الملكية القديمة والمجتمع القديم ، واما انها تبغي ان تحصر بالقوة وسائل الانتاج والتبادل الحديثة في نطاق علاقات الملكية القديمة ، هذا النطاق الضيق الذي حطمته ، وكان لا بد ان تحطمه حتماً هذه الوسائل الحديثة نفسها . وفي الحالتين تكون هذه الاشتراكية رجعية طوبوية في آن واحد

فكلمتها الاخيرة هي ادخال النظام الحرفي في الصناعة ، وادخال النظام البطريركي في الزراعة

وفيما بعد ، تحول هذا الاتجاه الى هراء حقير

ج – الاشتراكية الالمانية او الاشتراكية «الصحيحة»

ان الآداب الاشتراكية والشيوعية الفرنسية ، وقد نشأت تحت ضغط البرجوازية الحاكمة المسيطرة وكانت التعبير الادبي عن التمرد على هذه السيطرة ، دخلت المانيا حين كانت البرجوازية الالمانية في بدء نضالها ضد الاستبداد الاقطاعي المطلق

وقد تهافت الفلاسفة وانصاف الفلاسفة والمتادبون الالمان بشراهة ونهم على هذه الآداب ، ولكن سها عن بالهم ان استيراد

الآداب الفرنسية الى المانيا لم يرافقه في الوقت نفسه استيراد الظروف والاوضاع الاجتماعية الفرنسية اليها . فقد فقدت هذه الآداب الفرنسية كل دلالة عمليـة مباشرة بالنسبـة للظروف الاجتماعية الالمانية واتخذت صبغة ادبية محضة . ولذا ما كانت لتبدو ، بطبيعة الحال ، الا كعبث فكري لا طائل تحته حول تحقيق الطبيعة البشرية . وهكذا لم تكن مطالب الثورة الفرنسية الاولى في نظر الفلاسفة الالمان في القرن الثامن عشر ، سوى مطالب «العقل العملي» بوجه عام ، ولم تكن مظاهر ارادة البرجوازيين الثوريين الفرنسيين تعبر في نظرهم الا عن قوانين الارادة الخالصة النقية ، الارادة كما يجب ان تكون ، الارادة التي هي حقا انسانية .

اما عمل الادباء الالمان الخاص فكان مقتصراً على التوفيق بين الافكار الفرنسية الجديدة وادراكهم الفلسفي القديم او ، على الاصح ، على استيعاب الافكار الفرنسية بجعلها مطابقة لفلسفتهم الخاصة

وقد تم استيعاب هذه الافكار كما يستوعب المرء لغة اجنبية ، اي بالترجمة .

ومعروف كيف اخذ الرهبان مخطوطات المؤلفات الكلاسيكية في العهد الوثني القديم وغطوها بخرافات واساطير سخيفة عن القديسين الكاثوليك اما الادباء الالمان فكان شانهم مع الآداب الفرنسية الجاحدة على عكس ذلك تماما . فقد دسوا هباواتهم الفلسفية تحت الاصل الفرنسي . فانهم مثلا اخذوا الانتقاد الفرنسي لنظام المال وكتبوا تحته «انتزاع الطبيعة البشرية» ، وتحت الانتقاد الفرنسي للدولة البرجوازية كتبوا – «انخلاع سلطـان الكولية المجردة» ، وهلم جراً .

وبعد ما ابدلوا الشروح الفرنسية بهذه العبارات الفلسفية المبهرجة الفارغة ، اطلقوا على عملهم هذا مختلف الاسماء مثل

«فلسفة العمل» و«الاشتراكية الصحيحة» و«علم الاشتراكية الالماني» و«تبرير الاشتراكية فلسفيا» ، الخ ..

وعلى هذه الصورة جردوا الآداب الاشتراكيـــة والشيوعية الفرنسية تجريداً تاماً من الصفات التي كانت جوهر قوتها وسلبوها رجولتها . وبما انها اصبحت بين ايدي الالمان بعد هذا العبث والتشويه في حالة لا تعبّر معها عن نضال طبقة ضد اخرى ، فقد اخذ سادتنا الالمان يهنئون انفسهم بانهـــم ارتفعوا فوق «المستوى الفرنسي المحدود الضيق» وبانهم دافعوا لا عن حاجات حقيقية بل عن حاجة الحقيقة ، ولا عن مصالح البروليتاريا بل عن مصالح الكائن الانساني ، مصالح الانسان على العموم ، الانسان الذي لا ينتمي الى اية طبقة ولا يرتبط باي واقع ، الانسان الذي لا تجده الا بين الغيوم السابحة في سماء الاهواء الفلسفية .

الا ان هذه الاشتراكية الالمانية التي كانت تنظر بكثير من الاحتفال والجد الى تطبيقاتها غير البارعة الشبيهة بتمارين تلاميذ المدارس ، وترفع بها عقيرتها وتنادي بها في ابواقها بشعوذة مدوية صاخبة ، قد فقدت شيئاً فشيئاً السذاجة البريئة المتصفة بمباهاة ادعياء العلم والمعرفة .

فقد اصبح كفاح البرجوازية الالمانية ولا سيما البرجوازية البروسية ضد الاقطاعيين والملكية المطلقة ، او بعبارة اخرى اصبحت الحركـــة الليبيرالية ، ذات صبغة جديـــة اكثر من ذي قبل .

وبذلك سنحت للاشتراكية «الصحيحة» الفرصة المنشودة لمعارضة الحركة السياسية بالمطالب الاشتراكية ، فاسرفت في كيل اللعنات التقليدية للنزعة الليبيرالية والدولة التمثيلية والمزاحمة البرجوازية وحرية النشر البرجوازية والحقوق البرجوازية والحرية

البرجوازية والمساواة البرجوازية ، واستطاعت ان تبث الدعوة بين الجماهير بانها لا تربح شيئاً بل بالعكس تخسر كل شيء من وراء هذه الحركة البرجوازية . وهكذا نسيت الاشتراكية الالمانية في الوقت المناسب للغاية ان الانتقاد الفرنسي الذي لم تكن هي ذاتها سوى صداه الحقير ، كان يفرض بمقدماً وجود المجتمع البرجوازي الحديث مع ما يرتبط به من ظروف المعيشة المادية ومن دستور سياسي موافق له وما الى ذلك من الشؤون التي كان لا يزال على المانيا ان تعمل لتحقيقها والحصول عليها

اما الحكومات المطلقة في المانيا ، بحاشيتها الضخمة من القسس والكهنة والاساتذة المربين والاقطاعيين والبيروقراطيين ، فقد اصبحت هذه الاشتراكية في ايديها ، الفزاعة المنشودة التي تخيف بها البرجوازية المهددة المهاجمة

وهكذا اضافت هذه الاشتراكية رياءها التافه الحلاوة الى الرصاص والسياط التي كانت هذه الحكومات نفسها تسلطها بقساوة وشراسة على العمال الالمان المتمردين

وعدا ان هذه الاشتراكية «الصحيحة» اصبحت ، على هذه الصورة ، سلاحاً ضد البرجوازية الالمانية في ايدي الحكومات ، فانها كانت ، زيادة عن ذلك ، تمثل بصورة مباشرة مصلحة رجعية هي مصلحة البرجوازية الصغيرة الالمانية والبرجوازية الصغيرة هذه التي خلّفها القرن السادس عشر والتي ما انفكت منذ ذلك الحين تتولد وتتولد دون انقطاع تحت اشكال مختلفة ، تؤلف الاساس الاجتماعي الحقيقي للنظام القائم في المانيا

فالمحافظة عليها معناها المحافظة على النظـــام القائم في المانيا . وواضح ان السيادة الصناعية والسياسية للبرجوازية تهدد هذه البرجوازية الصغيرة بالسقوط الاكيد بنتيجة تمركز الرساميل

من جهة ، ولنمو البروليتاريا الثورية من جهة اخرى ولذلك تراءى لهذه البرجوازيـــة الصغيرة ان الاشتراكية «الصحيحة» تستطيع اصابة عصفورين بحجر واحد ، فانتشرت انتشار الوباء .

وقد صنع الاشتراكيون الالمان من شفوف نظرياتهم المهلهلة ثوبا فضفاضاً مزركشاً بأزهار دقيقة من فصاحتهم ومبللا بانداء العواطف الرقيقة الحارة ، واسبلوه على الهيكل العظمي «لحقائقهم الابدية» ، الامر الذي ما كان الا ليزيد في رواج بضاعتهم بين جمهور كهذا

وقد ادركت الاشتراكية الالمانية من جهتها ، يوما بعد يوم ، انها قد الهمت ولوحي اليها ان تكون هي الممثل الباذخ لهذه البرجوازية الصغيرة

فنادى مناديها بان الامة الالمانية هي الامة النموذجية وان التافه ، الضيق الافق الالماني هو الانسان النموذجي والصقت بكل رذائل هذا الانسان النموذجي ونقائصه معنى دفيناً ، معنى اشتراكياً عالياً ، يغير وجهها ويقلبها تماما واندفعت في هذا الطريق الى نهايته فاعلنت انها تقاوم ميل الشيوعية «الهدام الفظيع» وانها تحلق في حيادها السامي فوق كل نضال طبقي . وكل المؤلفات الاشتراكية او الشيوعية المزعومة المتداولة في المانيا ، ما عدا القليل النـادر منهـــا ، تنتمي الى هذه الآداب القذرة المثيرة للاعصاب *

---

* لقد كنست العاصفة الثورية عام ١٨٤٨ (٢٠) هذه المدرسة الخسيـــة كلها وقضت على كل ميل لدى اتباعها الى متابعة استغلال اسم الاشتراكية وكان السيد كارل غرون الممثل الرئيسي والنموذج الكلاسيكي لهذه المدرسة . (ملاحظة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

٢ ـ الاشتراكية المحافظة او البرجوازية

يحاول قسم من البرجوازية ايجاد علاج للامراض الاجتماعية لاجل تقوية دعائم المجتمع البرجوازي .

وينتسب الى هذا الصنف الاقتصاديـــون ورجـــال الخير والانسانيون والناس الذين يهتمون بتحسين مصير الطبقات الكادحة ، وتنظيم اعمال البر والاحسان ، وحماية الحيوانات ، وتاليف جمعيات الاعتدال والقناعة ، اي بالاختصار جميع المصلحين الذين يستوحون آراءهم الاصلاحية من فضاء غرفهم . وقد بلغ بهم الامر الى صوغ هذه الاشتراكية البرجوازية في نظم كاملة

ونذكر كمثـــال عن هذه الاشتراكية «فلسفة البؤس» لبرودون .

ان البرجوازيين الاشتراكيين يريدون بقاء ظروف المعيشة في المجتمع الحديث ولكن على ان تخلو من النضال والاخطار التي تنشا بالضرورة عن هذه الظروف نفسها . انهم يريدون بقاء المجتمع الحالي ، ولكن مطهراً من العناصر التي تغيره ثوريـــاً وتنخره وتحله . انهم يريدون البرجوازية ولكن بدون البروليتاريا . ان البرجوازية تتصور ، بالطبع ، العالم الذي تسود فيه وتسيطر عليه كاحسن العوالم ، والاشتراكية البرجوازية تنظم هذا التصور المعزي وتسكبه في مجموعة قواعد ونظم متنوعة ، كاملة الى هذا الحد او ذاك . وهي عندما تدعو البروليتاريين الى تحقيق نظمها واتباع قواعدها ، والدخول بذلك الى ارض الميعاد الجديدة (٢١)، انما تدعوهم في الحقيقة الى القناعة والاكتفاء بالمجتمع الحالي ، ولكن مع التخلي عن نظرة البغض والمقت التي ينظرون بها اليه .

وهنالك شكل آخر من هذه الاشتراكية اقل انتظاماً ولكنه عملي اكثر ، سعى الى تكريه العمال بكل حركة ثورية بان حاول

ان يبرهن لهم ان اي انقلاب او تغيير سياسي لا يعود عليهم باية فائدة ، وانما تغيير ظروف الحيـاة المادية ، اي العلاقات الاقتصادية ، هو وحده الذي يستطيع ان يفيدهم . وتجب الملاحظة بان هذه الاشتراكية لا تعني ابداً من تغيير ظروف الحياة المادية هدم علاقات الانتاج البرجوازية الذي لا يمكن تحقيقه الا بالثورة ، بل تعني فقط تحقيق اصلاحات ادارية على اساس علاقات الانتاج البرجوازية نفسها ، اصلاحات لا تمس ، بالتالي ، في قليل او كثير علاقات الراسمال بالعمل الماجور ، بل كل ما تفعله انها تخفض عن البرجوازية نفقات حكومتها وتسهل لها ادارتها .

ولا تبلغ الاشتراكية البرجوازية الغاية القصوى في التعبير عن كنهها ومراميها بتمامها الا عندما تصبح نوعاً بسيطاً من المجاز والاستعارة .

التبادل الحر ! لمصلحة الطبقة العاملة ؛ الحماية الجمركية ! لمصلحة الطبقة العاملة ؛ سجون انفرادية ! لمصلحة الطبقة العاملة – هذه هي الكلمة الاخيرة للاشتراكية البرجوازية ، وهي حقاً الكلمة الوحيدة التي قالتها جادة غير هازلة .

اذ ان الاشتراكية البرجوازية ، من الفها الى يائها ، تنطوي عليها هذه العبارة ان البرجوازيين هم برجوازيون ، – لمصلحة الطبقة العاملة .

٣ – الاشتراكية والشيوعية الانتقاديتان الطوباويتان

ليس موضوع البحث هنا الادب الذي افصح في كل الثورات الحديثة الكبرى عن مطالب البروليتاريا (مثل كتابـات بابوف وغيره) .

فان المحاولات الاولى المباشرة التي قامت بها البروليتاريا لتحقيق مصالحها الطبقية الخاصة في وقت عم فيه الغليان والثوران ، خلال مرحلة هدم المجتمع الاقطاعي ، انتهت بالضرورة الى الفشل نظراً لان البروليتاريا كانت غير متطورة ونظراً لغياب الظروف والشروط المادية اللازمة لتحريرها ، هذه الظروف التي لا يمكن ان تنشأ الا في العهد البرجوازي . ومن الواضح ان الادب الثوري الذي رافق حركات البروليتاريا هذه لا بد ان يكون ذا محتوى رجعي . وهو يدعو الى زهد عام ومساواتية خشنة فظة

اما النظم الاشتراكية والشيوعية التي جاء بها سان-سيمون وفوريه واوين وسواهم ، فقد ظهرت في المرحلة الاولى غير المتطورة للنضال بين البروليتاريا والبرجوازية ، وهي المرحلة التي تكلمنا عنها فيما سبق (راجع فصل «البرجوازيون والبروليتاريون»)

صحيح ان مبتدعي هذه النظم يدركون التناقض والتناحر بين الطبقات ، وكذلك فعل عناصر الانحلال في المجتمع السائد نفسه . غير انهم لا يرون للبروليتاريا اية مبادرة تاريخية او اية حركة سياسية خاصة بها .

وبما ان نمو التناحر الطبقي يسير جنباً الى جنب مع نمو الصناعة ، فانهم كذلك لا يرون بعد نشوء الظروف المادية اللازمة لتحرير البروليتاريا ، ويأخذون في البحث عن علم اجتماعي ، عن قوانين اجتماعية ، لاجل خلق هذه الظروف

فتراهم يستعيضون عن النشاط الاجتماعي بنشاطهم الابداعي، وفي مكان الشروط التاريخية للتحرير يضعون شروطا خيالية ، وعوضاً عن تنظيم البروليتاريا التدريجي في طبقة يضعون تنظيماً اجتماعيا كل تفاصيله من مبتكراتهم ومستقبل العالم في نظرهم يتقرر بالدعاية لبرامجهم ومشاريعهم عن المجتمع وتطبيقها .

الا انهم ، عند وضع برامجهم ومشاريعهم هذه ، يدركون انهم يهتمون قبل كل شيء بمصالح الطبقة العاملة ، بوصفها اكثر الطبقات تألما وتعسا فليست البروليتاريا بالنسبة اليهم الا اكثر الطبقات تألما وتأذيا فحسب .

الا ان الشكل الابتدائي لنضال الطبقات وكذلك وضعيتهم الاجتماعية الخاصة ، يدفعانهم الى اعتبار انفسهم فوق كل تناحر طبقي ، فيرغبون في تحسين احوال جميع اعضاء المجتمع حتى احسنهم حالا واكثرهم امتيازاً وتنعما . ولذا لا يكفون عن التوجه بندائهم الى المجتمع باسره دون تمييز ولا تفريق ، بل انهم غالبا ما يتوجهون الى الطبقة الحاكمة المسيطرة اذ يكفي في نظرهم ان يفهم المرء حقيقة مشروعهم ونظامهم ليعترف بانه احسن مشروع ممكن لتنظيم احسن مجتمع ممكن .

فهم يرفضون اذن كل عمل سياسي ، وينكرون على الخصوص كل عمل ثوري ويسعون الى بلوغ هدفهم بوسائل سلمية ، ويحاولون ان يشقوا الطريق لانجيلهم الاجتماعي الجديد بقوة المثال وبالقيام بتجارب على مقياس صغير مصيرها طبعا دائما الاخفاق والفشل

ولا ريب ان تصوير المجتمع المقبل تصويراً خياليا في عهد تنظر فيه البروليتاريا التي لا تزال ضعيفة التطور ، الى اوضاعها الخاصة بصورة هي ذاتها خيالية ، ان هذا التصوير ينشأ عن رغائب العمال الغريزية الاولى في تغيير تام كامل للمجتمع

الا ان هذه الكتابات الاشتراكية والشيوعية تحوي كذلك عناصر انتقادية ، فهي تهاجم المجتمع الحالي في قواعده واسسه ، ولذلك قدمت في حينها مواد قيمة جداً لانارة العمال وتثقيفهم وكانت التدابير العملية التي اقترحتها لما يجب ان يكون عليه

المجتمع المقبل ، مثل محو التضاد بين المدينة والريف والغاء العائلة والربح الخاص والعمل المأجور واعلان الانسجام والتناسق الاجتماعي وتحويل الدولة الى مجرد ادارة بسيطة تدير الانتاج – كل هذه التدابير المقترحة لا تفعل غير ان تعبر عن ضرورة زوال تناحر الطبقات ، هذا التناحر الذي لم يكن الا في بداية ظهوره اذ ذاك ، والذي لم يعرف منه واضعو هذه النظم سوى اشكاله الاولى المبهمة الغامضة المبلبلة ولذا ليس لهذه الاقتراحات سوى معنى طوبوي صرف .

ان اهمية الاشتراكية والشيوعيـــة الانتقاديتين الطوبويتين تتناسب عكساً مع التطور التاريخي . فكلما اشتد نضال الطبقات واتخذ شكلا واضحاً ، فان هذه الرغبة الخيالية في التعالي عليه ، وهذه الطريقة الخيالية في معارضته ، تفقدان كل معنى عملي وكل تبرير نظري . ولذلك اذا كان واضعو هذه النظم في كثير من النواحي ثوريين ، فان تلاميذهم يؤلفون دائماً حلقات ضيقة مغلقة رجعية . فهم يتمسكون اشد التمسك بمفاهيم اساتذتهم القديمة ، بصرف النظر عن تطور البروليتاريا التاريخي المطرد ولذا يحاولون ، وهم بذلك منطقيون مع انفسهم ، الا يخففوا من حدة النضال الطبقي وان يوفقوا بين التناقضات وهم ما ينفكون يحلمون بتحقيق تدابيرهم الاجتماعية الخيالية عن طريق التجربة – وذلك باقامة «الفالانستيرات» المنعزلة ، او بانشاء مستعمرات في الداخل ["Home-colonies"] او بتاسيس «ايكاريـــة»* صغيرة تكون طبعة جيب عن ارض الميعاد الجديدة ، – ولاجل بناء جميع هذه القصور الهوائية الخيالية التي تولدها احلامهم يرون انفسهم

* الفالانستير (Phalanstère) – تعبير اطلقه فورييه على المجتمعات الاشتراكية التي تخيلها . وايكارية (Icarie) – اسم اطلقه كابيه على بلد

مجبرين على الاستغاثة بقلوب وجيوب «محبي الخير» من البرجوازيين . وبذلك يقعون شيئاً فشيئاً في عداد الاشتراكيين الرجعيين او المحافظين الذين سبق الكلام عنهم ، ولا يتميزون عنهم الا بادعاء علمي اكثر انتظاماً وتنسيقاً ، وبايمان بالمفعول العجيب الخارق لعلمهم الاجتماعي ايماناً يصل الى حد الخرافة والتعصب الاعمى .

فهم يعارضون اذن باصرار وعناد كل حركة سياسية للطبقة العاملة ، لان مثل هذه الحركة السياسية لا يتاتى ، حسب رايهم ، الا عن كفر اعمى بالانجيل الجديد .

ان الاوينيين في انجلترا يعارضون الشارتيين (٢٢) وانصار فوريه في فرنسا يعارضون الاصلاحيين (٢٣)

٤

موقف الشيوعيين من مختلف احزاب المعارضة

حسب ما قلنا في الفصل الثاني ، يتضح موقف الشيوعيين من نفسه تجاه احزاب العمال المؤلفة سابقاً ، وبالتالي ، فموقفهم واضح من الشارتيين في انجلترا ومن المصلحين الزراعيين في اميركا الشمالية .

تخيله ، ثم على مستعمرة شيوعية انشاها في اميركا (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

Home-colonies (مستعمرات داخل البلاد) هكذا سمى اوين مجتمعاته الشيوعية النموذجية وفالانستير هو اسم التصور الاجتماعية التي تخيلها فوريه . ايكارية اسم بلد خيالي طوباوي وصف به كابه مؤسساته الشيوعية . (ملاحظة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

ان الشيوعيين يناضلون في سبيل المصالح والاهداف المباشرة لطبقة العاملة ، الا انهم في الحركة الحالية يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة . ففي فرنسا يتحالف الشيوعيون مع الحزب الاشتراكي- الديموقراطي * ضد البرجوازية المحافظـــة والراديكالية ، مع احتفاظهم بحق انتقاد العبارات والاوهام التي خلفتها التقاليد الثورية

وفي سويسرا يؤيدون الراديكاليين ، دون ان ينكروا ان هذا الحزب مؤلف من عناصر متناقضة ، قسم منها اشتراكي ديموقراطي بالمعنى الفرنسي للكلمة ، والقسم الآخر برجوازي راديكالي

وفي بولونيا يؤيد الشيوعيون الحزب الذي يرى في الثورة الزراعية شرط التحرير الوطني ، اي الحزب الذي قام بانتفاضة كراكوفيا عام ١٨٤٦ (٢٥) .

وفي المانيا يناضل الحزب الشيوعي بالاتفاق مع البرجوازية ما دامت تناضل هذه البرجوازية نضالاً ثوريا ضد النظام المَلَكي

---

* ان هذا الحزب كان يمثله في البرلمان ليدرو-رولان ، وفي الأدب لويس بلان ، وفي الصحافة اليومية جريدة "La Réforme" (٢٤) وقد اطلقوا اسم «الاشتراكي-الديموقراطي» على ذلك القسم من الحزب الديموقراطي او الجمهوري ، الذي كان يتصف لهذه الدرجة او تلك باللون الاشتراكي (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

ان الحزب الاشتراكي-الديموقراطي في فرنسا كان يمثله في الحياة السياسية ليدرو-رولان ، وفي الأدب لويس بلان ، فهـــو بعيد اذن عن الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية الحالية بعد السماء عن الارض . (ملاحظة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

المطلق وضد المُلْكية الاقطاعية العقارية ، وضد البرجوازية الصغيرة الرجعية .

الا انه لا يتغافل لحظة عن ايقاظ شعور واضح وادراك صريح لدى العمال عن التناحر العنيف القائم بين البرجوازية والبروليتاريا ، لأجل ان يتمكن العمال الالمان من الاستفادة على الفور من الظروف الاجتماعية والسياسية التي ترافق بالضرورة سيادة البرجوازية ، واستخدامها سلاحاً ضد البرجوازية بالذات ، لكي يمكن اشهار النضال على البرجوازية نفسها ، اثر اسقاط الطبقات الرجعية في المانيا

ان انتباه الشيوعيين يتوجه بصورة خاصة نحو المانيا ، لانها على اعتاب ثورة برجوازية ، ولانها ستقوم بهذه الثورة في ظروف تكون فيها المدنية الاوروبية اكثر تقدما ورقيا ، ومع بروليتاريا متقدمة نامية اكثر مما كانت عليه في انجلترا في القرن السابع عشر وفي فرنسا في القرن الثامن عشر . فالثورة البرجوازية الالمانية لا تكون ، بالتالي ، سوى بداية وتمهيد مباشر لثورة بروليتارية

والخلاصة ان الشيوعيين يؤيدون في كل قطر من الاقطار كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم .

وفي كل هذه الحركات يضعون في المقدمة مسالة الملكية باعتبار انها المسالة الاساسية في الحركة ، مهما كانت الدرجة التي بلغتها هذه المسالة في تطورها

واخيراً ، يعمل الشيوعيون على الاتحاد والتفاهم بين الاحزاب الديموقراطية في جميع الاقطار .

ويترفع الشيوعيون عن اخفاء آرائهم ومقاصدهم ، ويعلنون صراحة ان اهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها الا بدك كل النظام

الاجتماعي القائم بالعنف . فلترتعش الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية . فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها واغلالها ، وتربح من ورائها عالماً باسره .

يا عمال العالم ، اتحدوا !

كتبه ماركس وانجلس في
كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٧ –
كانون الثاني (يناير) ١٨٤٨
نشر لاول مرة بطبعة خاصة
باللغة الالمانية في لندن
في شباط (فبراير) ١٨٤٨

يصدر حسب نص
الطبعة الالمانية عام ١٨٩٠
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

ماركس

العمل المأجور والرأسمال(٢٦)

مقدمة فريدريك انجلس لطبعة عام ١٨٩١

صدر هذا البحث اولا في سلسلة من الافتتاحيات نشرتها جريدة "Neue Rheinische Zeitung" (٢٧) في ١٨٤٩ ابتداء من ٤ نيسان (ابريل) وعماده المحاضرات التي القاها ماركس عام ١٨٤٧، في رابطة العمال الالمان ببروكسل(٢٨). ولم تتم هذه السلسلة. ذلك ان التعهد الذي ينطوي عليه تعبير «البقية تتبع» الوارد في نهاية المقال المنشور في العدد ٢٦٩ من الجريدة لم يتحقق نظراً للاحداث التي تسارعت في ذلك الحين – الغزو الروسي في المجر(٢٩)، الانتفاضات في مدن درسدن وايزيرلون والبرفلد، وفي مقاطعتي البالاتينا وبادن (٣٠) –، والتي ادت الى الغاء الجريدة نفسها (١٩ ايار – مايو – ١٨٤٩). ولم نجد قط مخطوطة البقية في اوراق ماركس بعد وفاته(٣١).

لقد صدر «العمل المأجور والرأسمال» في كراس واحد عدة مرات وصدر للمرة الاخيرة في عام ١٨٨٤ في غوتينغين-زوريخ في «المطبعة التعاونية السويسرية» وفي جميع الطبعات الصادرة حتى الآن، طبع النص الاصلي بكل ضبط ودقة ولكن هذه الطبعة الجديدة عبارة عن كراس للدعاية ومن المنوي نشر ما لا يقل عن ١٠٠٠٠ نسخة منها. ولذلك تساءلت فيما اذا

كان ماركس يوافق على اعادة طبع النص الاصلي دون اي تعديل والحال هذه

في العقد الخامس لم يكن ماركس قد انتهى من وضع انتقاده للاقتصاد السياسي ولم ينجز هذا العمل الا في اواخر العقد السادس . ولذا فان كتاباته التي صدرت قبل الكراس الاول من مؤلفه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» (١٨٥٩) تختلف في بعض النقاط عما كتبه بعد عام ١٨٥٩ . فهي تحتوي تعابير وجملا كاملة تبدو ، بالنسبة للمؤلفات اللاحقة ، غير موفقة وحتى خاطئة . مع انه بديهي تماماً ان وجهة النظر السابقة هذه ، التي هي درجة من درجات تطور المؤلف فكريا ، انما يجب ان تنعكس ايضا في الطبعات العادية المعدة لجمهور القراء العاديين وان للمؤلف وللجمهور على السواء حقاً ثابتاً لا مراء فيه في اعادة طبع هذه الكتابات السابقة دون اي تعديل . وفي هذه الحال لن يخطر ببالي ابداً ان ابدّل فيها كلمة واحدة

ولكن الوضع يختلف حين تكون الطبعة الجديدة معـــدة للدعاية بين العمال ، بوجه الحصر تقريبا . فمن المؤكد في مثل هذا الوضع ان ماركس كان عدل النص السابق الذي يعود الى عام ١٨٤٩ وفقا لوجهة نظره الجديدة ، واني على ثقة باني اعمل بروح ماركس اذ الجأ في هذه الطبعة الى بعض التعديلات والاضافات التي لا بدّ منها لاجل بلوغ هذا الهدف في كل النقاط الجوهرية ولذا اقول للقارئ سلفا : ها هو الكراس ، لا كما دبجه ماركس في عام ١٨٤٩ ، بل تقريبا كما كان من المحتمل ان يكتبه في عام ١٨٩١ هذا مع العلم ان النص الحقيقي قد صدرت منه اعداد كبيرة من النسخ الى حد انها تتيح الانتظار الى ان اتمكن من اعادة طبعه فيما بعد دون اي تعديل في طبعة للمؤلفات الكاملة .

ان التعديلات التي اجريتها انما تدور كلها حول نقطة واحدة . فما يبيعه العامل للرأسمالي لقاء الاجرة ، انما هو عمله حسب النص الاصلي ، اما حسب النص الحالي فهو يبيع قوة عمله . ولا بد ان اوضح اسباب هذا التعديل . لا بدّ لي ان اقدم الايضاحات للعمال لكي يروا ان المسالة ليست مجرد مسالة تعابير وكلمات ، انما هي ، على العكس ، نقطة من اهم النقاط في الاقتصاد السياسي بكليته . ولا بدّ لي ايضاً ان اقدم هذه الايضاحات للبرجوازيين لكي يقتنعوا بان العمال الذين لم يحصلوا على اي تعليم والذين يمكن افهامهم بسهولة اصعب الابحاث الاقتصادية ، هم أسمى بما لا حد له من اصحابنا «المثقفين» المتغطرسين الذين تظل مثل هذه المسائل المعقدة لغزاً مغلقاً على عقولهم طوال حياتهم .

ان الاقتصاد السياسي الكلاسيكي(٣٢) يستمد من النشاط العملي الصناعي هذه الفكرة الرائجة بين الصناعيين وهي ان الصناعي يشتري عمل عماله ويدفع اجره . وقد كانت هذه الفكرة تكفي الصناعي تماماً لمباشرة الاعمال والمحاسبة وحساب الاسعار فما ان نقلت بكل سذاجة الى ميدان الاقتصاد السياسي ، حتى احدثت فيه بلبلة غريبة وتشوشاً مدهشاً .

ان الاقتصاد السياسي يواجه الواقع التالي ، وهو ان اسعار جميع البضائع ، ومنها سعر البضاعة التي يسميها «العمل» تتغير باستمرار ؛ وانها ترتفع وتهبط بفعل ظروف غاية في التنوع والتباين ، وكثيراً ما لا تمت باية صلة الى انتاج البضاعة نفسها ، فيبدو ان الاسعار انما تتحدد على وجه العموم بفعل الصدفة وحدها . ولكن ، ما ان ظهر الاقتصاد السياسي بمظهر العلم(٣٣) حتى ترتب عليه ، بين مهماته الاولى ، ان يجد القانون الذي يختفي

وراء هذه الصدفة التي تشرف ظاهريا على اسعار البضائع ، والذي يسيطر في الواقع على هذه الصدفة عينها . وضمن حدود هذه الاسعار ، التي تتقلب باستمرار ، وترجحاتها تارة من أدنى الى أعلى وطوراً من أعلى الى أدنى ، بحث الاقتصاد السياسي عن النقطة الوسطية الثابتة التي تدور حولها هذه التقلبات وهذه الترجحات وبكلمة موجزة ، انطلق الاقتصاد السياسي من اسعار البضائع ساعياً وراء قيمة البضائع بوصفها القانون الذي يتحكم بالاسعار ، وراء القيمة التي ستساعد على تفسير جميع ترجحات الاسعار والتي يمكن نسبتها كلها الى هذه القيمة في آخر التحليل

والحال ، ان الاقتصاد السياسي الكلاسيكي قد وجد ان قيمة البضاعة انما يحددها العمل الضروري لانتاجها والمتجسد فيها ، واكتفى بهذا التفسير وبوسعنا نحن ايضا ان نتوقف عنده لحظة . غير اني اجتنابـــا لكل سوء في الفهم ، لا بد لي من ان اشير الى ان هذا التفسير لم يبق كافياً اطلاقاً في ايامنا هذه . وقد كان ماركس اول من درس بتعمق قدرة العمل على خلق القيمة ووجد ان ليس كل عمل ضروري ظاهراً او فعلاً لانتاج بضاعة معينة يضيف ، في مطلق الاحوال ، الى هذه البضاعة قدراً من القيمة يتناسب وكمية العمل المبذول . فاذا قلنا اذن اليوم بايجاز ، مع اقتصاديين امثال ريكاردو ، ان قيمة بضاعة معينة انما يحددها العمل الضروري لانتاجها فانما لا تغيب عن بالنا ابداً التحفظات التي ابداها ماركس بهذا الصدد . وهذا يكفي هنا واننا لنجد البقية عند ماركس في كتابه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» (١٨٥٩) وفي المجلد الاول من «رأس المال»

ولكن ما ان طبق الاقتصاديون طريقة تحديد القيمة بالعمل ، على البضاعة «العمل» حتى راحوا في تناقض اثر تناقض . فكيف

تحدد قيمة «العمل» ؟ بالعمل الضروري المتجسد فيها ثم اي قدر من العمل ينطوي عليه عمل العامل في اليوم ، في الاسبوع ، في الشهر ، في السنة ؟ انه ينطوي على عمل يوم ، اسبوع ، شهر ، سنة . فاذا كان العمل هو مقياس جميع القيم ، فاننا لا نستطيع التعبير عن قيمة «العمل» الا في العمل . ولكننا لا نعرف شيئاً على الاطلاق بشان قيمة ساعة من العمل اذا عرفنا فقط انها تعادل ساعة من العمل وهكذا لم نقترب من الهدف قيد شعرة ولم نفعل غير ان درنا في حلقة مفرغة

ولذا حاول الاقتصاد السياسي الكلاسيكي استخدام طريقة اخرى . فهو يقول : ان قيمة بضاعة معينة انما تعادل نفقات انتاجها . ولكن ، ما هي نفقات انتاج العمل ؟ للجواب عن هذا السؤال ، يضطر الاقتصاديون الى مجافاة المنطق بعض الشيء . ولما كان من غير الممكن ، مع الاسف ، تحديد نفقات انتاج العمل بالذات ، فهم يحاولون اذ ذاك ان يعرفوا ما هي نفقات انتاج العامل . وهذه النفقات انما يمكن تحديدها فهي تتغير حسب الزمن والظروف ، ولكنها في اوضاع اجتماعية معينة ، ومكان معين ، وفرع معين من الانتاج ، معطاة ، معروفة على الأقل ، ضمن حدود ضيقة الى حد ما ونحن نعيش اليوم في ظل سيادة الانتاج الراسمالي حيث طبقة كبيرة من السكان ، تنمو وتتكاثر يوماً بعد يوم ، لا تستطيع ان تعيش الا اذا عملت لقاء اجر من اجل مالكي وسائل الانتاج — من ادوات وآلات ومواد اولية ووسائل عيش . وعلى اساس هذا الاسلوب في الانتاج ، تتقوم نفقات انتاج العامل في مجمل وسائل عيشه — او في مجمل اثمانها نقداً — التي هي ضرورية ، بصورة وسطية ، لمده بقدرته على العمل ، لابقاء هذه القدرة حية ، للاستعاضة عنه بعامل جديد

اذا ما اقصاه المرض او العمر او الموت عن الانتاج ، اي لتمكين الطبقة العاملة من التناسل والتكاثر بالمقادير الضرورية . ولنفترض ان وسائل العيش هذه انما يبلغ ثمنها نقداً بصورة وسطية ٣ ماركات في اليوم

فان العامل يتقاضى اذن من الرأسمالي الذي يشغله اجرة قدرها ٣ ماركات في اليوم . ولقاء هذه الاجرة ، يشغله الرأسمالي ، لنقل ، ١٢ ساعة في اليوم . وفي هذه الحال يفكر الراسمالي على النحو التالي تقريبا :

لنفترض ان العامل — وهو محكم مثلا — انما يترتب عليه ان يصنع قطعة آلة وينتهي منها في يوم واحد . ولنفترض ان المادة الاولية — الحديد والنحاس الاصفر بشكلهما الضروري المحضر سلفا — تكلف ٢٠ ماركا ؛ وان استهلاك الفحم في الآلة البخارية واستهلاك هذه الآلة البخارية نفسها ، والمخرطة وسائر الادوات التي يشتغل بها العامل ، يبلغ ، في يوم واحد ، وبالنسبة لما يصرفه العامل ، ما قيمته مارك واحد . لقد افترضنا ان اجرة العامل ٣ ماركات في اليوم . وهكذا تبلغ تكاليف قطعة الآلة ٢٤ ماركا بالاجمال ولكن الراسمالي يحسب ان يحصل من زبائنه على ثمن وسطي قدره ٢٧ ماركا اي بزيادة ٣ ماركات عن النفقات التي قدمها

فمن اين جاءت هذه الماركات الثلاثة التي يضعها الرأسمالي في جيبه ؟ ان الاقتصاد السياسي الكلاسيكي يزعم ان البضائع تباع بصورة وسطية حسب قيمتها ، اي باسعار تناسب كميات العمل الضرورية التي تنطوي عليها هذه البضائع . فكان متوسط ثمن قطعة الآلة التي اتخذناها مثالا — اي ٢٧ ماركا — يساوي قيمتها ، يساوي العمل المتجسد فيها . ولكن ٢١ ماركا من اصل

هذه الماركات الـ٢٧ ، كانت قيمة موجودة قبل ان يبدأ صاحبنا المحكم العمل ، منها ٢٠ ماركاً تنطوي عليها المادة الاولية ، ومارك واحد ينطوي عليه الفحم المحروق اثناء العمل او الآلات والادوات التي استخدمت لهذا الغرض ونقصت صلاحيتها للعمل بما يوازي هذا المبلغ تبقى ٦ ماركات اضيفت الى قيمة المادة الاولية ولكن هذه الماركات الـ٦ ، كما يقر به اقتصاديونـا بالذات ، لا يمكنها ان تنجم الا من العمل الذي يضيفه عاملنا الى المادة الاولية . وهكذا فان عمله مدة ١٢ ساعة قد خلق قيمة جديدة قدرها ٦ ماركات : وبالتالي فان قيمة عمله مدة ١٢ ساعة تعادل ٦ ماركات . وعلى هذا النحو نكون قد توصلنا آخر المطاف الى اكتشاف «قيمة العمل» .

«قف !» — يهتف بنا محكمنا . — «٦ ماركات ! ولكني لم اقبض الا ٣ ماركات ! ان الراسمالي يحلف الايمان المغلظة ان قيمة عملي مدة ١٢ ساعة لا تساوي الا ٣ ماركات واذا طالبت بـ٦ ، فانه يسخر مني . فما معنى هذا ؟»

واذا كنا بلغنا سابقاً بقيمة العمل الى حلقة مفرغة ، فها نحن الآن نتيه تماماً في خضم تناقض لا مخرج منه . لقد فتشنا عن قيمة العمل ووجدنا اكثر مما كان ينبغي لنا . فان قيمة ١٢ ساعة عمل هي ٣ ماركات بالنسبة للعامل ، و٦ ماركات بالنسبة للراسمالي الذي يدفع منها للعامل اجرة ٣ ماركات ويضع في جيبه الماركات الثلاثة الباقية . وهكذا يكون للعمل بالتالي لا قيمة واحدة ، بل قيمتان اثنتان ومتباينتان كل التباين ايضاً !

ويزداد التناقض خرافة ، ما ان نعيد القيم المعبر عنها نقداً الى وقت العمل ففي ساعات العمل الـ١٢ نشأت قيمة جديدة قدرها ٦ ماركات ، اي ٣ ماركات في ٦ ساعات ، وهو المبلغ

الذي تلقاه العامل لقاء ١٢ ساعة عمل . وهكذا فان العامل يتلقى لقاء ١٢ ساعة عمل ما يعادل منتوج ٦ ساعات عمل اذاً ، اما ان يكون للعمل قيمتان احداهما ضعف الاخرى ، واما ان ١٢ تساوي ٦ ! وفي الحالين كليهما ، نصل الى محال ، الى خرق .

ومهما بذلنا من الجهود ، فاننا لن نخرج ابداً من هذا التناقض طالما اننا نتحدث عن شراء وبيع العمل وقيمة العمل . وهذا ما حدث بالضبط لاصحابنا الاقتصاديين فان الشعبة الاخيرة من الاقتصاد السياسي الكلاسيكي ، ونعني بها مذهب ريكاردو ، قد انهارت لعجزها ، بالدرجة الاولى ، عن حل هذا التناقض . فقد وقع الاقتصاد السياسي الكلاسيكي في مازق . وكان كارل ماركس هو الذي وجد السبيل للخروج من هذا المازق

ان ما اعتبره الاقتصاديون نفقات انتاج «العمل» ، انما كان ، لا نفقات انتاج العمل ، بل نفقات انتاج العامل الحي نفسه . وما يبيعه العامل من الراسمالي ليس عمله يقول ماركس : «ما ان يبدأ العامل عمله حقاً ، حتى يكف عمله عن ان يكون ملكه ، ولذا لا يعود بوسعه ان يبيعه* » . فاكثر ما يستطيع ان يبيعه هو عمله المقبل ، اي ان يقطع على نفسه عهداً بتحقيق عمل معين في اجل معين . ولكنه ، والحال هذه ، لا يبيع عمله (الذي سيقوم به في المستقبل) انما يضع تحت تصرف الراسمالي لمدة معينة (في حالة الاجرة اليومية) او للقيام بعمل معين (في حالة الاجرة بالقطعة) قوة عمله مقابل اجر معين ؛ فهو يؤجر او يبيع قوة عمله . غير ان قوة العمل هذه مرتبطة بشخصه

---

* ك . ماركس وف . انجلس . المؤلفات ، الطبعة الثانية ، المجلد ٢٣ ، ص ٥٤٧ . الناشر .

ارتباطا وثيقا لا يمكن فصم عراه . ولذا فان نفقات انتاجها تطابق بالتالي نفقات انتاجه هو بالذات . وما كان يسميه الاقتصاديون نفقات انتاج العمل انما هي بالضبط نفقات انتاج العامل وبالتالي نفقات انتاج قوة العمل وبوسعنا ان نعود هكذا من نفقات انتاج قوة العمل الى قيمة قوة العمل ، وتحديد كمية العمل الضروري اجتماعيا لانتاج قوة عمل من كيفية معينة ، كما فعل ماركس في قسم شراء وبيع قوة العمل («رأس المال» ، المجلد الاول ، الفصل الرابع ، الباب الثالث) .

ولكن ماذا يحدث بعد ان يبيع العامل قوة عمله من الرأسمالي ، اي بعد ان يضعها تحت تصرفه مقابل اجر متفق عليه سلفا — سواء أكان اجراً يومياً ام اجراً بالقطعة ؟ ان الرأسمالي يقود العامل الى مشغله او الى مصنعه حيث تتوافر جميع الاشياء الضرورية لعمله من مواد اولية ، ومنتجات ثانوية (فحم ، اصباغ ، الخ .) ، وادوات ، وآلات . وفي هذا المشغل او في ذاك المصنع ، يشرع العامل يكدح ويعمل . واجرته اليومية ، كما سبق وافترضنا آنفا ، ٣ ماركات ، — سواء أكسبها بالمياومة ام بالقطعة ، فالامران سيان . ونحن نفترض ايضا في هذه الحال ان العامل ، بعمله مدة ١٢ ساعة ، انما يضمن المواد الاولية المستخدمة قيمة جديدة قدرها ٦ ماركات ، وهذه القيمة الجديدة يحققها الرأسمالي ببيع القطعة بعد الانتهاء من صنعها . ومن هذه الماركات الستة ، يدفع ٣ ماركات للعامل ، ويحتفظ لنفسه بالماركات الثلاثة الباقية . وهكذا ، اذا خلق العامل في ١٢ ساعة قيمة قدرها ٦ ماركات ، فانه يخلق في ٦ ساعات قيمة قدرها ٣ ماركات . فهو اذن ، حين يشتغل ٦ ساعات للرأسمالي ، يرد للرأسمالي ما يعادل الماركات الثلاثة التي قبضها ، او الاجرة .

فبعد ٦ ساعات عمل ، يكون كل منهما قد ابرأ ذمته تجاه الآخر ولا يترتب لاحدهما على الآخر اي شيء

واذا الرأسمالي يصرخ الآن «رويدك ! لقد استأجرت العامل ليوم كامل ، ال١٢ ساعة . و٦ ساعات ليست سوى نصف يوم اذن ، اكدح واعمل حتى تنتهي ايضاً الساعات الست الاخرى ــ وحينذاك فقط ، يبرئ كل منا ذمته تجاه الآخر !» ويجب على العامل ان يخضع بالفعل للعقد الذي قبل به «بملء ارادته» والذي تعهد فيه بالعمل ١٢ ساعة كاملة مقابل منتوج يكلف ٦ ساعات عمل

والحالة نفسها تماماً في العمل بالقطعة لنفترض ان عاملنا يصنع في ١٢ ساعة ١٢ قطعة من البضاعة عينها وكل قطعة تكلف ماركين من المواد الاولية واستهلاك الآلات وتباع بماركين ونصف مارك فاذا استندنا الى الافتراضات السابقة نفسها ، فان الرأسمالي يعطي العامل ٢٥ بفينينغاً* بالقطعة ، اي انه يعطيه مقابل ١٢ قطعة ٣ ماركات ظل العامل يكدح ١٢ ساعة لكسبها اما الرأسمالي ، فيقبض مقابل ال١٢ قطعة ٣٠ ماركاً ! وبعد حسم ٢٤ ماركاً من هذا المبلغ مقابل المادة الاولية وتلف الآلات يبقى ٦ ماركات يدفع الرأسمالي منها ٣ ماركات اجرة ويضع في جيبه ٣ ماركات كما في الحالة الاولى . ففي الحالة الثانية ايضاً ، يشتغل العامل ٦ ساعات لنفسه ، اي تعويضاً لاجره (نصف ساعة في كل من ال١٢ ساعة) و٦ ساعات للرأسمالي

ان الصعوبة التي تحطمت عليها جهود خيرة الاقتصاديين طالما انهم انطلقوا من قيمة «العمل» تزول ما ان ننطلق من قيمة

---

* المارك الواحد يساوي ١٠٠ بفينينغ . المعرب .

«قوة العمل» لا من قيمة «العمل» فان قوة العمل هي في مجتمعنا الرأسمالي الحالي ، بضاعة كجميع البضائع الاخرى ، ولكنها مع ذلك بضاعة من نوع خاص تماماً . فانها بالفعل لتصف بميزة خاصة تتقوم في كونها قوة تخلق القيمة ، في كونها ينبوع قيمة ، بل اكثر من ذلك ، اذ انها تخلق عند استخدامها بصورة ملائمة ، قيمة تفوق القيمة التي تملكها هي نفسها وفي حالة الانتاج الراهنة ، لا تنتج قوة العمل الانساني فقط في يوم واحد قيمة اكبر من القيمة التي تملكها والتي تكلفها هي نفسها ؛ فلدن كل اكتشاف علمي جديد ، لدن كل اختراع تكنيكي جديد ، يزداد هذا الفائض من المنتوج اليومي لقوة العمل على كلفتها اليومية ، وبالتالي يقل القسم من يوم العمل ، الذي يقدم فيه العامل ما يعادل اجره اليومي ، في حين يزداد من جهة اخرى القسم من يوم العمل ، الذي يضطر فيه الى تقديم عمله للرأسمالي دون اي مقابل .

هكذا هو النظام الاقتصادي لكل مجتمعنا الحالي فان الطبقة العاملة وحدها هي التي تنتج جميع القيم . لان القيمة ليست سوى شكل آخر للعمل ، ليست سوى التعبير الذي تُعيَّن به في مجتمعنا الرأسمالي الحالي كمية العمل الضروري اجتماعياً المتجسدة في بضاعة معينة . ولكن هذه القيم التي ينتجها العمال لا تخص العمال . انما تخص مالكي المواد الاولية ، والآلات ، والادوات ، والسلفيات المالية التي تتيح لهم شراء قوة عمل الطبقة العاملة . وهكذا لا يعود الى الطبقة العاملة من مجمل المنتجات التي تبدعها سوى قسم فقط ان القسم الثاني الذي تحتفظ به الطبقة الراسمالية والذي يترتب عليها على الاكثر ان تتقاسمه ايضاً مع طبقة الملاكين العقاريين ، يزداد اكثر فاكثر ،

كما سبق ورأينا ، لدن كل اكتشاف واختراع جديد ، في حين ان القسم العائد الى الطبقة العاملة (محسوباً بالنسبة لكل فرد من افرادها) اما انه لا يزداد الا ببطء شديد وبصورة طفيفة لا يؤبه لها ، واما انه يجمد على حاله واما ايضاً انه ينقص في بعض الاحوال .

ولكن هذه الاكتشافات والاختراعات التي يزيح بعضها بعضاً بسرعة متزايدة على الدوام ، وهذا المردود من العمل الانساني الذي ينمو كل يوم بمقاييس لم يسمع لها بمثيل ، انما تستثير في آخر المطاف نزاعاً لا بدّ ان يودي بالاقتصاد الراسمالي الراهن فمن جهة ثروات لا عدّ لها وفائض من المنتجات لا يستطيع المستهلكون شراءه ومن جهة اخرى ، السواد الاعظم من افراد المجتمع الذين تحولوا الى بروليتاريين ، الى اجراء ، وغدوا بالتالي عاجزين عن امتلاك هذا الفائض من المنتجات وانقسام المجتمع الى طبقة صغيرة لا حد لغناها والى طبقة كبيرة من الاجراء غير المالكين يجعل هذا المجتمع يختنق في وفرته بالذات في حين ان الاغلبية الكبرى من افراده تكاد تكون غير محمية ، او حتى هي غير محمية اطلاقاً من غائلة البؤس المدقع . وهذا الوضع ، انما يشتد يوماً بعد يوم ما يتصف به من طابع اخرق لا فائدة منه . ولذا فان ازالته ضرورية وممكنة . ومن الممكن قيام نظام اجتماعي جديد حيث تزول الفوارق الحالية بين الطبقات وحيث – ربما بعد مرحلة انتقال قصيرة ، عجفاء لحد ما ، ولكنها على كل حال مفيدة جداً اخلاقياً – بفضل استخدام قوى المجتمع الانتاجية الهائلة القائمة استخداماً منهاجياً وبفضل استمرار تطور هذه القوى ، وبفضل العمل الالزامي والمتساوي بالنسبة للجميع ، – توضع ايضاً وسائل

الحياة والتمتع بالحياة والتطور والافادة من كل مواهب الجسد والفكر تحت تصرف الجميع وبوفرة متنامية على الدوام . والدليل على ان العمال يوطدون العزم اكثر فاكثر على الظفر بهذا النظام الاجتماعي الجديد عن طريق النضال انما يقدمه لنا من على جانبي المحيط يوم اول ايار (مايو) غداً ويوم الاحد القادم ، ٣ ايار (مايو) (٣٤)

لندن ، ٣٠ نيسان (ابريل) ١٨٩١

فريدريك انجلس

نشر في ملحق جريدة "Vorwärts" ، العدد ١٠٩ ، ١٣ ايار (مايو) ١٨٩١ ، وفي كراس :
Karl Marx „Lohnarbeit und Kapital". Berlin, 1891

يصدر حسب نص الكراس
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

العمل المأجور والرأسمال

لقد انتقدونا من مختلف الجهات لاننا لم نصف العلاقات الاقتصادية التي تشكل الاساس المادي للنضال الطبقي والوطني المعاصر . فاننا لم نتناول هذه العلاقات بانتظام الا حين برزت امامنا مباشرة في الاصطدامات السياسية

فقد كان المقصود بالدرجة الاولى تتبع النضال الطبقي في مجرى التاريخ يوماً فيوماً والبرهان ، على ضوء الاختبار ، على ضوء المادة التاريخية القائمة والمتجددة يومياً ، ان هزيمة الطبقة العاملة التي قامت بثورتي شباط (فبراير) وآذار (مارس) (٣٥) قد كانت في الوقت نفسه هزيمة لاخصام الطبقة العاملة — اي للجمهوريين البرجوازيين في فرنسا والطبقات البرجوازية والفلاحية المناضلة ضد الحكم المطلق الاقطاعي في عموم القارة الاوروبية ؛ وان انتصار «الجمهورية الشريفة» في فرنسا كان في الوقت نفسه هزيمة الامم التي ردت على ثورة شباط (فبراير) بحروب بطولية من اجل الاستقلال ؛ وان اوروبا ، بسبب من هزيمة العمال الثوريين ، عادت وهوت في لجة عبوديتها القديمة المزدوجة ، العبودية الانجلو-روسية . معارك حزيران (يوليو) في باريس ، وسقوط فيينا ومهزلة-ماساة برلين في تشرين الثاني (نوفمبر)

عام ١٨٤٨ (٣٦) وما بذلته بولونيا وايطاليا والمجر (٣٧) من جهود يائسة ، وخنق ارلنده بالجوع ، - تلك كانت الاحداث الرئيسية التي انعكس فيها بصورة مركزة النضال الطبقي بين البرجوازية والطبقة العاملة في اوروبا واتاحت لنا ان نقدم الدليل على ان كل انتفاضة ثورية ، مهما بدا هدفها بعيداً عن النضال الطبقي ، ستظل تمنى بالاخفاق الى ان تنتصر الطبقة العاملة الثورية ، وان كل اصلاح اجتماعي يظل مجرد طوبوية ووهم الى ان تتقابل الثورة البروليتارية والردة الاقطاعية بالسلاح في حرب عالمية . وفي بحثنا كما في الواقع ، كانت بلجيكا وسويسرا رسمين من النوع الكاريكاتوري والمضحك المبكي في لوحة التاريخ الكبرى ، الاولى معروضة على انها الدولة النموذجية للملكية البرجوازية ، والثانية على انها الدولة النموذجية للجمهورية البرجوازية ، وكل منهما تتصور انها مستقلة سواء عن النضال الطبقي او عن الثورة الاوروبية

والآن ، وقد رأى قراؤنا النضال الطبقي يتطور في عام ١٨٤٨ ويرتدي اشكالا سياسية هائلة ، حان الحين للتعمق في دراسة العلاقات الاقتصادية نفسها التي يقوم عليها وجود البرجوازية وسيادتها الطبقية كما تقوم عليها عبودية العمال

وسنعرض في ثلاثة فصول كبيرة ١ - العلاقات بين العمل المأجور والراسمال ، عبودية العامل ، سيادة الراسمالي ؛ ٢ - حتمية سير الطبقات البرجوازية المتوسطة وما يسمى فئة البورغير ، في ظل النظام الحالي ، في طريق الزوال ؛ ٣ - استثمار الطبقات البرجوازية في مختلف امم اوروبا واخضاعها تجاريا من جانب طاغية السوق العالمية انجلترا .

وسنحاول ان نقدم بحثاً بسيطاً وشعبياً قدر الامكان ، ودون ان نفترض لدى القارئ سابق معرفة بابسط مفاهيم الاقتصاد السياسي . فنحن نريد ان يفهمنا العمال . هذا مع العلم ان الجهل المذهل وفوضى الافكار حول ابسط العلاقات الاقتصادية يسودان في كل مكان في المانيا بين المدافعين الرسميين عن الوضع الراهن وحتى بين صانعي المعجزات الاشتراكيين والعباقرة السياسيين المغموطة افضالهم ، الذين عند المانيا المجزأة منهم اكثر مما عندها من آباء الوطن .

لنعالج اذن المسألة الاولى .

ما هي الاجرة ؟ وكيف تحدد ؟

اذا سألت عدداً من العمال عن مقدار اجورهم ، لاجابك احدهم «اني اقبض ماركا واحداً في اليوم» ، واجابك الثاني «اني اقبض ماركين» ، وهكذا دواليك . وتبعا لمختلف فروع العمل التي يعملون فيها ، يذكرون مختلف المبالغ المالية التي يتقاضاها كل منهم من رب عمله لقاء القيام بعمل معين ، مثلا لقاء حياكة متر من القماش او صف ملزمة في المطبعة . ورغم تنوع اجوبتهم فانهم متفقون بالاجماع حول نقطة واحدة ان الاجرة هي مبلغ المال الذي يدفعه الرأسمالي لقاء وقت محدد من العمل او لقاء القيام بعمل معين

فالرأسمالي يشتري اذن (كما يبدو) عمل العمال بالمال ولقاء المال يبيعونه عملهم . ولكن الامر ليس كذلك الا ظاهريا فان ما يبيعونه في الواقع من الرأسمالي لقاء المال ، انما هو قوة عملهم . فالرأسمالي يشتري قوة العمل هذه ليوم واحد ، لاسبوع ،

لشهر ، وهلمجرا ومتى اشتراها ، استخدمها بتشغيل العامل خلال الوقت المتفق عليه . وبهذا المبلغ المالي نفسه الذي اشترى به الراسمالي قوة عمل العامل ، بماركين ، مثلا ، كان بوسعه ان يشتري كيلوغرامين من السكر او كمية معينة من بضاعة اخرى فالماركان اللذان اشترى بهما كيلوغرامين من السكر هما ثمن الكيلوغرامين من السكر . والماركان اللذان اشترى بهما ١٢ ساعة من استخدام قوة العمل هما ثمن ١٢ ساعة عمل . فقوة العمل اذن بضاعة شانها شان السكر لا اكثر ولا اقل الاولى تقاس بالساعة ، والثانية بالميزان

ان بضاعة العمال ، اي قوة عملهم ، انما يبادلونها ببضاعة الراسمالي ، بالمال ، وهذا التبادل يتم وفق نسبة معينة . قدر معين من المال مقابل قدر معين من استخدام قوة العمل . مقابل ١٢ ساعة حياكة ماركان وهذان الماركان ، الا يمثلان جميع البضائع الاخرى التي استطيع شراءها بماركين ؟ وهكذا بادل العامل اذن بضاعة ، هي قوة العمل ، ببضائع متنوعة ، وذلك وفقا لنسبة معينة . فحين يعطيه الراسمالي ماركين ، فكانه يعطيه قدراً معيناً من اللحم ، من الالبسة ، من الحطب ، من النور ، الخ . مقابل يوم عمله فهذان الماركان يعبران اذن عن النسبة التي يتم بموجبها تبادل قوة العمل ببضائع اخرى ، اي انهما يعبران عن **القيمة التبادلية*** لقوة العمل ان القيمة التبادلية لبضاعة معينة ، مقدرة **بالمال** ، انما هي بالضبط ما يسمونه **ثمنها****. **فالاجرة** ليست اذن سوى الاسم الخاص الذي يطلق على ثمن قوة

---

* او قيمة تبادل . المعرب .
** او سعرها . المعرب .

العمل المسمى عادة **ثمن العمل** ، ليست اذن سوى الاسم الذي يطلق على ثمن هذه البضاعة الخاصة التي لا يوجد منها الا في لحم الانسان ودمه .

لنأخذ اول عامل نصادفه ، حائكا مثلا . فالرأسمالي يقدم له النول والخيطان . ويشرع الحائك في العمل وتصبح الخيطان قماشا . ويأخذ الرأسمالي القماش ويبيعه بعشرين ماركا مثلا فهل ان اجرة الحائك ، في هذه الحال ، **حصة** من القماش ، من العشرين ماركا ، من منتوج عمله ؟ كلا لقد تقاضى الحائك اجرته قبل ان يباع القماش بزمن طويل بل ربما تقاضاها حتى قبل ان يصنع القماش بزمن طويل فالرأسمالي لا يدفع اذن هذه الاجرة من المال الذي حصل عليه من القماش ، انما يدفعها من المال المكدس لديه سلفا . وكما ان النول والخيطان ليست من نتاج الحائك ، انما قدمها له الرأسمالي ، فان البضائع التي يحصل عليها مقابل بضاعته ، قوة العمل ، ليست من نتاجه . وقد لا يجد الرأسمالي ابداً شارياً لقماشه . وقد لا يحصل من بيع القماش حتى على المبلغ الذي صرفه لدفع الاجرة . وقد يبيع القماش بفائدة كبيرة جداً بالنسبة لاجرة الحائك ؛ غير ان كل هذه الاحتمالات لا علاقة لها ابداً بالحائك . فالرأسمالي يشتري بقسم من ثروته الحالية ، من رأسماله ، قوة عمل الحائك ، بنفس الطريقة التي حصل بها بقسم آخر من ثروته على المادة الاولية ـ الخيطان ، واداة العمل ـ النول . وبعد اجراء هذه المشتريات ، ومن ضمنها قوة العمل الضرورية لانتاج القماش ، يشرع في الانتاج بوساطة **مواد اولية وادوات عمل تخصه وحده دون غيره** . ومن ضمن هذه الادوات ، بالطبع ، اصبح الآن صاحبنا الحائك الذي ليس له ، شأنه شأن النول ، اي حصة في المنتوج او في ثمنه .

فالاجرة ليست اذن حصة العامل في البضاعة التي انتجها . ان الاجرة هي قسم من بضاعة موجودة سلفا يشتري به الراسمالي كمية معينة من قوة عمل منتجة .

فقوة العمل اذن بضاعة يبيعها مالكها ، الاجير ، من الراسمالي . لماذا يبيعها ؟ ليعيش

ولكن ظاهرة قوة العمل ، اي العمل ، انما هي النشاط الحيوي للعامل ، انما هي ظاهرة حياته بالذات . **وهذا النشاط الحيوي** هو ما يبيعه لشخص آخر ، لكي يؤمن لنفسه **وسائل العيش** الضرورية وهكذا فان نشاطه الحيوي ليس ، بالنسبة له ، سوى وسيلة تمكنه من العيش . فهو يعمل ليعيش . والعمل ، بنظره ، ليس جزءاً من حياته ، انما هو بالاحرى تضحية بحياته . انه بضاعة باعها لشخص آخر ولذا فان نتاج نشاطه ليس كذلك هدف نشاطه فما ينتجه لنفسه ، ليس الحرير الذي ينسج ، وليس الذهب الذي يستخرج من المنجم ، وليس القصر الذي يبني . ان ما ينتجه لنفسه ، انما هي **الاجرة** ، ويتحول الحرير والذهب والقصر بالنسبة له الى كمية معينة من وسائل العيش ، وربما الى قميص من القطن ، او الى بعض النقود النحاسية ، او الى منزل في قبو تحت الارض . والعامل الذي يحيك طوال ١٢ ساعة ، او يغزل ، او يثقب ، او يخرط ، او يبني ، او يحفر ، او يحطم الحجر ، او ينقل الاثقال ، الخ .، أتراه يعتبر هذه الساعات الـ١٢ من الحياكة او الغزل او الثقب او الخرط او البناء او الحفر او تحطيم الحجر ، ظاهرة من ظاهرات حياته ، أتراه يعتبرها حياته ؟ بالعكس ، ان الحياة تبدأ بالنسبة له حيث يكف هذا النشاط ، عند المائدة ، في الحانة ، في النوم على السرير . اما ساعات العمل الـ١٢ ، فانها لا تعني اطلاقا بنظره الحياكة

والغزل والثقب ، الخ ، انما تعني كسب ما يمكنه من الاكل ، والذهاب الى الحانة ، والنوم . ولو كانت دودة الحرير تغزل لتامين عيشها كدودة ، لكانت اجيراً كاملا . ان قوة العمل لم تكن دائما بضاعة . والعمل لم يكن دائما عملا ماجوراً ، اي عملا حراً فالرقيق لا يبيع قوة عمله من مالك الارقاء ، كما ان الثور لا يبيع عمله من الفلاح فالرقيق يباع ، بما فيه قوة عمله ، من مالكه ، بيعاً تاما . وهو بضاعة يمكن ان تنتقل من يد مالك الى يد مالك آخر فهو نفسه بضاعة ، ولكن قوة عمله ليست بضاعته هو . والقن لا يبيع الا قسما من قوة عمله ، وليس هو الذي يتقاضى اجراً من مالك الارض ، انما هو بالاحرى الذي يدفع جزية لمالك الارض .

فالقن من لوازم الارض وريع لمالك الارض اما العامل الحر ، فهو يبيع نفسه ، وذلك بالمفرق فهو يتنازل عن ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ساعة من حياته عن طريق المناقصات ، يوما بعد آخر ، لاسخى العارضين ، لمالك المواد الاولية وادوات العمل ووسائل العيش ، اي للرأسمالي فالعامل لا يخص مالكاً وليس من لوازم الارض ، ولكن ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ساعة من حياته اليومية تخص من يشتريها . والعامل يترك الرأسمالي الذي استاجره ، ساعة يطيب له ، والرأسمالي يصرفه ساعة يشاء ، حين لا يبتز منه اي ربح او حين لا يجد منه الربح المأمول ولكن العامل الذي مورده الوحيد انما هو بيع قوة عمله لا يستطيع ترك طبقة الشارين بكليتها اي الطبقة الرأسمالية ، والا مات جوعا انه لا يخص هذا الرأسمالي او ذاك ، بل يخص طبقة الرأسماليين برمتها ، وعليه ان يجد فيها صاحبه ، اي ان يجد شاريا في هذه الطبقة الرأسمالية .

وقبل التعمق في بحث العلاقات بين الرأسمال والعمل الماجور ، سنتناول الآن بايجاز الظروف العامة التي تسهم في تحديد الاجرة

ان **الاجرة** ، كما رأينا ، انما هي **ثمن** بضاعة معينة ، قوة العمل فالاجرة تحددها اذن القوانين ذاتها التي تحدد ثمن اية بضاعة اخرى ولذا ، فالسؤال الذي يوضع هو السؤال التالي :

كيف يتحدد سعر البضاعة ؟

ما الذي يحدد سعر بضاعة ما ؟

انها المزاحمة بين الشارين والبائعين ، النسبة بين العرض والطلب ، بين الطلب وتلبيته . والمزاحمة التي تحدد سعر بضاعة ما **ثلاثية** .

البضاعة ذاتها يعرضها مختلف الباعة . فالذي يبيع بضائع من الصنف نفسه بارخص الاسعار واثق من ازاحة سائر الباعة من ميدان المعركة وتامين اكبر تصريف لبضائعه . وهكذا فان الباعة يتنازعون بعضهم بعضاً تصريف البضائع ، السوق . كل منهم يريد ان يبيع ، ان يبيع اكثر ما يمكن ، ان يبيع وحده ان امكن ، دون سائر الباعة . ولهذا ، فان احدهم يبيع بارخص مما يبيع الآخر فتقوم بالتالي **مزاحمة بين الباعة تخفض** سعر **البضائع** التي يعرضون

ولكنه تقوم ايضا **مزاحمة بين الشارين ترفع** ، من جانبها ، اسعار البضائع المعروضة .

واخيراً ، توجد **مزاحمة بين الشارين والباعة** ؛ فالشارون يريدون ان يشتروا بارخص الاسعار ، والباعة يريدون ان يبيعوا

باغلى الاسعار اما نتيجة هذه المزاحمة بين الشارين والباعة ، فتتوقف على النسبة بين الطرفين المتزاحمين المشار اليهما اعلاه ، اي على الواقع التالي اية مزاحمة ستكون الاقوى — المزاحمة في معسكر الشارين ، ام المزاحمة في معسكر الباعة . فالصناعة تعبئ جيشين لجبين تواجه احدهما بالآخر ، وكل منهما انما تحتدم معركة في صفوفه ، بين قواته بالذات فالجيش الذي يكون التضارب في داخل صفوفه اقل ، يحرز الغلبة على الجيش المخاصم .

لنفترض ان في السوق ١٠٠ بالة من القطن ، وان هناك ايضاً في الوقت نفسه شارين يبتغون شراء ١٠٠٠ بالة من القطن . فالطلب في هذه الحال يوازي عشرة امثال العرض ولذا فان المزاحمة بين الشارين ستكون قوية جداً ، فكل منهم يريد ان يحصل على بالة ، وان امكن على المائة باله . ان هذا المثال ليس بالفرضيه الاعتباطية . فلقد عشنا في تاريخ التجارة فترات ساء فيها موسم القطن وسعى فيها بعض الرأسماليين المتحالفين الى شراء ، لا ١٠٠ بالة ، بل جميع مخزونات القطن في العالم باسره . وهكذا ، فان كلا من الشارين ، في الحالة المعنية ، سيسعى الى ازاحة شار آخر من السوق بعرضه سعراً اعلى نسبياً لبالة القطن . اما باعة القطن الذين يرون قوات الجيش المخاصم تخوض معركة حامية الوطيس بعضها ضد بعض ، والذين تاكدوا اطلاقا من بيع بالاتهم المائة بكليتها ، فانهم سيمتنعون عن التضارب والتماسك بالشعر لكي لا ينخفض سعر القطن في فترة يتنافس فيها اخصامهم على رفعه . واذا السلام يستتب فجاة في معسكر الباعة انهم كرجل واحد ازاء الشارين ، ويتكتفون كالفلاسفة ، وتكاد مطالبهم لا تعرف حداً لو ان عروض اولئك الذين اشد ما يلحون على الشراء لم تكن لها حدود معينة ، بيّنة .

وهكذا ، اذا كان عرض بضاعة ما اضعف من الطلب عليها ، فليس ثمة اطلاقا او تقريبا اية مزاحمة بين الباعة . وبقدر ما تخف هذه المزاحمة ، تنمو المزاحمة بين الشارين النتيجة ارتفاع كبير الى هذا الحد او ذاك في اسعار البضاعة .

ومعلوم ان الحالة المعاكسة مع نتيجتها المعاكسة اكثر حدوثا : فائض كبير من العرض على الطلب ؛ مزاحمة عنيفة بين الباعة ؛ قلة في الشارين ؛ بيع البضائع باسعار بخسة

ولكن ما معنى ارتفاع الاسعار وهبوط الاسعار ، ما معنى السعر العالي والسعر الزهيد ؟ ان حبة الرمل كبيرة اذا رأيتها عبر مجهر ، والبرج صغير بالقياس الى الجبل . واذا كان السعر انما تحدده النسبة بين العرض والطلب ، فما الذي يحدد النسبة بين العرض والطلب ؟

لنسال اي برجوازي نشاهده . فانه لن يتردد لحظة ، وسيقطع بضربة واحدة كانه الاسكندر ذو القرنين هذه العقدة الميتافيزيائية(٣٨) المعقدة بواسطة جدول الضرب وسيقول لنا : اذا كلفني انتاج البضاعة التي ابيعها ١٠٠ مارك ، واذا بعت هذه البضاعة بـ١١٠ ماركات – بعد سنة طبعا ، – حصلت على ربح متواضع ، شريف ، ملائم . واذا بعتها بـ١٢٠ ، ١٣٠ ماركا ، حصلت على ربح عال ؛ واخيرا ، اذا بعتها بـ٢٠٠ مارك ، حصلت على ربح استثنائي ، هائل . فاي عامل يستخدمه البرجوازي اذن للقياس ربحه ؟ نفقات انتاج بضاعته . فاذا حصل مقابل هذه البضاعة على قدر من البضائع الاخرى كلف انتاجها اقل ، فقد مني بخسارة . واذا حصل مقابل بضاعته على قدر من البضائع الاخرى كلف انتاجها اكثر ، فقد حقق ربحا . وهذا الهبوط او الارتفاع في الربح ، انما يقيسه بعدد الدرجات التي تهبط بها

القيمة التبادلية لبضاعته تحت الصفر او ترتفع فوق الصفر ، باعتبار الصفر نفقات الانتاج .

لقد رأينا كيف ان تغير النسبة بين العرض والطلب يتسبب تارة بارتفاع الاسعار وطوراً بهبوطها ، ويؤدي تارة الى اسعار مرتفعة وطوراً الى اسعار متدنية فاذا ارتفع سعر بضاعة ارتفاعاً كبيراً بسبب من عرض غير كاف او بسبب من طلب يتزايد بلا حد ، فلا بد ان سعر بضاعة اخرى قد هبط ، بنسبة معينة ، لأن سعر بضاعة ما لا يفعل غير ان يعبر بالنقد عن النسبة التي تتم بموجبها مبادلة هذه البضاعة ببضائع اخرى فاذا ارتفع سعر متر من الحرير من ٥ ماركات الى ٦ ماركات ، فان سعر الفضة قد هبط بالنسبة للحرير ، كما ان سعر جميع البضائع الاخرى التي ظلت بسعرها السابق ، قد هبط ايضاً بالنسبة للحرير فللحصول على الكمية نفسها من الحرير ، ينبغي الآن اعطاء كمية اكبر من البضائع مقابلها . فإلام يؤدي ارتفاع سعر بضاعة من البضائع ؟ ان الرساميل ستتدفق بالجملة على الفرع الصناعي المزدهر ، وهذه الهجرة من الرساميل الى الفرع الصناعي الناجح تدوم ما دام الربح في هذا الفرع لا يهبط الى المستوى العادي او بالاحرى حتى الفترة التي تهبط فيها اسعار منتجاته ، بسبب من فيض الانتاج ، الى ما دون نفقات الانتاج .

وبالعكس اذا هبط سعر بضاعة من البضائع الى ما دون نفقات الانتاج ، انسحبت الرساميل من انتاج هذه البضاعة وباستثناء الحالة التي لا يستجيب فيها فرع صناعي معين لمتطلبات الزمن ولا يبقى له الا ان يزول ، فان انتاج هذه البضاعة ، اي عرضها ، سيأخذ في الهبوط من جراء هرب الرساميل هذا الى ان يتناسب مع الطلب ، فيرتفع بالتالي سعرها من جديد حتى يبلغ

مستوى نفقات انتاجها او بالاحرى حتى يقل العرض عن الطلب ، اي حتى يرتفع سعرها من جديد على نفقات انتاجها ، **لان السعر الجاري لبضاعة ما انما هو دائما ادنى او اعلى من نفقات انتاجها .**

اننا نرى ان الرساميل في هجرة دائبة واستيطان دائم ، متنقلة من فرع انتاجي الى فرع آخر ، وان ارتفاع الاسعار يؤدي الى استيطان شديد جداً ، وهبوط الاسعار الى هجرة شديدة جداً

وبوسعنا ان نبين من وجهة نظر اخرى ان نفقات الانتاج لا تحدد العرض وحسب ، بل الطلب ايضاً . ولكن هذا الامر يبعدنا كثيراً عن موضوعنا .

لقد رأينا للتو ان تقلبات العرض والطلب تعيد دائماً من جديد سعر بضاعة ما الى مستوى نفقات انتاجها ان **السعر الفعلي لبضاعة ما هو حقاً دائما ادنى او اعلى من نفقات انتاجها ، ولكن الارتفاع والهبوط يتكاملان** ، حتى اننا اذا جمعنا حصيلة المد والجزر في الصناعة ، في حدود فترة معينة من الزمن ، تبين لنا ان البضائع انما تتم مبادلتها بعضها ببعض وفقاً لنفقات انتاجها ، اي ان نفقات انتاجها هي التي تحدد سعرها .

ان هذا التحديد للسعر بنفقات الانتاج ، لا يجب فهمه كما يفهمه الاقتصاديون فالاقتصاديون يقولون . ان **السعر الوسطي** للبضائع يوازي نفقات الانتاج ؛ وان ذلك في رأيهم هو **القانون** . وهم يعتبرون انها من قبيل الصدفة هذه الحركة الفوضوية التي يعوض بوساطتها ارتفاع السعر عن هبوطه ، وهبوط السعر عن ارتفاعه . وعلى هذا الاساس ، يكون بوسع المرء ان يعتبر بنفس القدر من الصواب ان تقلبات الاسعار هي القانون ، وان تحديد الاسعار بنفقات الانتاج هو من باب الصدفة . وهذا ما يقول به

بعض الاقتصاديين . ولكن الحقيقة هي ان هذه التقلبات التي تفضي ، كما يتضح عند النظر فيها عن كثب ، الى اشد التدميرات ارهاباً ، وتزعزع المجتمع البرجوازي حتى اسسه ، اشبه بالزلازل الارضية ، هي وحدها التي ، بقدر ما تحدث ، تحدد الاسعار بنفقات الانتاج . ان مجمل حركة هذه الفوضى هو نظامها بالذات . وفي غمار هذه الفوضى الصناعية ، في غمار هذه الحركة الدائرة على نفسها ، تعوض المزاحمة ، اذا جاز القول ، عن تطرف بتطرف آخر

وهكذا نرى ان سعر بضاعة ما يتحدد بنفقات انتاجها بصورة نجد معها ان الفترات التي يرتفع فيها سعر هذه البضاعة فوق نفقات انتاجها تعوضها الفترات التي يهبط فيها دون نفقات الانتاج ، والعكس بالعكس . وطبيعي ان هذا القول لا يصح على كل من المنتجات بمفرده ، انما يصح فقط على عموم الفرع الصناعي . وبالتالي فان هذا القول لا يصح ايضا على صناعي بمفرده ، بل يصح فقط على عموم طبقة الصناعيين .

ان تحديد السعر بنفقات الانتاج مماثل لتحديد السعر بوقت العمل الضروري لانتاج بضاعة ما ، لان نفقات الانتاج تتألف ، اولا ، من المواد الاولية واستهلاك الادوات ، اي من منتجات صناعية كلف انتاجها قدراً معيناً من ايام العمل ، وتمثل بالتالي قدراً معيناً من وقت العمل ، وثانيا ، من العمل المباشر الذي يقاس ايضا بالوقت .

وهذه القوانين العامة عينها التي تتحكم عامة بسعر البضائع ، تتحكم ايضا طبعا **بالاجرة ، بسعر العمل** .

ان اجرة العمل سترتفع تارة ، وتنخفض طوراً ، تبعا للنسبة بين العرض والطلب ، تبعا لحالة المزاحمة بين شاري قوة العمل ،

الراسماليين ، وباعة قوة العمل ، العمال . وتقلبات اسعار البضائع بعامة انما تطابقها تقلبات الاجور . ولكن في حدود هذه التقلبات ، يتحدد سعر العمل بنفقات الانتاج ، بوقت العمل الضروري لانتاج هذه البضاعة التي هي قوة العمل .

ولكن اية هي نفقات انتاج قوة العمل ؟

انها النفقات الضرورية لابقاء العامل بوصفه عاملا ولجعله عاملا .

ولهذا ، كلما قل ما يتطلبه عمل معين من الوقت لاجل التدريب المهني ، قلت نفقات انتاج العامل ، وهبط سعر عمله ، وهبطت اجرته ففي الفروع الصناعية التي تكاد لا تتطلب اي تدريب مهني ، والتي يكفي فيها مجرد وجود العامل ماديا ، تكاد نفقات الانتاج الضرورية له تقتصر بوجه الحصر على البضائع الضرورية لاعاشته ولحفظ قدرته على العمل . ولهذا يتحدد سعر عمله في هذه الحال بسعر الوسائل الضرورية للعيش .

بيد ان اعتبارا آخر ينضم الى هذا الاعتبار .

فان الصناعي الذي يحسب نفقات انتاجه وعلى اساسها سعر المتنجات ، يدخل في حساباته استهلاك ادوات العمل . فاذا كلفته آلة ما ١٠٠٠ مارك ، مثلا ، واذا كان سيستهلكها في عشر سنوات ، فانه يضيف كل سنة ١٠٠ مارك على سعر البضاعة لكي يتمكن من الاستعاضة بعد عشر سنوات عن الآلة البالية بآلة جديدة وعلى النحو نفسه ، ينبغي ان تشتمل نفقات انتاج قوة العمل البسيطة على نفقات التناسل الذي يتمكن جنس العمال بواسطته من التكاثر ومن احلال العمال الجدد محل العمال المستهلكين وهكذا يؤخذ استهلاك العمال في الحساب شانه شان استهلاك الآلة .

ان نفقات انتاج قوة العمل البسيطة تتالف اذن من **نفقات معيشة وتناسل العامل** . وسعر نفقات المعيشة والتناسل هذه تشكل الاجرة والاجرة المحددة على هذا النحو تسمى **الحد الادنى للاجرة** . وهذا الحد الادنى للاجرة ، شانه شأن تحديد سعر البضائع بنفقات الانتاج على وجه العموم ، انما يصح على **الجنس** ، لا على **الفرد بمفرده** فهناك عمال ، ملايين العمال لا يحصلون على ما يكفي للمعيشة والتناسل ؛ ولكن **اجر الطبقة العاملة بأسرها** تساوي هذا الحد الادنى ، ضمن حدود تقلباتها

والآن ، وقد اوضحنا أهم القوانين التي تحدد الاجرة وكذلك سعر اية بضاعة اخرى ، نستطيع ان نتعمق اكثر في موضوعنا

يتالف الراسمال من مواد اولية وادوات عمل ووسائل معيشة مختلفة ، تستخدم لانتاج مواد اولية جديدة وادوات عمل جديدة ووسائل معيشة جديدة وكل هذه الاجزاء التي تؤلف الرأسمال انما هي من مستنبطات العمل ، من منتجات العمل ، **من العمل المكدّس** . فالعمل المكدّس الذي يتخذ وسيلة لانتاج جديد ، هو رأسمال

هكذا يقول الاقتصاديون

من هو الرقيق الزنجي ؟ انسان من العرق الاسود ان قيمة هذا التفسير تعادل حقاً قيمة التفسير السابق

الزنجي هو زنجي . ولا يصبح رقيقاً الا في ظروف معينة وآلة غزل القطن هي آلة لغزل القطن ولا تصبح **راسمالا** الا في ظروف معينة . وبدون هذه **الظروف** ، لا تكون راسمالا ، شانها شان الذهب الذي ليس بحد ذاته **عملة** ، او السكر الذي ليس هو بسعر السكر .

في الانتاج ، لا يؤثر الناس في الطبيعة فقط ، بل يؤثر بعضهم في البعض الآخر ايضاً ، فهم لا ينتجون الا بالتعاون فيما بينهم على شكل معين ، من اجل النشاط المشترك وتبادل النشاط فيما بينهم ومن اجل ان ينتجوا ، يدخل بعضهم مع بعض في صلات وعلاقات معينة ، ولا يتم تاثيرهم في الطبيعة ، اي لا يتم الانتاج ، الا في حدود هذه الصلات والعلاقات الاجتماعية .

وتبعاً لطابع وسائل الانتاج ، تختلف بالطبع هذه العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين المنتجين ، والاحوال التي فيها يتبادلون النشاط ويشتركون في مجمل الانتاج فان اكتشاف آلة حربية جديدة هي السلاح الناري ، قد ادى بالضرورة الى تعديل كل التنظيم الداخلي للجيش ؛ وتغيرت العلاقات التي يؤلف معها الافراد جيشاً ويستطيعون فيها العمل بوصفهم جيشاً ، كما تغيرت ايضاً علاقات مختلف الجيوش فيما بينها

وبالتالي ، ان العلاقــات الاجتماعيــة التي ينتج الافراد بموجبها ، اي **علاقات الانتاج الاجتماعية ، تتغير وتتحول مع تغير وسائل الانتاج المادية وتطورها ، مع تغير القوى المنتجة وتطورها . وعلاقات الانتاج تشكل بمجموعها ما يسمى العلاقات الاجتماعية ، المجتمع ، تشكل مجتمعاً في مرحلة معينة من التطور التاريخي ،** مجتمعاً مميزاً ، معيناً . فان المجتمع **القديم** ، والمجتمع **الاقطاعي** ، والمجتمع **البرجوازي** هي مجموعات من علاقات الانتاج ، كل مجموعة منها تميز في الوقت نفسه مرحلة خاصة من مراحل تطور الانسانية التاريخي .

والراسمال يمثل ايضاً علاقات انتاج اجتماعية ، هي عبارة من **علاقات انتاج برجوازية** اي علاقات انتاج المجتمع البرجوازي . فان وسائل المعيشة وادوات العمل والمواد الاولية التي يتالف

منها الرأسمال ، الم تنتج وتكدس في احوال اجتماعية معينة ، ووفقا لعلاقات اجتماعية معينة ؟ الا تستخدم لانتاج جديد في احوال اجتماعية معينة ، وفي اطار علاقات اجتماعية معينة ؟ أوليس هذا الطابع الاجتماعي المعين هو الذي يحوّل المنتجات التي تستخدم للانتاج الجديد الى رأسمال ؟

ان الرأسمال لا يتالف فقط من وسائل المعيشة وادوات العمل والمواد الاولية ، لا يتالف فقط من المنتجات المادية ؛ انما يتالف ايضا من القيم التبادلية . فجميع المنتجات التي يتالف منها هي بضائع . فليس الرأسمال اذن مجرد مجموعة من المنتجات المادية ، انما هو ايضا مجموعة من البضائع ، من القيم التبادلية ، من المقادير الاجتماعية .

ان الرأسمال يبقى هو نفسه ، سواء استبدلنا القطن بالصوف ، والرز بالقمح ، والسفن البخارية بالسكك الحديدية ، شرط ان يكون للقطن ، للرز ، للسفن البخارية — جسد الرأسمال — القيمة التبادلية نفسها ، السعر نفسه الذي للصوف والقمح والسكك الحديدية التي كان مجسداً فيها سابقا . ان جسد الرأسمال قد يتغير على الدوام دون ان يطرأ على الرأسمال اي تغير .

ولكن اذا كان كل رأسمال عبارة عن مجموعة من البضائع اي من القيم التبادلية ، فان كل مجموعة من البضائع ، من القيم التبادلية ليست رأسمالا

ان كل مجموعة من القيم التبادلية هي قيمة تبادلية . وكل قيمة تبادلية هي مجموعة من القيم التبادلية . مثلا ، ان بيتا يساوي ١٠٠٠ مارك هو قيمة تبادلية قدرها ١٠٠٠ مارك وصفحة من ورق تساوي بفينينغا هي مجموعة من القيم التبادلية قدرها ١٠٠/١٠٠ من البفينينغ . ان المنتجات التي يمكن مبادلتها

بمنتجات اخرى هي **بضائع** ، والنسبة المعينة التي تجري بموجبها مبادلة هذه المنتجات تشكل **قيمتها التبادلية** ، او ، بالتعبير النقدي ، **سعرها** وان حجم هذه المنتجات لا يمكن ان يغير شيئا في كونها **بضاعة** او كونها **قيمة تبادلية** او كونها ذات **سعر** محدد .
وسواء أكانت الشجرة كبيرة ام صغيرة ، فانها تبقى شجرة وسواء بادلنا الحديد ارطالا او اطنانا بمنتجات اخرى ، فهل يغير هذا في طابعه ، في كونه بضاعة ، قيمة تبادلية ؟ ان الحديد ، بوصفه بضاعة ، تتفاوت قيمته ويتباين سعره تبعا لكميته .

ولكن كيف تصبح كمية معينة من البضائع ، من القيم التبادلية ، راسمالا ؟

انها تصبح راسمالا بسبب انها ، بوصفها **قوة** اجتماعية مستقلة ، اي بوصفها قوة تابعة **لقسم من المجتمع** ، تبقى وتنمو عن طريق **مبادلتها بقوة العمل المباشرة** ، **الحية** . ان وجود طبقة لا تملك غير قدرتها على العمل هو شرط ضروري للراسمال .

ان سيطرة العمل المكدس ، الماضي ، المتجسد ، على العمل المباشر ، الحي ، هي وحدها التي تحوّل العمل المكدس الى راسمال

ان جوهر الراسمال ، ليس في كون العمل المكدس وسيلة للعمل الحي من اجل تحقيق انتاج جديد ، بل في كون العمل الحي وسيلة لحفظ قيمة العمل المكدس التبادلية ولزيادتها .

ماذا يجري عند التبادل بين الراسمالي والاجير ؟

يتلقى العامل وسائل معيشة مقابل قوة عمله ، ولكن الراسمالي يحصل مقابل ما قدمه من وسائل المعيشة ، على العمل ، على نشاط العامل المنتج ، على القوة الخلاقة التي بوساطتها لا يرد العامل ما استهلكه وحسب ، بل **يعطي ايضا العملَ المكدّس قيمةً اكبر من قيمته السابقة** . ان العامل يتلقى من الراسمالي قسما من

وسائل المعيشة الموجودة . لاي غرض تفيده وسائل المعيشة هذه ؟ لاستهلاكه المباشر . ولكني ما ان استهلك وسائل المعيشة ، حتى تضيع الى الابد بالنسبة اليّ ، الا اذا استخدمت الوقت الذي تؤمن فيه هذه الوسائل وجودي ، لكي انتج وسائل جديدة للمعيشة ، لكي اخلق بعملي ، خلال هذا الوقت ، قيما جديدة عوضاً عن القيم التي ازلتها باستهلاكها . ولكن أليست بالضبط هذه القوة الخلاقة النبيلة هي التي يتنازل عنها العامل للرأسمال مقابل وسائل المعيشة التي يتلقاها ! فهي ، بالتالي ، تصبح مفقودة بالنسبة له .

لنأخذ مثلا مزارع يعطي عامله المياوم ٥٠ بفينينغاً في اليوم ومقابل هذه البفينينغات الخمسين ، يشتغل هذا العامل كل النهار في حقول المزارع ويؤمن له على هذا النحو دخلا قدره مائة بفينينغ وهكذا لا يسترد المزارع فقط القيم التي يترتب عليه التنازل عنها للعامل المياوم ، بل يضاعفها ايضاً . فقد استخدم اذن ، استهلك ، بصورة مثمرة ، منتجة ، البفينينغات الخمسين التي اعطاها العامل المياوم ؛ فقد اشترى بهذه البفينينغات الخمسين عمل وقوة العامل المياوم اللذين يستنبتان منتجات زراعية ذات قيمة مضاعفة ، ويحولان البفينينغات الخمسين الى مائة بفينينغ اما العامل المياوم ، فانه يتلقى مقابل قوته المنتجة التي تنازل عن مفاعيلها للمزارع ، ٥٠ بفينينغاً يبادلها بوسائل معيشة يستهلكها على اشكال مختلفة من السرعة او البطء . وهكذا ، استُهلكت البفينينغات الخمسون بصورة مزدوجة **بصورة منتجة** بالنسبة للرأسمال ، اذ بودلت بقوة عمل* درّت مائة بفينينغ ، **وبصورة**

---

* ان اصطلاح «قوة العمل» هنا لم يدخله انجلس بل كان موجوداً في النص الاصلي الذي نشره ماركس في جريدة «نويه راينيشه زايتونغ» . الناشر .

غير منتجة بالنسبة للعامل ، اذ بودلت بوسائل معيشة زالت الى الابد ولا يمكنه ان يعيد قيمتها من جديد الا اذا كرر التبادل نفسه مع المزارع . **فالراسمال يفترض اذن العمل المأجور ، والعمل المأجور يفترض الراسمال ، فكل منهما شرط الاخر ، كل منهما يخلق الآخر .**

العامل في معمل للمنسوجات القطنية ، أتراه لا ينتج الا المنسوجات القطنية ؟ كلا ، انه ينتج راسمالاً ايضا انه ينتج قيما تُستغل بدورها للسيطرة على عمله ولكي تخلق بعمله هذا قيماً جديدة

ان الراسمال لا يمكن له ان يتكاثر الا اذا بودل بقوة العمل ، الا اذا خلق العمل الماجور . ان قوة عمل العامل الماجور لا يمكن مبادلتها بالراسمال ، الا اذا كانت تزيد الراسمال ، وتعزز بالضبط تلك السيطرة التي تستعبدها . **وهكذا فان تكاثر الراسمال هو بالتالي تكاثر البروليتاريا ، اي الطبقة العاملة .**

ولذا ، فان مصلحة الراسمالي والعامل **واحدة** — هكذا يزعم البرجوازيون واقتصاديوهم . فعلا ! ان العامل يهلك اذا لم يشغله الراسمال . والراسمال يزول اذا لم يستثمر قوة العمل ، ولكي يستثمرها ، لا بد له ان يشتريها . وبقدر ما يسرع ويتكاثر الراسمال المعد للانتاج ، الراسمال المنتج ، وبقدر ما تزدهر الصناعة بالتالي ، وتغتني البرجوازية ، وتتحسن الاحوال ، بقدر ما يحتاج الراسمالي الى مزيد من العمال ، ويبيع العامل نفسه بمزيد من الاجرة .

فالشرط الضروري الذي لا غنى عنه لكي يكون العامل في وضع مقبول ، **انما هو اذن نمو الراسمال المنتج نمواً سريعاً قدر الامكان .**

ولكن ما يعني نمو الرأسمال المنتج ؟ انه يعني نمو سيطرة العمل المكدس على العمل الحي ، انه يعنى نمو سيطرة البرجوازية على الطبقة العاملة . فحين ينتج العمل المأجور ثروة الآخرين التي تسيطر عليه ، القوة التي تعاديه ، الرأسمال ، فان وسائل تشغيله [Beschäftigungsmittel] اي وسائل معيشته ، تعود من الرأسمال اليه ، شرط ان يصبح ، من جديد ، قسماً من الرأسمال ، المحرك الذي يبث في الرأسمال من جديد حركة نمو متسارع

ان الادعاء بان مصالح الرأسمال ومصالح العمال واحدة لا يعني في الحقيقة الا ان الرأسمال والعمل المأجور هما طرفا علاقة واحدة يشترط فيها احدهما الآخر كما يشترط المرابي والمبذر احدهما الآخر .

فما دام العامل المأجور عاملا مأجوراً ، ظل مصيره رهنا بالرأسمال . تلك هي وحدة مصالح العامل والرأسمالي المزعومة .

فحين ينمو الرأسمال ، يتضخم حجم العمل المأجور ، ويزداد عدد العمال المأجورين ، اي بكلمة ، تمتد سيطرة الرأسمال وتشمل عدداً اكبر من الافراد ولنفترض احسن الاحوال حين ينمو الرأسمال المنتج ، يزداد الطلب على العمل ، وبالتالي يتصاعد سعر العمل ، الاجرة .

مهما يكن البيت ، اي بيت ، صغيراً ، فهو يلبي كل ما يُتطلب اجتماعيا من البيت ، ما دامت البيوت المجاورة صغيرة ايضا . ولكن ما ان يرتفع قصر منيف الى جانب البيت الصغير ، حتى ينحط البيت الصغير الى مرتبة كوخ حقير . واذ ذاك يغدو البيت الصغير الدليل على ان صاحبه لا يمكن له ان يكون متطلبا ، او انه لا يمكن ان يكون له غير متطلبات متواضعة جداً . ويمكن

للبيت الصغير ان يكبر قدر ما يشاء في مجرى تطور الحضارة ، ولكن ، اذا كبر القصر المجاور بالسرعة نفسها او بمقاييس اكبر ، فان ساكن البيت الصغير نسبيا سيشعر بتزايد عسره ، بتعاظم استيائه ، بالضيق بين جدران بيته الاربعة

ان زيادة الاجره زيادة محسوسة لحد ما تفترض نمواً سريعاً في الرأسمال المنتج والنمو السريع في الرأسمال المنتج يفضي الى نمو الثروة ، والترف ، والحاجات والمسرات الاجتماعية بالسرعة نفسها وهكذا ، ان تكن المسرات في متناول العامل قد ازدادت ، الا ان الارتياح الاجتماعي الذي تبعثه في نفسه قد خف ، بالقياس الى تزايد مسرات الرأسمالي التي ليست في متناول العامل ، وبالقياس الى مستوى تطور المجتمع بوجه عام فان حاجاتنا ومسراتنا انما تنبع من المجتمع ، ونحن لا نقيسها بالاغراض التي تلبيها بل نقيسها بمقاييس اجتماعية . فحاجاتنا ومسراتنا تتسم بطابع اجتماعي ولذا فانها نسبية

والاجرة لا تحددها فقط على وجه العموم كميـــة البضائع التى أستطيع الحصول عليها بالمقابل انما تنطوي على شتى العلاقات

اولا ، ان ما يتلقاه العامل مقابل قوة عمله ، انما هـــو مبلغ معين من النقد ترى ، هل ان الاجرة لا يحددها الا هذا السعر نقداً ؟

في القرن السادس عشر ، ازداد لمتداول من الذهب والفضة في اوروبا اثر اكتشاف مناجم في اميركا اغنى واسهل للاستثمار ومن جراء ذلك ، هبطت قيمة الذهب والفضة بالقياس الى سائر البضائع . واستمر العمال يتقاضون القدر نفسه من الفضة النقدية مقابل قوة عملهم . لقد ظل سعر عملهم نقداً كما كان عليه ،

ولكن اجورهم هبطت رغم ذلك اذ امسوا يتلقون مقداراً اقل من البضائع الاخرى مقابل الكمية نفسها من الفضة . وكان هذا من العوامل التي يسّرت تنامي الرأسمال ونهوض البرجوازية في القرن السادس عشر

لناخذ حالة اخرى . في شتاء ١٨٤٧ ، ازدادت اسعار اهم وسائل المعيشة ، الخبز واللحم والزبدة والجبنة وغيرها ، زيادة كبيرة ، بسبب من سوء الموسم . لنفترض ان العمال ظلوا يتقاضون المبلغ نفسه من النقد مقابل قوة عملهم الم تنخفض اجورهم في هذه الحال ؟ اجل . فمقابل المبلغ نفسه من النقد ، امسوا يتلقون قدراً اقل من الخبز واللحم ، الخ .. ولقد هبطت اجورهم ، لا لأن قيمة الفضة قد هبطت ، بل لأن قيمة وسائل المعيشة قد ازدادت .

لنفترض اخيراً ان سعر العمل نقداً ظل على حاله دون تغير ، بينا هبطت اسعار جميع المنتجات الزراعية والسلع الصناعية بسبب من استخدام آلات جديدة ، وموسم اوفر ، الخ .. فمقابل المبلغ نفسه من النقد ، اصبح بامكان العمال ان يشتروا قدراً اكبر من شتى البضائع وهكذا ازدادت اجورهم ، لأن قيمتها نقداً لم تتغير

وعليه فان سعر العمل نقداً ، اي الاجرة الاسمية ، لا ينطبق على الاجرة الفعلية ، اي على مقدار البضائع الذي يُعطى فعلا مقابل الاجرة . فحين نتحدث عن ارتفاع الاجرة او هبوطها ، يجب علينا بالتالي الا ناخذ بعين الاعتبار مجرد سعر العمل نقداً ، مجرد الاجرة الاسمية فقط .

ولكن لا الاجرة الاسمية ، اي مبلغ النقد الذي يبيع العامل نفسه مقابله من الرأسمالي ، ولا الاجرة الفعلية ، اي مقدار البضائع الذي يستطيع شراءه بهذا المبلغ النقدي ، يستنفدان العلاقات التي تنطوي عليها الاجرة .

فالاجرة انما تحددها ايضاً بالدرجة الاولى نسبتها مع كسب الرأسمالي ، مع ربح الرأسمـالي ، وبهذا المعنى تسمى الاجرة المقارنة ، النسبية .

ان الاجرة الفعلية تعبر عن سعر العمل بالنسبة لسعر سائر البضائع ، بينما الاجرة النسبية تعبر عن حصة العمل المباشر في القيمة الجديدة التي خلقها بالنسبة للحصة التي تعود منها الى العمل المكدّس اي الرأسمال .

قلنا اعلاه في الصفحة ١٤ * «فالاجرة ليست اذن حصة العامل في البضاعة التي انتجها ان الاجرة هي قسم من بضاعـة موجودة سلفاً يشتري به الرأسمالي كمية معينة من قوة عمل منتجة». ولكن هذه الاجرة انما ينبغي ان يستردها الرأسمالي من جديد من الثمن الذي يبيع به المنتوج الذي صنعه العامل ، ينبغي ان يستردها بصورة يبقى له معها ايضاً بوجه عام فائض عن نفقات الانتاج التي قدمها ، ربح . ان سعر مبيع البضاعة التي ينتجها العامل ينقسم بالنسبة للرأسمالي الى ثلاثة اقسام : **القسم الاول** ، بدل ثمن المواد الاوليـة التي قدمها وكذلك بدل استهلاك الآلات والادوات وسـائـر وسائـل العمـل التـي قدمهـا ؛ **القسم الثاني** ، بـدل الاجـرة التـي قدمهـا ؛ **القسم الثالث** ، الفائض ، ربح الرأسمالي فبينما القسم الاول ليس الا بدلاً **لقيم كانت موجودة في السابق** ، فمن الواضح ان بدل الاجرة وكذلك الفائض – ربح الرأسمالي يؤخذان بكليتهما **من القيمـة الجديدة التي اوجدها عمل العامل** واضيفت الى قيمة المواد الاولية . **وبهذا المعنى** نستطيع ان نعتبر الاجرة والربح على السواء ، حين نقارنهما معاً ، حصتين من منتوج العامل

* راجع الصفحة ١١٥ من هذا المجلد . **الناشر** .

وحتى اذا ظلت الاجرة الفعلية كما هي عليه ، بل حتى اذا ازدادت ، فان الاجرة النسبية قد تهبط . لنفترض مثلاً ان جميع وسائل المعيشة قد هبطت اسعارها مقدار الثلثين ، بينا لم تهبط الاجرة اليومية الا مقدار الثلث ، اي انها هبطت مثلا من ٣ ماركات الى ماركين فمع ان العامل يستطيع الآن ان يشتري بالماركين كمية من البضائع اكبر مما كان يشتريه بالماركات الثلاثة ، فان اجرته قد هبطت مع ذلك بالنسبة لربح الرأسمالي فان ربح الرأسمالي (الصناعي مثلا) قد ازداد مقدار مارك واحد ، اي انه ينبغي على العامل ان ينتج كمية اكبر مما مضى من القيم التبادلية ، لقاء كمية اقل من القيم التبادلية التي يدفعها له الرأسمالي وهكذا ازدادت حصة الرأسمال بالنسبة لحصة العمل واشتد التفاوت ايضا وايضا في توزيع الثروة الاجتماعية بين الرأسمال والعمل . ان الراسمالي يسيطر بالقدر نفسه من الرأسمال على قدر اكبر من العمل . وقد تعاظمت سيطرة الطبقة الرأسمالية على الطبقة العاملة ، وتردّى وضع العامل الاجتماعي وهبط درجة اخرى بالنسبة لوضع الرأسمالي

فما هو اذن القانون العام الذي يحدد هبوط وارتفاع الاجرة والربح في علاقاتهما المتبادلة ؟

ان علاقتهما متناسبة عكسا . فان حصة الرأسمال ، الربح ، ترتفع بقدر ما تهبط حصة العمل ، الاجرة اليومية ، والعكس بالعكس . ان الربح يرتفع بقدر ما تهبط الاجرة ، ويهبط بقدر ما ترتفع الاجرة .

قد يعترض معترض ويقول ان الراسمالي يستطيع الحصول على ربح من مبادلة منتجاته مبادلة رابحة مع راسماليين آخرين ، او من تزايد الطلب على بضاعته من جراء افتتاح اسواق جديدة ،

او ايضا من ازدياد الحاجات موقتا في الاسواق القديمة ، الخ . ؛ وان ربح الرأسمالي يمكن له اذن ان يزداد على حساب رأسماليين آخرين ، بصرف النظر عن ارتفاع الاجرة او هبوطهـــا ، بصرف النظر عن القيمة التبادلية لقوة العمل ؛ او ان ربح الرأسمالي يمكن له ايضا ان يزداد من جراء تحسين ادوات العمل وتطبيق اساليب جديدة في استخدام قوى الطبيعة ، الخ ..

ينبغي الاقرار بادئ الامر ان النتيجة تظل واحدة كما هي رغم التوصل اليها بالطريق المعاكس . والحقيقة ان الربح قد ازداد لا لأن الاجرة قد هبطت ، ولكن الاجرة هبطت لأن الربح قد ازداد . فان الرأسمالي قد اشترى بالقدر نفسه من عمل الغير قدراً اكبر من القيم التبادلية دون ان يدفع ثمنا ارفع للعمل ؛ اي ، بالتالي ، ان ثمن العمل هبط بالنسبة للربح الصافي الذي يدرّه للرأسمالي .

وفضلا عن ذلك ، لنذكر بان متوسط سعر كل بضاعة او النسبة التي تبادل بموجبها مقابل بضائع اخرى ، انما تحدده نفقات انتاج هذه البضاعة ، رغم تقلبات اسعار البضائع . ولذا تتعادل بالضرورة الخداعات المتبادلة في داخل الطبقة الرأسمالية . وتحسين الآلات وتطبيق اساليب جديدة في استخدام قوى الطبيعة في الانتاج ، يتيحان ، في وقت معين من العمل ، وبالقدر نفسه من العمل والرأسمال ، خلق قدر اكبر من المنتجات ، ولكنهمـــا لا يخلقان اطلاقا قدراً اكبر من القيم التبادلية . فاذا كنت استطيع ، بفضل استخدام المغزل الآلي ، ان اسلم في مدى ساعة قدراً من الخيطان يزيد ١٠٠ بالمئة عما قبل اختراع المغزل الآلي ، مثلا ١٠٠ رطل بدلا من ٥٠ ، فاني لا اتلقى ، بصورة وسطية وخلال فترة طويلة نسبيا ، مقابل الـ١٠٠ رطل قدراً من البضائع يزيد عما

كنت اتلقاه مقابل ٥٠ رطلا ، لان نفقات الانتاج قد هبطت ٥٠ بالمئة او لأني استطيع ان اسلم بالنفقات نفسها ضعف الانتاج

اخيراً ، مهما كانت النسبة التي تتقاسم بموجبهـا طبقـة الرأسماليين ، البرجوازية ، الربح الصافي من الانتاج ، اما في بلد ، واما في السوق العالمية بكليتها ، فان المبلغ الاجمالي لهذا الربح الصافي ليس ، على كل حال ، سوى المبلغ الذي اضافـه العمل المباشر ، بالاجمال ، الى العمل المكدس . وهكذا ، فان هذا المبلغ الاجمالي يزداد تبعاً للنسبة التي يزيد بها العملُ الرأسمال ، اي تبعاً للنسبة التي يزداد بموجبها الربح بالمقارنة مع الاجرة

وهكذا نرى ، حتى اذا بقينـا **داخل حدود العلاقات بين الرأسمال والعمل المأجور ، ان مصالح الرأسمال ومصالح العمل المأجور متضادة تماما .**

ان نمواً سريعاً في الرأسمال يوازي نمواً سريعاً في الربح والربح لا يمكنه ان ينمو بسرعة الا اذا هبط سعر العمل ، الاجرة النسبية ، بالسرعة نفسها . ان الاجرة النسبية قد تهبط حتى ولو ارتفعت الاجرة الفعلية في الوقت نفسه مع الاجره الاسمية ، مع قيمة العمل نقداً ، ولكن شرط الا ترتفع الاجرة الفعلية بنفس النسبة التي يرتفع بها الربح فاذا ارتفعت الاجرة ٥ بالمئة في مراحل الانتعاش وارتفع الربح ٣٠ بالمئة ، فان الاجرة النسبية **لا تزداد ، بل تهبط**

وعليه اذا ازداد دخل العامل مع نمو الرأسمال بسرعة فان الهوة الاجتماعية التي تفصل بين العامل والرأسمالي تتسع في الوقت نفسه ، كما يتعاظم بالتالي سلطان الرأسمال على العمل وتتفاقم تبعية العمل ازاء الرأسمال .

فالقول ان للعامل مصلحة في نمو الرأسمال بسرعة ، انه

يعني في الواقع انه كلما زاد العامل بسرعة ثروة الآخرين ، كلما ازدادت الفتات التي يلتقطها عن المائدة ؛ وكلما امكن تشغيل عدد اكبر من العمال وكلما امكن توليد عدد اكبر من العمال ، كلما امكن زيادة جيش الارقاء في تبعية الرأسمال .

لقد لاحظنا اذن

ان **الظرف الاكثر ملاءمة** للطبقة العاملة ، **نمو الرأسمال بأسرع ما يمكن** ، لا يقضي على التناقض بين مصالح العمال ومصالح البرجوازيين ، مصالح الرأسماليين ، مهما كان التحسين الذي يدخله في حياة العامل المادية . **فالربح والأجرة** هما ، من بعد كما من قبل ، **في علاقة متناسبة عكسا** .

فحين ينمو الرأسمال بسرعة ، فان الاجرة قد تنمو ، ولكن ربح الرأسمالي ينمو بما لا يقاس من السرعة ان حياة العامل المادية لتحسن ، ولكن على حساب وضعه الاجتماعي فالهوة الاجتماعية التي تفصله عن الرأسمالي تزداد اتساعاً .

اخيراً

ان القول بان الظرف الانسب للعمل المأجور انما هو نمو الرأسمال المنتج باسرع ما يمكن ، يعني في الواقع انه كلما زادت الطبقة العاملة وانمت القوة المعادية لها ، ثروة الآخرين التي تسيطر على الطبقة العاملة ، كلما تحسنت الاحوال التي يسمح لها فيها من جديد بالعمل على زيادة الثروة البرجوازية ، على تعزيز سلطان الرأسمال ، راضية بان تصنع بنفسها السلاسل الذهبية التي تجرها بها البرجوازية في ذيلها .

نمو الرأسمال المنتج وزيادة الاجرة ، ترى ، هل هما حقا وثيقا الارتباط لا تنفصم عراهما كما يزعم الاقتصاديون البرجوازيون ؟ ينبغى لنا الا نصدق مزاعمهم . بل انه لا يمكننا ان

نصدقهم بتاتا حين يقولون انه بقدر ما يسمن الرأسمال ، بقدر ما يسمن عبده ان البرجوازية بالغة الفطنة والحنكة ، فهي تحسب وتجيد الحساب ولا تقلد السيد الاقطاعي في غروره واوهامه اذ يتباهى ببريق لباس خدمه ان شروط حياة البرجوازية انما تُكرهها على الحساب

ولذا لا بد ان ندرس هذا الامر عن كثب :

ما هو تأثير نمو الرأسمال المنتج في الاجرة ؟

حين ينمو الرأسمال المنتج للمجتمع البرجوازي بكليته ، فذلك يعني انه حدث بالنتيجة تكدس عمل اعمّ . فالرأسماليون يزدادون عدداً والرساميل تزداد حجما وزيادة الرساميل تعزز المزاحمة بين الرأسماليين . وتنامي مقادير الرساميل يتيح سوق جيوش اضخم من العمال الى ميدان المعركة الصناعية ، مع اعتدة قتالية اقوى واكبر .

ان الرأسمالي لا يستطيع ازاحة الآخر والاستيلاء على رأسماله الا اذا باع باسعار ارخص ، ولكي يستطيع ان يبيع باسعار ارخص دون ان يحل به الخراب ، عليه ان ينتج بكلفة اقل ، اي ان يزيد انتاجية العمل قدر الامكان . ولكن انتاجية العمل تزداد على الاخص من جراء زيادة تقسيم العمل ، من جراء اشاعة الآلات على نطاق اوسع فاوسع وتحسينها على الدوام فبقدر ما يزداد جيش العمال الذين يُقسَّم العمل بينهم ، وتشاع الآلات على نطاق اوسع ، بقدر ما تنخفض نفقات الانتاج اسرع نسبيا ، ويغدو العمل اوفر مردوداً . ولذا تقوم بين الرأسماليين مباراة متنوعة المظاهر لزيادة تقسيم العمل واشاعة الآلات ولاستثمار هذين العنصرين على اكبر نطاق ممكن .

ولكن اذا استطاع رأسمالي ، بفضل تقسيم العمل على نطاق اوسع ، واستخدام الآلات الجديدة وتحسينها ، واستغلال قوى الطبيعة على وجه افيد وعلى نطاق اكبر ، اذا استطاع هذا الرأسمالي ان يصنع بالقدر نفسه من العمل او من العمل المكدس قدراً من المنتجات ، من البضائع ، اكبر مما يصنعه مزاحموه ؟ اذا استطاع مثلا ان ينتج متراً كاملا من القماش في فترة معينة من الوقت بينا ينتج مزاحموه نصف متر من القماش نفسه في الفترة ذاتهـــا ، فما عساه ان يفعل ؟

انه يستطيع ان يبيع نصف المتر من القماش بالسعر السابق في السوق . ولكن تلك لن تكون الوسيلة لازاحة اخصامه وزيادة تصريفه . والحال ، بقدر ما يتسع انتاجه ، تتعاظم بالنسبة له الحاجة الى التصريف . والحقيقة ان وسائل الانتاج الاقوى والاغلى التي اوجدها تتيح له ان يبيع بضاعته باسعار ارخص ، ولكنها تكرهه في الوقت نفسه على بيع مزيد من البضائع ، على الاستيلاء على سوق لبضائعه اكبر بما لا يقاس . وهكذا فان صاحبنا الراسمالي هذا سيبيع نصف المتر من القماش بسعر ارخص مما يبيع مزاحموه .

ولكن هذا الراسمالي لن يبيع المتر الكامل من القماش بنفس الثمن الذي يبيع به مزاحموه نصف المتر ، رغم ان انتاج المتر بكامله لا يكلفه اكثر مما يكلف مزاحميه انتاج نصف المتر . والا ، فانه لن يحصل على اي ربح زائد ولن يسترد بالمقابل الا نفقات انتاجه . فاذا ازداد دخله في هذه الحال ، فلأنه وظّف وشغّل راسمالا اكبر لا لكونه استحصل من راسماله اكثر مما يستحصل الراسماليون الآخرون . ثم انه يبلغ الهدف الذي ينشده لمجرد ان يبيع بضاعته بسعر يقل بعض الاجزاء من مائة جزء

من سعر مزاحميه وهكذا يزيحهم من السوق ، او ينتزع منهم على الاقل قسماً من تصريفهم ، اذ **يبيع باسعار ادنى** من اسعارهم . واخيراً ، لنذكر ان السعر الجاري هو دائماً **اكبر او اقل من نفقات الانتاج** ، حسبما يتم بيع البضاعة في فصل يلائم الصناعة او لا يلائمها . وحسبما يكون سعر متر القماش في السوق اكبر او اقل من نفقات انتاجه السابقة العادية ، فان الرأسمالي الذي استخدم وسائل انتاج جديدة الجيد ، سيبيع باسعار تزيد على نفقات انتاجه الفعلية بنسب مئوية مختلفة

ولكن **امتياز** صاحبنا الرأسمالي لا يدوم طويــــلا ؛ فـــان الرأسماليين المنافسين الآخرين يستخدمون الآلات نفسها وتقسيم العمل نفسه ، وعلى النطاق نفسه او على نطاق اوسع ، وهذا التحسين ينتشر ويعم حتى **يهبط** ثمن القماش لا الى ما **دون نفقات انتاجه السابقة** وحسب ، بل ايضاً **دون نفقات انتاجه الجديدة**

وهكذا يجد الرأسماليون انفسهم بعضهم ازاء بعض ، في ذات الوضع الذي كانوا فيه **قبل** تطبيق وسائل الانتاج الجديدة ، واذا كانوا يستطيعون بهذه الوسائل ان يسلموا ضعف الانتاج بالثمن السابق نفسه ، الا انهم مكرهــون **الآن** على بيـــع ضعف انتاجهم بسعر **ادنى** من السعر السابق . واذ تبلغ نفقات الانتاج هذا المستوى الجديد ، تتجدد اللعبة : زيادة تقسيم العمل ، زيادة عدد الآلات ، اتساع نطاق استخدام تقسيم العمل ، والآلات . المزاحمة تفضي من جديد الى رد الفعل ذاته ضد هذه النتيجة

وهكذا نرى كيف يتغير على الدوام أسلوب الانتاج ووسائل الانتاج بشكل ثوري ؛ كيف **يؤول تقسيم العمل بالضرورة الى تقسيم العمل على نطاق اوسع ، واستخدام الآلات الى استخدام**

الآلات على نطاق أكبر ، والانتاج على نطاق ضخم الى الانتاج على نطاق أضخم .

ذلك هو القانون الذي يقذف على الدوام بالانتاج البرجوازي خارج طريقه السابقة ، ويكره الرأسمال دائماً على ان يشدد ايضاً وايضاً قوى العمل المنتجة وذلك لأنه قد شددها من قبل ، القانون الذي لا يدع للرأسمال اي فرصة للراحة وما ينفك يهمس في اذنه : الى الامام ! الى الامام !

وما هذا القانون الا القانون الذي يجعل بالضرورة سعر بضاعة ما مساوياً لنفقات انتاجها ، وذلك ضمن حدود تقلبات التجارة من فترة الى فترة .

ومهما بلغت وسائل الانتاج التي يضعها الرأسمالي قيد العمل ، من الضخامة والقوة ، فان المزاحمة لا تلبث ان تعمم وسائل الانتاج هذه ، ومتى تعممت ، فان النتيجة الوحيدة للمردود الاكبر لرأسماله هي انه يصبح مضطراً الآن ان يسلّم ، لقاء الثمن نفسه ، منتجات تزيد عشر مرات ، او عشرين ، او مئة مرة عما في السابق . ولكن ، بما انه ينبغي له ان يصرف الآن قدراً من المنتجات ربما يزيد الف مرة لكي يعوض بقدر اكبر من المنتجات المصرفة عن انخفاض سعر البيع ، وبما ان بيع مقادير اكبر من البضائع غدا الآن ضرورياً له لا من اجل مزيد من الكسب وحسب ، بل ايضاً من اجل استعادة نفقات الانتاج - اذ ان ادوات الانتاج نفسها ، كما سبق ورأينا ، يزداد سعرها اكثر فاكثر - وبما ان هذا البيع بكميات كبيرة اصبح الآن مسألة حيوية لا بالنسبة لهذا الرأسمالي وحسب ، بل بالنسبة ايضاً لمنافسيه ، فان النضال السابق يشتد عنفاً بقدر ما تصبح وسائل الانتاج المخترعة اكثر فعالية . وهكذا ما ينفك تقسيم العمل واستخدام الآلات يتطوران في نطاق اوسع بما لا حدّ له .

فمهما تعاظمت اذن قوة وسائل الانتاج المستخدمة ، فان المزاحمة تحاول ان تنتزع من الرأسمال الثمار الذهبية الناجمة عن هذه القوة بتخفيض سعر البضاعة الى مستوى نفقات انتاجها ، جاعلة بالتالي من ترخيص الانتاج وتسليم مقادير اكبر فاكبر من المنتجات مقابل مجموعة الاسعار السابقة ، قانوناً الزامياً ، وهذا بقدر ما تظهر امكانية الانتاج بنفقات اقل ، اي امكانية انتاج قدر اكبر من المنتجات بواسطة القدر نفسه من العمل وهكذا اذن لا يكسب الرأسمالي ، بجهوده ، سوى واجب تقديم مزيد من الانتاج في الوقت نفسه من العمل ، اي انه ، بكلمة ، لا يكسب الا **شروطاً اصعب لزيادة قيمة رأسماله** وبما ان المزاحمة تلاحق الرأسمالي على الدوام بوساطة قانون نفقات الانتاج ، وبما ان كل سلاح يشحذه ضد اخصامه يعود ضده بالذات ، فهو يحاول ابداً ان يتغلب على المزاحمة بان يستعيض بلا توقف عن الآلات القديمة والطرائق القديمة لتقسيم العمل بالآلات والطرائق الجديدة التي هي اكثر كلفة ولكنها ترخص الانتاج ، ولا ينتظر حتى تجعل المزاحمة من هذه الآلات والطرائق الجديدة آلات وطرائق قديمة ولى عهدها

فاذا تصورنا الآن هذه الحركة المحمومة في **السوق العالمية بأسرها** ، ادركنا كيف يؤدي نمو الرأسمال وتكدسه وتمركزه الى تقسيم في العمل يجري بصورة لا انقطاع فيها ، بصورة يغير فيها نفسه بنفسه ، وعلى نطاق يزداد اتساعاً على الدوام ، والى استخدام الآلات الجديدة وتحسين الآلات القديمة

ولكن كيف تؤثر هذه الظروف الملازمة لنمو الرأسمال المنتج ، في تحديد الاجرة ؟

ان **تقسيم العمل** على نطاق اكبر يتيح للعامل **الواحد** ان يقوم بعمل ٥ عمال ، و١٠ ، و٢٠ ؛ فيزيد المزاحمة اذن بين

العمال ٥ مرات ، و١٠ ، و٢٠ مرة . ان العمال لا يتزاحمون فقط بان يبيع بعضهم نفسه باسعار ارخص من البعض الآخر ؛ انما يتزاحمون ايضاً لأن عاملا واحداً يقوم بعمل ٥ عمال ، و١٠ ، و٢٠ وتقسيم العمل الذي ادخله الراسمال ولايزال يوسعه على الدوام هو الذي يكره العمال على هذا النوع من المزاحمة فيما بينهم .

وفضلا عن ذلك ، فان العمل يغدو بسيطاً بقدر ما يزداد تقسيم العمل . ولا يبقى لمهارة العامل الخاصة اية قيمة . فالعامل يتحول الى قوة منتجة بسيطة ، رتيبة ، الى قوة لا يُتطلب منها اية كفاءة جسدية او فكرية ممتازة . ويغدو عمله في مقدور الجميع ولذا يضغط المزاحمون على العامل من كل الجهات ثم لنذكر بانه بقدر ما يكون العمل بسيطا وسهلا تعلمه ، وبقدر ما تقل نفقات الانتاج لاستيعابه ، بقدر ما تهبط الاجرة ، لأن الاجرة انما تحددها نفقات الانتاج ، شانها شان سعر اية بضاعة اخرى .

فبقدر ما يصبح العمل ، اذن ، اقل لذة واشـد تنفيراً ، بقدر ما تزداد المزاحمة وتهبط الاجرة . فيسعى العامل الى الاحتفاظ بمجمل اجرته وذلك بالعمل اكثر مما مضى ، اما بالعمل ساعات اكثر ، واما بانتاج قدر اكبر في الساعة نفسها . فهو اذن بدافع البؤس يزيد ايضاً وايضاً من مفاعيل تقسيم العمل المشؤومة والنتيجة هي انه كلما اشتغل اكثر ، كلما تقاضى اجرة اقل ، وذلك لمجرد انه ، بقدر ما يكثر عمله ، بقدر ما يزاحم رفاقه في العمل ، ويجعل منهم مزاحمين له يبيعون انفسهم بشروط سيئة كشروطه ، ولأنه ، في آخر المطاف ، يزاحم نفسه بنفسه ، يزاحم نفسه بوصفه عضواً من اعضاء الطبقة العاملة .

والآلات تحدث المفاعيل نفسها على نطاق اكبر ، اذ انها تستعيض عن العمال الماهرين بعمال غير ماهرين ، وعن الرجال بالنساء ، وعن الراشدين بالاحداث ، واذ انها ، لمجرد ظهورها ، تلقي العمال اليدويين بالجملة الى الشارع ، واذ انها ، في مجرى تطويرها وتحسينها واتقانها ، تطرد العمال فئات كاملة لقد رسمنا اعلاه لوحة عاجلة للحرب الصناعية بين الراسماليين ؛ **ان هذه الحرب تتميز بميزة خاصة ، وهي ان المعارك فيها انما تكسَب عن طريق تقليل جيش العمال اكثر مما تكسب عن طريق زيادته . فالقادة ، الراسماليون ، يتنافسون لمعرفة من يستطيع ان يسرح اكبر عدد من جنود الصناعة .**

صحيح ان الاقتصاديين يزعمون ان العمال الذين تجعلهم الآلات في عداد الفائضين ، يجدون عملا في فروع صناعية جديدة . ولكنهم لا يجرؤون على التأكيد مباشرة ان هؤلاء العمال الذين سُرِّحوا يجدون عملا في فروع عمل جديدة فالوقائع تصرخ عاليا ضد هذا الكذب وحقا نقول انهم يؤكدون فقط انه ستتوافر وسائل شغل جديدة **لاقسام اخرى من الطبقة العاملة** ، مثلا ، لقسم الاجيال الفتية من العمال ، الذي كان على وشك ان يدخل في الفرع الصناعي المتلاشي . وذلك ، طبعا ، عزاء كبير ، كما يزعم ، للعمال المقذوف بهم الى الشارع فلن يعدم السادة الراسماليون لحما ودما طازجين للاستثمار ، و«دع الموتى يدفنون موتاهم» ذلك حقا عزاء يعزّي البرجوازيون انفسهم به اكثر مما هو عزاء للعمال فلو قضت الآلات على كل طبقة الاجراء ، لغاية كارثة رهيبة تحل بالراسمال ، اذ انه ، بدون عمل ماجور ، يكف عن ان يكون راسمالا !

ولكن ، لنفترض ان العمال الذين طردتهم الآلات مباشرة

من العمل ، وكل قسم الجيل الجديد الذي كان على وشك ان يدخل هذا الفرع من العمل ، يجدون عملا جديداً . فهل يُظن انهم سيتقاضون عن هذا العمل الجديد الاجرة نفسها التي كانوا يتقاضونها عن العمل الذي فقدوه ؟ ان هذا الظن ليناقض كل القوانين الاقتصادية . ولقد رأينا كيف ان الصناعة العصرية تسعى دائما الى الاستعاضة عن العمل المعقد ، الاعلى ، بعمل ابسط ، ادنى .

فكيف تستطيع اذن فئة من العمال قذفت بها الآلات خارج فرع صناعي معين ، ان تجد ملجأ لها في فرع صناعي آخر الا اذا دُفع لها اجر اقل ، اسوأ ؟

لقد استُشهد على سبيل الاستثناء بالعمال الذين يشتغلون في صنع الآلات بالذات . وقيل : طالما ان الصناعة تتطلب وتستهلك مزيداً من الآلات ، فلا بد للآلات بالضرورة ان تزداد عدداً ، وان يزداد بالتالي صنع الآلات ، وكذلك اذن عدد العمال العاملين في صنع الآلات ، والعمال العاملون في هذا الفرع الصناعي هم عمال اخصائيون وحتى متعلمون

ولكن هذا القول الذي كان قبل عام ١٨٤٠ نصف صحيح فقط ، قد فقد منذ ذلك كل قيمة ، اذ ان الآلات قد استخدمت ، بصورة اعم فاعم ، في صنع الآلات كما في انتاج الخيطان القطنية ، وان العمال العاملين في مصانع الآلات لم يبق بوسعهم ان يضطلعوا ، بجانب الآلات المتقنة الراقية ، الا بدور آلات بدائية للغاية .

ولكن ، الا يشغل المصنع ، بدلا من الرجل الذي طردته الآلة ، ربما ثلاثة اطفال وامرأة واحدة ! والحال ، الم يكن من الواجب ان تكفي اجرة الرجل لاعالة ثلاثة اطفال والزوجة ؟ الم يكن يجب ان يكفي الحد الادنى من الاجرة لاعالة الجنس

وتناسله ؟ فما تعني اذن هذه الطريقة في التعبير التي يحبها البرجوازيون ؟ انها لا تعني غير الامر التالي ان اربع حيانات عمالية ، بدلا عن حياة عمالية واحدة ، تفنى الآن لكي تعيل اسرة عمالية واحدة

لنوجز : **بقدر ما ينمو الراسمال المنتج ، بقدر ما يتسع تقسيم العمل واستخدام الآلات . وبقدر ما يتسع تقسيم العمل واستخدام الآلات ، بقدر ما تنتشر المزاحمة بين العمال ، وبقدر ما تهبط اجورهم .**

ونضيف ايضا ان الطبقة العاملة انما تنضم الى صفوفها جماعات من **فئات اعلى في المجتمع** ، جماعات من صغار الصناعيين وصغار اصحاب الريع ، ممن ليس عندهم مخرج آخر الا رفع ايديهم الى جانب ايدي العمال وهكذا فان غابات الايدي التي ترتفع طلبا للعمل تتكاثف اكثر بينما الايدي ذاتها تزداد نحولا وهزالا .

وبديهي تماما ان الصناعي الصغير لا يستطيع الصمود في حرب من شروطها الاولى الانتاج على نطاق يتعاظم على الدوام ، اي ان يكون الصناعي بالضبط صناعيا ضخما لا صناعيا صغيرا

وليس ثمة حاجة الى مزيد من الشرح ان فائدة الراسمال تنخفض بقدر ما ينمو الراسمال ، بقدر ما يزداد حجمه وعدده ، وانه لا يبقى بالتالي في وسع صاحب الريع الصغير ان يعيش من ريعه ، فيضطر للجوء الى الصناعة ، اي انه ينضم الى صفوف صغار الصناعيين ، وعلى هذا النحو ، يزيد عدد المرشحين للانتقال الى صفوف البروليتاريا

واخيرا ، بقدر ما تكره حركة التطور الموصوفة اعلاه الراسماليين على استثمار وسائل الانتاج الجبارة القائمة واستغلالها

على نطاق متسع ابدأ ، وعلى تحريك جميع نوابض التسليف من اجل تحقيق هذا الغرض ، بقدر ما تزداد الزلازل الصناعية التي لا يحافظ العالم التجاري على نفسه فيها الا اذا ضحى على مذبح شياطين الجحيم بقسم من الثروة ومن المنتجات وحتى من القوى المنتجة ـ اي بقدر ما تزداد **الازمات** وهذه الازمات تتقارب اكثر فأكثر وتشتد عنفاً ، لأن السوق العالمية ما تنفك تضيق بقدر ما ينمو مقدار المنتجات وتنمو بالتالي الحاجة الى اسواق موسعة ، ولأن الاسواق الجديدة التي يمكن استثمارها تقلّ يوما بعد يوم ، اذ ان كل ازمة سابقة تفتح امام التجارة العالمية اسواقا جديدة او اسواقا لم تستثمرها التجارة حتى ذاك الا بصورة سطحية ولكن الراسمال لا **يعيش** من العمل وحسب . فهو كالسيد البربري من مالكي الارقاء يجتذب الى قبره جثث ارقائه ، وهم جماهير العمال الذين يهلكون خلال الازمات

وهكذا نرى انه ، حين ينمو الراسمال بسرعة ، تنمو المزاحمة بين العمال بصورة اسرع بما لا حد له ، اي انه بقدر ما يسرع الراسمال في نموه ، بقدر ما تنخفض بمقادير اكبر نسبيا ابواب الرزق ، وسائل معيشة الطبقة العاملة ؛ ومع ذلك فان نمو الراسمال بسرعة هو الشرط الانسب للعمل المأجور .

كتبه ماركس على اساس المحاضرات التي القاها في النصف الثاني من كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٤٧

نشر في „Neue Rheinische Zeitung" الاعداد ٢٦٤ـ ٢٦٧ و٢٦٩ : ٥ ـ ٨ و١١ نيسان (ابريل) ١٨٤٩ وبكراس خاص مع مقدمة انجلس وبتحريره ، في برلين عام ١٨٩١

يصدر حسب نص الكراس

تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

ماركس

الثامن عشر من برومير لويس بونابرت(٣٩)

مقدمة فريدريك انجلس للطبعة الالمانية الثالثة عام ١٨٨٥

ان نشوء الحاجة الى اصدار طبعة جديدة من «الثامن عشر من برومير» ، بعد ثلاث وثلاثين سنة من صدوره لاول مرة ، ليثبت ان هذا المؤلف لم يفقد شيئا من قيمته حتى في ايامنا هذه

لقد كان في الحق عملا عبقريا فقد طلع علينا ماركس مباشرة بعد الحادث الذي داهم عالم السياسة كله كانه صاعقة انقضت من السماء الصافية ، الحادث الذي لعنه البعض بصرخات عالية من الاستهجان الخلقي ، وتقبله الآخرون باعتباره خلاصا من الثورة وعقابا على اخطائها ، الحادث الذي لم يثر الا دهشة الجميع والذي لم يفهمه احد – بعد هذا الحادث مباشرة طلع علينا ماركس بعرض موجز ساخر لاذع بسط فيه كامل مجرى التاريخ الفرنسي منذ ايام شباط (فبراير) ، بما في هذا المجرى من علاقات داخلية ، ورد فيه معجزة الثاني من كانون الاول (ديسمبر) (٤٠) الى كونها نتيجة طبيعية وضرورية لهذه العلاقات وهو اذ فعل ذلك لم يكن في حاجة لان يعامل بطل الانقلاب بغير الاحتقار الذي استحقه تماما . وقد رسم ماركس هذه الصورة بيد ماهرة بحيث ان كل فضح جديد جاء فيما بعد لم يفعل غير ان اورد براهين جديدة على مدى الدقة التي كانت الصورة تعكس بها

الحقيقة . ان هذا الفهم الممتاز للتاريخ الحي المعاصر وهذا التقدير الواضح لمغزى الاحداث في لحظة وقوعها هما حقاً مما لا نظير له .

ولكن من اجل ذلك كان الامر يقتضي سعة معرفة بالتاريخ الفرنسي كالتي كانت لدى ماركس . ان فرنسا هي البلد الذي كان الصراع الطبقي التاريخي يصل فيه كل مرة ، واكثر مما في اي بلد آخر ، الى نهاية فاصلة ، وهي بالتالي البلد الذي كانت فيه الاشكال السياسية المتغيرة التي يتحرك ضمنها هذا النضال الطبقي ، والتي تتلخص فيها نتائجه ، تنطبع في خطوط جلية الى اقصى حد ان فرنسا التي كانت ، منذ عهد النهضة(٤١) ، مركز الاقطاع في العصور الوسطى والقطر النموذجي للحكم الملكي الاقطاعي الموحد قد قامت بهدم الاقطاع في الثورة الكبرى واقامت حكم البرجوازية الصرف في نقاء كلاسيكي ليس هناك ما يضارعه في اي قطر اوروبي آخر . كما ان كفاح البروليتاريا الصاعدة ضد البرجوازية الحاكمة ظهر هنا في صورة حادة لا نشهدها في اي مكان آخر وهذا هو السبب الذي حدا بماركس لا الى دراسة تاريخ فرنسا الماضي بشغف خاص فحسب بل الى تتبع تاريخها الحالي بكل تفاصيله ايضاً ، والى تجميع المادة لاستعمالها في المستقبل ، ولذلك ، لم تكن الاحداث تباغته على الاطلاق .

ثم ان هنالك ، فضلا عن هذا ، ظرفاً آخر . ان ماركس هو على وجه التحديد اول من اكتشف القانون العظيم لحركة التاريخ ، — القانون الذي يقول ان النضال التاريخي ليس في الواقع سوى التعبير الواضح ، بدرجة تزيد او تقل ، عن النضال بين الطبقات الاجتماعية — سواء أقام هذا النضال في ميادين السياسة ام الدين ام الفلسفة ام في اي ميدان ايديولوجي آخر ، وان وجود هذه الطبقات ، وبالتالي الاصطدامات التي تقع بينها ، انما

تحددها بدورها درجة تطور وضعها الاقتصادي وطابع الانتاج واسلوب الانتاج وطريقة التبادل التي يعينها اسلوب الانتاج ان هذا القانون الذي يعني بالنسبة للتاريخ نفس ما يعنيه قانون تحويل الطاقة بالنسبة للعلم الطبيعي – ان هذا القانون كان بالنسبة لماركس في هذا الحال ايضاً بمثابة المفتاح لفهم تاريخ الجمهورية الفرنسية الثانية(٤٢) وعلى محك هذا التاريخ ، تحقق في هذا المؤلّف من صحة القانون الذي اكتشفه ، ولا بد لنا ان نقول حتى بعد ثلاث وثلاثين سنة ان هذا الامتحان اسفر عن نتائج رائعة .

ف . ا .

كتب في سنة ١٨٨٥
نشر في كتاب :
Karl Marx „Der Achtzehnte Brumaire des Louis Bonaparte". Hamburg, 1885

يصدر حسب نص الكتاب
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

الثامن عشر من برومير لويس بونابرت

١

يقول هيغل في مكان ما ان جميع الاحداث والشخصيات العظيمة في تاريخ العالم تظهر ، اذا جاز القول ، مرتين . وقد نسي ان يضيف المرة الاولى كماساة والمرة الثانية كمسخرة كوسيدير مكان دانتون ، لويس بلان مكان روبسبيير ، «جبل» ١٨٤٨ـ١٨٥١ مكان «جبل» ١٧٩٣ـ١٧٩٥ (٤٣) ابن الاخ مكان العم والصورة الكاريكاتورية نفسها تظهر في الظروف التي رافقت الطبعة الثانية للثامن عشر من برومير (٤٤) !

ان الناس يصنعون تاريخهم بيدهم ! ولكنهم لا يصنعونه على هواهم انهم لا يصنعونه في ظروف يختارونها هم بانفسهم بل في ظروف يواجهون بها وهي معطاة ومنقولة لهم مباشرة من الماضي ان تقاليد جميع الاجيال الغابرة تجثم كالكابوس على ادمغة الاحياء . وعندما يبدو هؤلاء منشغلين فقط في تحويل انفسهم والاشياء المحيطة بهم ، في خلق شيء لم يكن له وجود من قبل ، عند ذلك بالضبط ، في فترات الازمات الثورية كهذه على وجه التحديد ، نراهم يلجؤون في وجل وسحر الى استحضار ارواح

الماضي لتخدم مقاصدهم ، ويستعيرون منها الاسماء والشعارات القتالية والازياء لكي يُمثلوا مسرحية جديدة على مسرح التاريخ العالمي في هذا الرداء التنكري الذي اكتسى بجلال القدم وفي هذه اللغة المستعارة . هكذا ارتدى لوثر قناع الرسول بولس واكتست ثورة ١٧٨٩ـ١٨١٤ بثوب الجمهورية الرومانية تارة وثوب الامبراطورية الرومانية تارة اخرى ، ولم تجد ثورة ١٨٤٨ شيئاً افضل من التقليد الساخر لعام ١٧٨٩ حيناً والتقاليد الثورية لسنوات ١٧٩٣ الى ١٧٩٥ حيناً آخر . وعلى هذا النحو يعمد دائماً المبتدئ الذي تعلم لغة جديدة الى ترجمة هذه اللغة بالفكر الى لغته الاصلية ، ولكنه لا يكون قد استوعب روح اللغة الجديدة واستطاع ان يعبر بها بطلاقة الا عندما يستغني عن الترجمة بالفكر وعندما ينسى لغته الاصلية وهو يستعمل اللغة الجديدة

ان التامل في هذه الاستحضارات لما غبر في تاريخ العالم يكشف لنا النقاب على الفور عن فرق بارز فيما بينها . فان كميل ديمولان ودانتون وروبسبيير وسان‑جوست ونابوليون ، ابطال الثورة الفرنسية القديمة ، وكذلك احزابها وجماهيرها الشعبية ، قد ادوا مهمة زمنهم في ازياء رومانية وبالفاظ رومانية ــ مهمة فك القيود واقامة المجتمع البرجوازي الحديث الاولون نسفوا اسس الاقطاعية تماماً وحصدوا الرؤوس الاقطاعية التي نمت عليها والاخير اوجد في داخل فرنسا الظروف التي يتسنى فيها وحدها للمنافسة الحرة ان تتطور وللارض الموزعة ان تُستغل وللطاقة الامة الانتاجية الصناعية التي أطلقت من القيود ان تُستخدم ، وعمد في كل مكان فيما وراء الحدود الفرنسية الى تهديم الاشكال الاقطاعية الى المدى الذي كان فيه ذلك ضرورياً لتزويد المجتمع البرجوازي في فرنسا ببيئة ملائمة في القارة

الاوروبية وتستجيب لمتطلبات الزمن . واذ تم تاسيس التشكيلة الاجتماعية الجديدة ، اختفى عمالقة ما قبل الطوفان واختفى معهم العهد الروماني القديم الذي بعث الى الحياة – اي جميع البروتوسات والغراكوسات والبوبليكولات والخطباء واعضاء السناتو والقيصر نفســـه . ان المجتمع البرجوازي ، في حقيقته العقليـــة العملية ، قد وجد شراحه والسنة حاله الحقيقيين في امثال ساي وكوزين ورويه-كولار وبنيامين كونستان وغيزو ومن شاكلهم وجلس قادته العسكريون الحقيقيون في المكاتب ، وكان لويس الثامن عشر ، ذو رأس الخنزير ، رئيسه السياسي . واذ انغمس هذا المجتمع كلياً في انتاج الثروة وفي الكفاح السلمي الذي يقوم على المنافسة ، نسي ان اشباحاً من عهد روما القديمة كانت تسهر على مهده . ولكن المجتمع البرجوازى ، مع ما هو عليه من قلة البطولة ، اقتضى اخراجه الى حيز الوجود بطولة وتضحية وارهاباً واقتضى حرباً اهلية ومعارك بين الشعوب . وقد وجد مصارعوه في التقاليد ذات الصرامـــة الكلاسيكية التي خلفتهـــا الجمهورية الرومانية ، المثل العليا والاشكال الفنية والاوهام التي كانوا في حاجة اليها لكي يخفوا عن انفسهم ما كان عليه محتوى صراعاتهم من قصور برجوازي ولكي يبقوا حماستهم في المستوى العالي للمأساة التاريخية العظيمة . ومن هذا القبيل ، وفي مرحلة اخرى من التطور ، وقبل ذلك بقرن من الزمان ، استعار كروموبل والشعب الانجليزي الكلام والعواطف والاوهام من «العهد القديم» (٤٥) لثورتهم البرجوازية (٤٦) . وعندما تم الوصول الى الهدف الحقيقي ، عندما تم انجاز التحويل البرجوازي للمجتمع الانجليزي ، حل لوك محل النبي حبقوق .

وهكذا كان بعث الموتى في تلك الثورات يؤدي مهمة تمجيد الصراعات الجديدة ، لا التقليد الساخر للصراعات القديمة ، مهمة تعظيم الواجب المعين في الخيال لا الهروب من ايجاد حل له في الحقيقة ، مهمة اكتشاف روح الثورة مرة اخرى ، لا جعل شبحها يحوم ثانية .

منذ سنة ١٨٤٨ ولغاية سنة ١٨٥١ كان يحوّم شبح الثـــورة القديمـــة فحسب ، ابتداء مـــن ماراست ، هذا républicain en gants jaunes* الذي تنكر في ثوب بايي القديم حتى المغامر الذى كان يخبى ملامحه التافهة المنفرة تحت القناع الحديدي لنابوليون الميت ان شعبا باكمله كان يتصور انه عن طريق الثورة ، قد سرّع تطوره يجد نفســه فجاة يرجع القهقرى الى عصر انقرض ولكي لا يكون ثمة مجال للشك في شان هذه الردة ، عادت الى الظهور التواريخ القديمة والتقاويم الزمنية القديمة والاسماء القديمة والمراسيم القديمة التي غدت منذ زمن طويل موضوعا لهواة الاشياء القديمة المحنكين ، وعاد كذلك الى الظهور رجال الدرك القدامى الذين بدا انهم اندثروا منذ امد طويل . وشعرت الامة بمثل ما يشعر به ذلك الانجليزي المجنون نزيل البدلام (٤٧) ، الذي يتوهم انه يعيش في زمن الفراعنة القدماء فيندب كل يوم العمل الشاق الذي ينبغي ان يؤديه في المناجم الاثيوبية ، كحفار يستخرج الذهب ، حبيس في هذا السجن الواقع تحت الارض مشدود على رأسه مصباح خافت الانارة ، وخلفه رقيب العبيد وفي يده سوط طويل ، وعند المخارج الجنود البرابرة الذين لا يفهمون عمال السخرة في

* الجمهوري ذو القفاز الاصفر . الناشر .

المناجم ولا يفهم احدهم الآخر لانهم جميعهم يتكلمون لغات مختلفة ويتنهد الانجليزي المجنون قائلا «ويترتب عليّ ان احمل كل هذا ، انا البريطاني الحر الاصل ، قصد استخراج الذهب للفراعنة القدماء» . والامة الفرنسية تتنهد قائلة : «قصد تسديد ديون اسرة بونابرت» . الانجليزي ، ما دام مالكا لقواه العقلية ، لا يستطيع التخلص من الفكرة الراسخة وهي استخراج الذهب والفرنسيون ، ما داموا منشغلين في ثورة ، لا يستطيعون التخلص من ذكرى نابوليون ، كما اثبت ذلك انتخاب العاشر من كانون الاول (ديسمبر) (٤٨) انهم يحنون للعودة من مخاطر الثورة الى حلل اللحوم المصرية (٤٩) . واليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ كان هو الجواب فلم يعد لديهم صورة كاريكاتورية عن نابوليون القديم فحسب ، بل صار لديهم ايضا نابوليون القديم نفسه بصورة كاريكاتورية ، كما لا بد له ان يبدو في منتصف القرن التاسع عشر

ان ثورة القرن التاسع عشر الاجتماعية لا يسعها ان تستمد اشعارها من الماضي بل من المستقبل فحسب . انها لا تستطيع ان تبدأ بتنفيذ مهمتها قبل ان تقضي على كل احترام خرافي للماضي . لقد كانت الثورات السابقة في حاجة الى استعادة ذكريات ما مضى من حوادث تاريخ العالم لكي تخدع نفسها بشأن محتواها هي بالذات . اما ثورة القرن التاسع عشر فيترتب عليها لكي تستوضح لنفسها محتواها الخاص ان تدع الموتى يدفنون موتاهم هناك كانت الجملة تتعدّى المحتوى وهنا المحتوى يتعدى الجملة

ان ثورة شباط (فبراير) كانت هجوما مفاجئا ، كانت اخذا مباغتا للمجتمع القديم . وقد اشاد الشعب بهذه الضربة غير المتوقعة باعتبارها عملا ذا اهمية تاريخية عالمية يؤذن بحقبة جديدة .

وفي اليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) تختفي ثورة شباط (فبراير) بين يدي نصاب ماكر ويبدو في النتيجة ان ما اطيح به ليس هو الملكية بل التنازلات الليبيرالية التي انتزعتها منها قرون من الكفاح . وبدلا من ان يظفر المجتمع نفسه لنفسه بمحتوى جديد ، بدا ان الدولة قد عادت الى اقدم اشكالها فحسب – الى السيطرة البدائيـــة القديمة الحياء – سيطرة السيف والقلنسـوة الكهنوتيـــة . والجواب على coup de main* شباط (فبراير) ١٨٤٨ اعطاه coup de tête ** كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، وما تاتي به الزوابع تأخذه الرياح . ولكن هذه الفترة من الزمن لم تضع سدى . فمن سنة ١٨٤٨ لغاية سنة ١٨٥١ هضم المجتمع الفرنسي – وتم هذا بطريقة مختصرة لانها ثورية – العبر والتجارب التي كان ينبغي لها في تطور يسير بصورة صحيحة ، او ، اذا جاز القول ، بصورة منهاجية ، ان تسبق ثورة شباط (فبراير) لو كانت هذه الثورة اكثر من مجرد هزة على السطح . ان المجتمع يبدو الآن وكانه ارتد الى ما وراء نقطة انطلاقه . اما في الواقع فلا يترتب له سوى ان يوجد لنفسه نقطة الانطلاق لثورته والوضع والعلاقات والظروف التي لا تصبح الثورة الحديثة بدونها ثورة جدية .

ان الثورات البرجوازية ، كتلك التي حدثت في القرن الثامن عشر ، تندفع كالعاصفة من نجاح الى نجاح ، وآثارها الدرامية تفوق بعضها بعضا ، ويبدو فيها الاشخاص والاشياء في اطار باهر وهاج ، ويكون كل يوم مشبعا بالحماسة والنشوة . بيد ان عمر هذه الثورات قصير ، فسرعان ما تدرك هذه الثورات نقطة الاوج

* ضربة جريئة ، عمل حاسم . الناشر .

** عمل طائش ، عمل وقح . الناشر .

وتخيم على المجتمع وخمة السكر الطويلة الممضة قبل ان يستطيع ان يهضم بتعقل واتزان نتائج فترة الضغط والاندفاع العاصف تلك . اما الثورات البروليتارية كتلك التي تحدث في القرن التاسع عشر ، فهي ، بالعكس ، تنتقد ذاتها على الدوام ، وتقاطع نفسها بصورة متواصلة اثناء سيرها ، وتعود ثانية الى ما بدا انها انجزته لتبدأ فيه من جديد ، وتسخر من نواقص محاولاتها الاولى ونقاط ضعفها وتفاهاتها باستقصاء لا رحمة فيه ، ويبدو انها تطرح عدوها ارضاً لا لشيء الا ليتمكن من ان يستمد قوة جديدة من الارض وينهض ثانية امامها وهو اشد عتواً ، وتنكص المرة تلو المرة امام ما تتصف به اهدافها من ضخامة غير واضحة المعالم ، وذلك الى ان ينشأ وضع جديد يجعل اي رجوع الى الوراء مستحيلا وتصرخ الحياة نفسها قائلة بصرامة

Hic Rhodus, hic salta !

هنا الوردة ، فلترقص هنا !(٥٠)

وعلى كل حال ، كان لا بد لكل مراقب بصير وان قليلا ، حتى ولو لم يتابع مجرى الاحداث في فرنسا خطوة فخطوة ، من ان يكون قد ساوره هاجس بانه كتب لهذه الثورة عار لا سابق له . وكان يكفي المرء ان يسمع نباح النصر الذي كان يردده باغتباط السادة الديموقراطيون وهم يتبادلون التهاني بالعواقب الخيرة التي ينتظرون ان يسفر عنها الاحد الثاني من شهر ايار (مايو) ١٨٥٢ (٥١) . لقد اصبح عندهم الاحد الثاني من شهر ايار (مايو) ١٨٥٢ فكرة راسخة ، اصبح عقيدة جامدة ، شانها شان اليوم الذي سيعود فيه المسيح الى الظهور ويبدأ فيه العصر الالفي السعيد عند الالفيين (٥٢) . وكما هي الحال دائما ،

التجأ العجز الى الاعتقاد بالمعجزات وتصور ان العدو غُلب على امره اذا تغلب عليه في الخيال عن طريق الابتهال وفقدان كل شعور بالواقع بسبب من التمجيد الباطل بالمستقبل الذي ينتظره وبالمآثر التي ينوي ان يقوم بها ولكنه لا يريد ان يخبر عنها بعد . اولئك الابطال الذين يسعون الى دحض الرأي القائل بعجزهم الواضح بتهادي عواطفهم المتبادلة وبالتجمهر في جماعة خاصة قد اوثقوا حقائبهم وجمعوا أكاليل الغار مقدماً ، وكانوا في ذلك الوقت بالضبط مستعدين لان يخصموا في سوق الاوراق المالية جمهورياتهم in partibus (٥٣) ، التي كانوا قد فرغوا مسبقا من تنصيب موظفيها الحكوميين خلسة وبكل القناعة الملازمة لهم . وانقض عليهم اليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) انقضاض الصاعقة من سماء صافية الاديم . فالشعوب التي تسمح بطيبة خاطر لاصحاب الاصوات العالية لن يغرقوا مخاوفها الداخلية في الفترات التي تنحط فيها المعنويات ، ربما اقتنعت هذه المرة بان الزمن الذي يستطيع فيه قوق الوز انقاذ الكابيتول (٥٤) قد ولى وانقضى .

ان الدستور والجمعية الوطنية واحزاب الاسرة المالكة والجمهوريين الزرق والحمر وابطال افريقيا (٥٥) والارعاد من فوق منصات الخطابة والابراق على صفحات الجرائد اليومية ، والادب بأسره والاسماء السياسية والسمعة الفكرية والقانون المدني وقانون الجزاء و liberté, égalité, fraternité* والاحد الثاني من ايار (مايو) ١٨٥٢ — كلها تلاشت كخيال الظل امام سحر رجل لم يكن اعداؤه انفسهم يعتبرونه ساحراً من السحرة وبدا ان حق الاقتراع الشامل لم يمكث لحظة اضافية الا لكي يتمكن

---

* حرية ومساواة واخاء . الناشر .

من ان يخط بيده امام اعين الدنيا قاطبة وصيته الاخيرة ويعلن باسم الشعب نفسه «ان كل ما ينبعث جدير بالزوال» *

ولا يكفي القول ، كما يفعل الفرنسيون ، بان امتهم قد أُخذت على حين غرة فان الامة والمرأة لا تغتفر لهما تلك اللحظة التي تفقدان فيها الحذر ويتمكن اول مغامر يمر بهما من ان ينتهكهما . ان جملا كهذه لا تستطيع حل اللغز بل تصوغها بشكل آخر فقط . وينبغي ان نفسر كيف يستطيع ثلاثة نصابين ان يأخذوا على حين غرة ويأسروا دون مقاومة امة يبلغ تعدادها ستة وثلاثين مليون نسمة .

لنراجع الآن بايجاز المراحل التي مرت بها الثورة الفرنسية من ٢٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٨ لغايـــة كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ .

هنالك فترات رئيسية ثلاث لا ريب فيهــا **فترة شباط (فبراير)** ؛ الفترة من ٤ ايار (مايو) ١٨٤٨ الى ٢٨ ايار (مايو) ١٨٤٩ وهي **فترة تأسيس الجمهورية** او فترة **الجمعية الوطنية التأسيسية** ؛ والفترة من ٢٨ ايار (مايو) ١٨٤٩ الى ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ وهي **فترة الجمهورية الدستورية** او **فترة الجمعية الوطنية التشريعية** .

الفترة الاولى ، من ٢٤ شباط (فبراير) ، اي من وقت الاطاحة بلويس فيليب الى الرابع من ايار (مايو) ١٨٤٨ ، اي الى انعقاد الجمعية التأسيسية — **فترة شباط** بمعناها الحقيقي — يمكن ان توصف بانها **مقدمة** الثورة وقد تجلى طابعها بصورة رسمية

---

* غوته «فاوست» . الفصل الاول ، المشهد الثالث («مكتب فاوست») . الناشر .

عندما اعلنت الحكومة نفسها التي ارتجلتها هذه الفترة انها حكومة موقتة . وكل ما جرى اتخاذه او محاولته او التصريح به في اثناء هذه الفترة كان ، شانه في ذلك شان الحكومة ، يعلن عن نفسه بانه موقت فحسب لم يكن اي شيء او اي انسان يجرؤ على الادعاء بحق البقاء الدائم وبالعمل الحقيقي . وجميع العناصر التي أعدت الثورة او حددتها – اي المعارضة الأسرية (٥٦) والبرجوازية الجمهورية والبرجوازية الصغيرة الديموقراطية الجمهورية والعمال الاشتراكيون الديموقراطيون – ، وجدت مكانها موقتا في حكومة شباط

وما كان بالامكان غير ذلك ان ايام شباط كانت تقصد بالاصل اجراء اصلاح انتخابي يتمخض عن توسيع دائرة المتمتعين بالامتيازات السياسية داخل الطبقة المتملكة ذاتها ويطيح بالسيطرة المطلقة لأريستقراطية المال . ولكن حين وصلت الامور الى النزاع الفعلي ، عندما احتل الشعب المتاريس واتخذ الحرس الوطني موقف الانتظار السلبي واحجم الجيش عن المقاومة الجدية وهرب الملك ، ظهر تاسيس الجمهورية كانه مسالة طبيعية . وكل حزب فسرها بطريقته الخاصة . اما البروليتاريا التي ظفرت بهذه الجمهورية والسلاح في ايديها ، فقد طبعتها بطابعها واعلنتها جمهورية اجتماعية . وهكذا رُسم المحتوى العام للثورة المعاصرة ، وهو محتوى يتناقض تناقضا عجيبا الى اقصى حد مع اي شيء يمكن تحقيقه دفعة واحدة ومباشرة استناداً الى ما كان متوفراً من مواد وما بلغته الجماهير من مستويات التطور ، وفي الظروف والعلاقات المعنية ومن الناحية الاخرى لُبّيت مطالب جميع العناصر الباقية التي اسهمت في نجاح ثورة شباط ، بحصة الاسد التي نالتها في الحكومة . ولذلك لا نجد في اي فترة اخرى خليطا



اكثر تنوعا من الكلام المنمق وانعدام الثقة الفعلي والعجز الفعلي ومن السعي الفائق الحماسة الى الجديد ومن السيطرة الراسخة الجذور للرتابة العتيقة ومن الانسجام الظاهري الغشاش للمجتمع باسره والتنافر العميق بين عناصره وبينما كانت بروليتاريا باريس ما تزال سادرة في الطرب بمنظر الآفاق العراض التي انفتحت امامها ومنغمسة عن جد في مناقشات حول القضايا الاجتماعية كانت قوى المجتمع القديمة تتكتل وتحتشد وتستفيق وتجد تاييداً لم يكن متوقعا من جمهرة الامة ، من الفلاحين والبرجوازيين الصغار الذين اقتحموا كلهم المسرح السياسي دفعة واحدة بعد سقوط الحواجز التي اقامتها ملكية تموز (يوليو) (٥٧)

الفترة الثانية ، من الرابع من ايار (مايو) ١٨٤٧ حتى نهاية ايار (مايو) ١٨٤٩ ، هي فترة **تشكيل ، تأسيس الجمهورية البرجوازية** . بعد ايام شباط (فبراير) مباشرة لم تفاجأ المعارضة الاسرية بالجمهوريين ولم يفاجأ الجمهوريون بالاشتراكيين فحسب بل فوجئت فرنسا كلها بباريس . ان الجمعية الوطنية التي انعقدت في الرابع من ايار (مايو) ١٨٤٨ والتي انتخبتها الامة كانت تمثل الامة كانت هذه الجمعية احتجاجا حيا على ادعاءات ايام شباط وكان من شأنها ان تهبط بنتائج الثورة الى مستوى المقاييس البرجوازية . وعبثاً حاولت بروليتاريا باريس ، التي ادركت على الفور طابع هذه الجمعية الوطنية ، في اليوم الخامس عشر من ايار (مايو) (٥٨) ، اي بعد بضعة ايام من انعقادها ، ان تنفي وجودها بالقوة وان تحلها وان تفتت ثانية هذا الشكل العضوي الذي هددت فيه البروليتاريا روح الامة التي ارتدت ضدها ، الى الاجزاء التي يتألف منها . ومعلوم ان اليوم الخامس عشر من ايار

(مايو) لم يكن له من نتيجة سوى اقصاء بلانكي ورفاقه في الفكر ، اي القادة الحقيقيين للحزب البروليتاري ، عن المسرح الاجتماعي طيلة كل الفترة التي نحن بصددها .

ان الملكية البرجوازية لعهد حكم لويس فيليب لا يمكن ان تليها الا جمهورية برجوازية ، وبعبارة اخرى ، بينما كانت فئة محدودة من البرجوازية تحكم متسترة باسم الملك ، فان البرجوازية كلها ستحكم من الآن وصاعداً متسترة باسم الشعب ان مطالب بروليتاريا باريس هي هراء خيالي ينبغي ان يوضع له حد . على هذا التصريح الصادر عن الجمعية الوطنية التاسيسية اجابت بروليتاريا باريس بتمرد حزيران (يونيو) ، وهو اضخم حادث في تاريخ الحروب الاهلية في لوروبا وانتصرت الجمهورية البرجوازية . فالى جانبها كانت تقف اريستقراطية المال والبرجوازية الصناعية والفئات الوسطى والبرجوازية الصغيرة والجيش وحثالة البروليتاريا * المنظمون في حرس متنقل (٥٩) والمثقفون ورجال الاكليروس وسكان الارياف . والى جانب بروليتاريا باريس لم يكن يقف احد سواها . وبعد النصر على هذه البروليتاريا ذبح ما ينوف على ثلاثة آلاف متمرد ونفي خمسة عشر الفا دون محاكمة . وبهذه الهزيمة تمضي البروليتاريا الى مؤخرة المسرح الثوري . انها تحاول من جديد ان تتقدم الى الامام كلما لاح فيها ان الحركة تنهض من جديد ، ولكن هذه المحاولات تضعف اكثر فاكثر وتسفر عن نتائج تتضاءل اكثر فاكثر . وحالما كان يعتري احدى الفئات الاجتماعية الكائنة فوقها جيشان ثوري ، كانت البروليتاريا تدخل في حلف معها وهكذا كان لها نصيب في جميع الهزائم المتوالية التي منيت

* حثالة البروليتاريا – lumpen-proletariat . المترجم .

بها الاحزاب المختلفة . بيد ان هذه الضربات التي تلت كانت تضعف بقدر ما كان سطح المجتمع الذي تتوزع فوقه يتسع ان ابرز قادة البروليتاريا في الجمعية وفي الصحافة تساقطوا على التعاقب ضحايا للمحاكم ، ويحل محلهم اشخاص يزداد امرهم اشتباهاً ان قسماً من البروليتاريـــا ينصرف الى تجارب نظرية غير عملية والى تأسيس المصارف التعاضدية وجمعيات العمال اي ، بكلمة اخرى ، الى حركة تتخلى فيها البروليتاريا عن فكرة احداث انقلاب في العالم القديم بمجموع الوسائل الجبارة المتوفرة في هذا العالم القديم بالذات ، بل تحاول تحقيق خلاصها من وراء ظهر المجتمع ، بسبيل خاص وضمن شروط وجودها المحدودة ، اي بسبيل يقود حتماً الى الافلاس ويبدو ان البروليتاريا لم تعد قادرة لا على استعادة عظمتها الثورية السابقة في ذاتها ولا على اكتساب طاقة جديدة من الارتباطات التي دخلت فيها حديثا ، طالما لم تسقط جميع الطبقات التي ناضلت ضدها في حزيران (يونيو) طريحة الى جوارها . بيد ان البروليتاريا سقطت على الاقل بشرف جدير بالكفاح التاريخي العالمي العظيم . فليست فرنسا وحدها بل اوروبا جميعها ارتجفت من زلزال حزيران ، بينما كانت الهزائم اللاحقة التي منيت بها الطبقات العليا تفدى بثمن بخس لدرجة انها كانت تقتضي مبالغات عديمة الحياء من جانب الحزب المنتصر لكي يكون في الامكان اعطاءها طابع الاحداث على العموم ، مع العلم ان هذه الهزائم كانت تزداد خزياً كلما ابتعد الحزب المهزوم عن الحزب البروليتاري

صحيح ان هزيمة متمردي حزيران (يوليو) قد هيـــأت ومهدت الارض التي يمكن عليها بناء صرح الجمهورية البرجوازية ، بيد انها اوضحت في الوقت نفسه ان المسألة في اوروبا لا تتعلق

بالخلاف حول موضوع «الجمهورية او الملكيـــة» بل بشيء آخر فقد بينت هذه الهزيمـــة ان الجمهورية البرجوازية تعني هنا الاستبداد غير المحدود الذي تمارسه طبقة ضد الطبقات الاخرى ، واثبتت ان الجمهورية ، في الاقطار ذات الحضارة القديمة والتقسيم الطبقي المتطور وحيث ظروف الانتاج عصرية وحيث الوعي الفكري ذابت فيه بفعل القرون جميع الافكار التقليدية ، لا تعني بصورة عامة الا الشكل السياسي لتحويـــل المجتمـــع البرجوازي تحويلا ثوريا وليس شكل الحياة الذي يصون وجوده ، كما هي الحال مثلا في الولايات المتحدة باميركا الشمالية حيث توجد الطبقات ولكنها لم تتحدد حتى الآن بل انها تتغير على الدوام وتتبادل عناصرها في حركة دائمة وحيث نجد وسائل الانتاج الحديثة غير متفقة مع وجود فيض مزمن من السكان وليس هذا وحسب بل تعوض بالعكس عـــن النقص النسبـــي في الرؤوس والايدي ، واخيراً حيث لم تترك حركة الانتاج المادي النشيطة ، الزاخرة بالحماسة والقوة ، التي عليها ان تملك عالماً جديداً ، لا وقتاً ولا فرصة للقضاء على عالم الاشباح القديم .

خلال ايام حزيران (يونيو) ، اتحدت كل الطبقـــات والاحزاب في حزب النظام ضد الطبقة البروليتارية بوصفها حزب الفوضى والاشتراكية والشيوعية . و«انقذت» المجتمع من «اعداء المجتمع» واختارت كلمة السر لجيشها شعار المجتمع القديم القائل «الملكية ، العائلة ، الدين ، النظام» وشجعت صليبيي الثورة المضادة قائلة : «بهذه العلامة سوف تغلبون !» (٦٠) ومنذ تلك اللحظة كان كل حزب من الاحزاب العديدة التي التفت حول هذه الراية ضد متمردي حزيران ، حالما يريد ان يثبت اقدامه في ميدان القتال الثوري لمصلحته الطبقيـــة الخاصـــة ،

يهزمونه تحت شعار «الملكية ، العائلة ، الدين ، النظام !» . كان انقاذ المجتمع يتم كلما كانت دائرة حاكميه تتقلص وكلما كانت مصلحة اضيق تتغلب على مصلحة اوسع . وكل مطلب كان ينطوي على ابسط اصلاح مالي برجوازي او على اية ليبرالية مهما كانت عادية او على اية اتجاهات جمهورية مهما كانت شكلية او على اشد انواع الديموقراطية ضحالة ، كان يعاقب عليه في نفس الوقت بوصفه محاولـــة «اعتداء على المجتمع» ويوصم بـ«الاشتراكية» . واخيراً طُرد كبار كهان «الدين والنظام» انفسهم ركلا من هياكلهم البيثية (٦١) وانتزعوا من اسرتهم في غيهب الليل ووضعوا في عربات السجن وزجوا في السجون او نفوا من البلاد ، ونسف معبدهم من الاساس حتى سوّي بالتراب وختم على افواههم وكسرت اقلامهم ومزقت شريعتهم شر ممزق – باسم الدين والملكية والعائلة والنظام. والمتعصبون للنظام من البرجوازيين قُتلوا بالرصاص وهم على شرفاتهم بايدي جماعات غوغائية من الجنود السكارى وانتهكت حرمـــات معابدهم البيتيـــة وقصفت منازلهم بالمدافع لمجرد اللهو – باسم الملكية والعائلة والديـــن والنظام . واخيراً شكلت حثالة المجتمع البرجوازي كتيبة النظام المقدسة ودخل البطل كرابولنسكي * الى قصر التويلري بوصفه «منقذ المجتمع» .

٢

دعونا نلتقط خيوط الحديث مرة اخرى

ان تاريخ الجمعية الوطنية التأسيسية منذ ايام حزيران (يونيو) هو تاريخ سيطرة الكتلة الجمهورية من البرجوازيـــة

* لويس بونابرت . الناشر .

وانحلالها ، تلك الكتلة التي تعرف بالاسماء التالية : الجمهوريون المثلثو الالوان ، الجمهوريون الصرف ، الجمهوريون السياسيون ، الجمهوريون الشكليون ، الخ ..

كانت هذه الكتلة في عهد ملكية لويس فيليب البرجوازية تشكل المعارضة الجمهورية الرسمية وكانت بالتالي عنصراً معترفاً به من العناصر التي تتألف منها عالم السياسة آنذاك . كان لها ممثلوها في المجالس التمثيلية وكان لها نفوذ واسع في الصحافة . وكانت صحيفة "National" (٦٢) التي تنطق بلسانها في باريس تعتبر ، بين الصحف من نوعها ، في نفس مستوى الاحترام كصحيفة "Journal des Débats" (٦٣) .. وكان طابعها يتفق مع هذا المركز الذي احتلته في ظل الملكية الدستورية انها لم تكن كتلة من البرجوازية تربطها مصالح مشتركة كبرى وتتميز بظروف انتاج معينة ، بل زمرة من البرجوازيين ذوي الاتجاهات الجمهورية ، ومن الكتاب والمحامين والضباط والموظفين ، تدين بنفوذها الى النفور الذي تكنه البلاد لشخص لويس فيليب والى ذكريات الجمهورية الاولى والى الايمان بالجمهورية لدى حفنة من الخياليين ولكن في الدرجة الاولى الى القومية الفرنسية التي عمدت هذه الكتلة بصفة دائمة الى اثارة كراهيتها لمعاهدات فيينا (٦٤) وللتحالف مع انجلترا . ان جزءاً كبيراً من اتباع "National" في عهد لويس فيليب يعود سبب انضوائهم لها الى هذه الامبريالية المستترة ، التي استطاعت لهذا السبب بالذات ان تواجه "National" نفسها فيما بعد ، في عهد الجمهورية ، كمنافس مظفر في شخص لويس بونابرت . لقد حاربت "National" اريستقراطية المال كما فعلت ذلك سائر المعارضة البرجوازية وقد كانت الحملات ضد الميزانية ، التي كانت في فرنسا تتجاوب كلياً مع الكفاح ضد

اريستقراطية المال ، تكتسب شعبية في غاية الرخص وتقدم المواد المطلوبة ا leading articles* البوريتالية في وفرة بالغة ، بحيث كان يتعذر عدم استغلالها . وقد كانت البرجوازية الصناعية ممتنة ل "National" لدفاعها الدليل عن نظام الحماية الجمركية الفرنسي ، وهو الدفاع الذي قامت به على كل حال لاعتبارات قومية اكثر مما لاعتبارات اقتصادية وسياسية ، وكانت البرجوازية ككل ممتنة لها ايضا بسبب تشهيرها الشرير بالشيوعية والاشتراكية . وعلى كل حال ، كان حزب "National" حزبا **جمهوريا صرفا** ، اي انه كان يطالب بالشكل الجمهوري للحكم البرجوازي بدلا من الشكل الملكي ويطالب قبل كل شيء بحصة الاسد من هذا الحكم . اما فيما يتعلق بشروط هذا التغير السياسي ، فهذا ما لم يكن واضحا في ذهن هذا الحزب بصورة من الصور . ومن الناحية الاخرى كان واضحا وضوح الشمس بالنسبة له ، وكان معترفا به علنا في الولائم من اجل دعم الاصلاح في اواخر ايام حكم لويس فيليب ، انه غير شعبي عند البرجوازية الديموقراطية الصغيرة ، وبصورة اخص ، عند البروليتاريا الثورية هؤلاء الجمهوريون الصرف ، كما يليق للجمهوريين الصرف ، كانوا بالفعل مستعدين تماما للاكتفاء في بادئ الامر بوصاية دوقة اورليان عندما اندلعت ثورة شباط (فبراير) وافردت لابرز ممثليهم اماكن في الحكومة المؤقتة . وبديهي انهم منذ البداية حازوا على ثقة البرجوازية وعلى الاكثرية في الجمعية الوطنية التاسيسية واقصيت العناصر الاشتراكية في الحكومة المؤقتة على الفور عن اللجنة التنفيذية التي شكلتها الجمعية الوطنية بعد انعقادها ، واستغل حزب

---

* المقالات الافتتاحية . الناشر .

"National„ فرصة تمرد حزيران (يوليو) لصرف اللجنة التنفيذية ايضا وللتخلص بذلك من الرب منافسيه ، الجمهوريين البرجوازيين الصغار او الجمهوريين الديموقراطيين (ليدرو-رولان وغيره) . وحل كافينياك ، جنرال الحزب الجمهوري البرجوازي الذي قاد مذبحة حزيران (يونيو) ، محل اللجنة التنفيذية وخول نوعاً من السلطة الديكتاتورية واصبح ماراست ، رئيس التحرير السابق ﻟ "National„ ، الرئيس الدائم للجمعية الوطنية التاسيسية ، بينما كانت مناصب الوزراء ، وكذلك جميع المناصب الهامة الاخرى ، من نصيب الجمهوريين الصرف .

وهكذا تجاوز الواقع اجرأ آمال كتلة الجمهوريين البرجوازيين التي كانت تعتبر نفسها منذ زمن بعيد الوريث الشرعي لملكية تموز (يوليو) الا ان هذه الكتلة قد حصلت على السلطة ، لا عن طريق فتنة ليبيرالية تقوم بها البرجوازية ضد العرش ، كما كانت تحلم زمن لويس فيليب ، بل عن طريق انتفاضة للبروليتاريا ضد رأس المال ، انتفاضة أخمدت بقنابل المدافع ان ما صورته لنفسها بانه اكثر الاحداث ثورية اتضح انه في الحقيقة اكثرها تعاكسا مع الثورة . لقد سقطت الثمرة في حضنها ، لكنها سقطت من شجرة المعرفة لا من شجرة الحياة

ان حكم الجمهوريين البرجوازيين الصرف لم يدم الا من الرابع والعشرين من حزيران (يوليو) حتى العاشر من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨ وكان حاصله وضع دستور جمهوري واعلان حالة الحصار في باريس .

والدستور الجديد لم يكن من حيث الجوهر سوى طبعة مصبوغة بالصبغة الجمهورية للميثاق الدستوري لسنة ١٨٣٠ (٦٥) . ان النصاب الانتخابي العالي لمَلَكية تموز (يوليو) ،

الذي حرم من الحكم السياسي حتى جزءاً كبيراً من البرجوازية ، لم يكن يتفق مع وجود الجمهورية البرجوازية . وقد اعلنت ثورة شباط (فبراير) فوراً حق الاقتراع الشامل المباشر بدلا من هذا النصاب . ولم يكن في وسع الجمهوريين البرجوازيين ان يبطلوا هذا الامر . واضطروا الى الاكتفاء باضافة شرط تحفظي يقضي باقامة الناخب في الدائرة الانتخابية لمدة ستة اشهر . اما التنظيم القديم للادارة وللجهاز البلدي والجهاز القضائي والجيش ، الخ .، فقد بقي كما هو دون ان يُنْتَهَك ، او أنّ التغيير ، حيثما كان الدستور يتناول هذه الاشياء بالتغيير ، كان يتعلق بقائمة المحتويات لا بالمحتويات ، بالاسم لا بالموضوع

ان الحريات الاساسية التي كانت اركانا ملازمة لعام ١٨٤٨، اي الحرية الشخصية وحرية الصحافة والكلام وتنظيم الجمعيات وعقد الاجتماعات والتعليم والدين ، الخ .، ارتدت رداء دستورياً جعلها غير قابلة للطعن ذلك ان كل واحدة من هذه الحريات اعلنت حقا **مطلقا** للمواطن الفرنسي ولكن ذلك كان يقترن دائما بملاحظة على الهامش تنص على انها تكون غير محدودة الى المدى الذي لا تحددها فيه **«حقوق الآخرين المتساوية والامن العام»** او «التشريعات» التي كان يقصد منها بالضبط التدخل لايجاد هذا الانسجام للحريات الفردية سواء فيما بينها او بينها وبين الامن العام مثال ذلك «وللمواطنين حق الانتظام في الجمعيات وعقد الاجتماعات السلمية وغير المسلحة والالتماس وابداء الراي سواء في الصحافة او باية صورة اخرى . **ان التمتع بهذه الحقوق لا يحده غير حقوق الآخرين المتساوية والامن العام**» . (الفصل الثاني من الدستور الفرنسي ، المادة الثامنة .) — «والتعليم حر حرية التعليم يتم التمتع بها بمقتضى الشروط التي يحددها القانون

وتحت الرقابة العليا من الدولة» (نفس الفصل ، المـــادة التاسعة .) – ولبيت كل مواطن حرمة لا يمكن انتهاك هذه الحرمة الا بالتقيد بالشكليات التي يعينها القانون» (الفصل الثاني ، المادة الثالثة .) الخ .، الخ .. ولهذا فان الدستور يشير دائماً الى القوانين العضوية المقبلة التي سوف تفسر تلك الملاحظات الهامشية تفسيراً مفصلا وتنظم التمتع بهذه الحريات غير المحدودة بحيث تحول دون تصادمها سواء بعضها مع بعض او مع الامن العام . وفيما بعد اخرجت هذه القوانين الى الوجود من قبل اصدقاء النظام ، ونظمت جميع تلك الحريات بصورة لم تجد البرجوازية معها في تمتعها بها اي عائق في الحقوق المتساوية للطبقـــات الاخرى . وحيثما حرمت هذه الحريات تماما على «الآخرين» او سمح بالتمتع بها بشروط كان كل منها احبولة بوليسية ، كان هذا يحدث دائمـــا في مصلحة «الأمن العام» فحسب ، اي امن البرجوازية كما يرسم الدستور . ولهذا كان الطرفان كلاهما يشيران فيما بعد ، ومعهما كل الحق ، الى الدستور سواء أكانوا اصدقاء النظام الذين الغوا جميع هذه الحريات ، أم الديموقراطيين الذين طالبوا باعادة جميع هذه الحريات . وذلك لان كل فقرة في الدستور كانت تحتوي على نقيضها ، على مجلسها الاعلى ومجلسها الادنى ، اي على الحرية كلفظة عامة وعلى الغاء الحرية في الملاحظة الهامشية . وهكذا ، مـــا دام اسم الحرية يحظى بالاحترام ولا يمنع سوى تحقيقهـــا العملي – وطبعـــا ، على اساس قانوني – فان الوجود الدستوري للحرية بقي قائماً لم يمس ولم ينتهك مهما تكن الضربات التي سددت الى وجودها في واقع الحياة قاتلة

ان هذا الدستور الذي اكتسب حصانة بهذه الطريقة البارعة الماكرة كان مع ذلك ، شانه شان آخيل ، قابلا للطعن في نقطة

واحدة ، ليس في الكعب بل في الرأس ، او بالاحرى في الرأسين اللذين كان يتتوج بهما : **الجمعية التشريعية** من جهة ، **والرئيس** من جهة اخرى . ان نظرة عاجلة الى الدستور تريك ان المواد التي تحدد علاقة الرئيس بالجمعية التشريعية هي وحدها المواد المطلقة والايجابية وغير المتناقضة وغير القابلة للتحريف لان القضية هنا كانت تتصل بتامين الجمهوريين البرجوازيين مواقع متينة لانفسهم ان المواد ٤٥ ــ ٧٠ من الدستور قد صيغت بحيث ان الجمعية الوطنية تستطيع تنحية الرئيس دستورياً في حين ان الرئيس لا يستطيع تنحية الجمعية الوطنية الا خلافاً للدستور اي الا بالغاء الدستور نفسه . وهنا ، بالتالي ، يدعو الدستور بنفسه الى تصفيته بالعنف ، وهو لا يكتفي بتثبيت تقسيم السلطات ، كميثاق ١٨٣٠ ، بل يضخم ذلك بحيث يغدو التقسيم تناقضا لا يطاق ان **لعبة القوى الدستورية** ، ــ كما سمى غيزو المشاحنة البرلمانية بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ــ كانت تلعب دائماً في دستور ١٨٤٨ بحيث يغامر كل طرف فيها بكل ما لديه . هنالك من ناحية سبعمائة وخمسون ممثلا عن الشعب انتخبوا بموجب حق الاقتراع الشامل ، ويتمتعون بحق انتخابهم مجدداً انهم يؤلفون جمعية وطنية لا يمكن مراقبتها ولا حلها ولا تجزئتها ، جمعية وطنية تتمتع بالسلطة الكلية في شؤون التشريع وتبت بصورة نهائية في شأن الحرب والسلام والمعاهدات التجارية وتملك وحدها حق العفو العام وتحتل ، بفضل ديمومة اجتماعاتها ، مقدمة المسرح على الدوام . ومن ناحية اخرى هنالك الرئيس ، وله كل ما للسلطة الملكية من صفات ، له صلاحية تعيين وزرائه وعزلهم بصورة مستقلة عن الجمعية الوطنية وفي يديه كل وسائل السلطة التنفيذية ، يغدق جميع المناصب ،

ويتصرف في فرنسا بالتالي في ارزاق مليون ونصف مليون شخص على الاقل ، لأن هذا هو بالضبط عدد الذين يتعلقون ماديـا بالخمسمائة الف موظف وبالضباط من مختلف الرتب . وتخضع له القوات المسلحة بكاملها . وهو يتمتع بامتياز العفو عن المجرمين بمفردهم وحل وحدات الحرس الوطني وكذلك حل المجالس العامة ومجالس الكانتونـات (الاقضية) والبلديات – بموافقة مجلس الدولة – التي ينتخبهـا المواطنون انفسهـم وهو يتمتع بحق المبادرة الى عقد جميع المعاهدات مع الاقطار الاجنبية وبالدور القيادي في عقدها . وبينما تحتل الجمعية دائماً مقدمة المسرح وتتعرض لنقد الجمهور كل يوم ، يحيا الرئيس حياة منعزلة في الايليزيه (٦٦) ، وهذا مع وجود المادة الخامسة والاربعين من الدستور امام عينيه وفي قلبه تصرخ له كل يوم : "frère, il faut mourir !"* . ان سلطتك تنتهي يوم الاحد الثاني من شهر ايار (مايو) الجميل في السنة الرابعة بعد انتخابك ! وعندئذ ينتهي جلالك ان هذه التمثلية لا تُعرض مرتين ، واذا كان عليك ديون فدبر امر سدادها في الوقت المناسب بالستمائة الف فرنك من الراتب الذي يمنحك اياه الدستور ، هذا اذا كنت لا تفضل الذهاب الى كليشي (٦٧) يوم الاثنين الثاني من شهر ايار (مايو) الجميل ! – وهكذا ، بينما يعطي الدستور الرئيس سلطة فعلية ، فهو يسعى لتامين قوة ادبيّة للجمعية الوطنية ولكن ، فضلا عن استحالة خلق قوة ادبية بفقرات القانون ، يدحض الدستور نفسه هنا مرة اخرى بجعل الرئيس ينتخب بالاقتراع المباشر من

---

* «ايها الاخ ، استعد للموت !» – تحية يتبادلها اعضاء الرهبنة الكاثوليكية المسماة برهبنة الترابيين عندما يتقابلون . الناشر .

قبل جميع ابناء الشعب الفرنسي . واذ نجد الاصوات الانتخابية في فرنسا كلها موزعة بين السبعمائة والخمسين عضواً في الجمعية الوطنية ، فهي هنا ، على النقيض ، مركزة على شخص واحد واذ نجد ان كل نائب من النواب لا يمثل على انفراد الا هذا الحزب او ذاك ، او هذه المدينة او تلك ، او هذه النقطة الآهلة او تلك ، او انه لا يمثل الا مجرد ضرورة انتخاب نائب من أصل السبعمائة والخمسين دون التدقيق في الشخص ولا في القضية التي يمثلها — نجد الرئيس منتخب الامة ونجد عملية انتخابه الورقة الرابحة التي يلعبها الشعب ذو السيادة مرة كل اربع سنوات ان الجمعية الوطنية المنتخبة تربطها بالامة علاقة ميتافيزية في حين ان علاقة الرئيس المنتخب معها شخصية . صحيح ان الجمعية الوطنية تعكس ، بممثليها المنفردين ، الجوانب المتعددة للروح القومية ولكن هذه الروح القومية تجد في الرئيس تجسيداً لها . وهو يملك ، بالمقارنة مع الجمعية الوطنية ، نوعاً من الحق الالهي انه حاكم بنعمة الشعب .

ان فيتيدا ، الهة البحر ، تنبأت لاخيل بانه سيموت في ريعان الشباب . والدستور الذي كان له ، مثل اخيل ، نقطة ضعفه ، كان يساوره ، مثل اخيل ايضاً ، هاجس بان المنية لا بد ان تعاجله . لم تكن هناك حاجة لفيتيدا الى ترك البحر قصد افشاء هذا السر لمؤسسي الجمهورية اي للجمهوريين الصرف اذ كان حسبهم ان يلقوا نظرة من السماء العالية لجمهوريتهم المثالية على العالم الدنس ليروا كيف ان عجرفة الملكيين والبونابرتيين والديموقراطيين والشيوعيين ، وكذلك ضياع اعتبارهم هم الجمهوريين ، كانا يزدادان يوميا بقدر ما كانوا يقاربون اتمام عملهم التشريعي الفني العظيم . لقد ارادوا ان يخدعوا القدر بخدعة في الدستور ، عن طريق المادة

الا ١١١ منه ، التي يتحتم بمقتضاها ان يظفر كل اقتراح لاعادة النظر في الدستور بتاييد ثلاثة ارباع الاصوات على الاقل يدلى بها في ثلاث مناقشات متوالية يفصل فيما بينها شهر كامل ، هذا مع العلم انه ينبغي اشتراك ما لا يقل عن خمسمائة عضو من اعضاء الجمعية الوطنية في عملية التصويت ولكن ذلك لم يكن سوى محاولة عاجزة ترمي الى تأمين قوة لانفسهم حينما يصبحون اقلية برلمانية ، وهذا ما كانوا يستشفونه بصورة نبوية ، تأمين تلك القوة التي اخذت تفلت يوميا وباطراد من ايديهم الواهية ، حتى في هذه اللحظة وهم يسيطرون على الاكثرية البرلمانية وعلى جميع وسائل السلطة الحكومية .

واخيرا أوكل الدستور امره ، في احدى فقراته الخاصة ، المضحكة المبكية ، الى «يقظة ووطنية الشعب الفرنسي بمجموعه وكل فرنسي بمفرده» ، وذلك بعد ان كان سابقا وفي مادة اخرى قد اوكل امر الفرنسيين «اليقظين» و«الوطنيين» الى العناية الناعمة الجزائية للمحكمة العليا –„haute cour“– التي ابتدعها عمداً لهذا الغرض .

هكذا كان دستور سنة ١٨٤٨ ، الدستور الذي لم يطح به في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ راس انسان بل هوى بلمسة من قبعته لا غير . الا ان هذه القبعة كانت ، من الصحيح ، قبعة نابوليونية ذات ثلاث زوايا .

بينما كان الجمهوريون البرجوازيون في الجمعية منهمكين في اختراع هذا الدستور ومناقشته والاقتراع عليه ، كان كافينياك يحتفظ خارج الجمعية بحالة الحصار في باريس . ان حالة الحصار في باريس كانت القابلة التي تساعد الجمعية التاسيسية في مخاض الجمهورية . واذا كان الدستور قد محي فيما بعد من الوجود

بالحراب فينبغي الا ننسى ان الحراب ايضا – الموجهة ضد الشعب – قد حمت هذا الدستور وهو في رحم امه وان الحراب ساعدته على رؤية النور ان اجداد «الجمهوريين الموقرين» قد مروا باوروبا كلها حاملين رمز الدستور ، اي العلم المثلث الالوان (٦٨) . ولكن «الجمهوريين الموقرين» بدورهم قد اخترعوا اختراعـــا وجـــد بنفسه طريقه في جميع انحاء القارة ولكنه كان يعود الى فرنسا يحدوه حب لا يخمد ابداً بحيث اكتسب هذا الاختراع الجنسية الآن في نصف محافظاتها ان هذا الاختراع هو **حالة الحصار** وانه لاختراع مدهش يستخدم بصورة دورية في كل من الازمات التي تتعاقب الواحدة تلو الاخرى في مجرى الثورة الفرنسيـــة ولكن الثكنة والمعسكر اللذين كانا ينيخان على هذا النحو بصورة دورية على المجتمع الفرنسي لكي يقمعا وعيه ويسكتاه ؛ والسيف والبندقية اللذين كان يسمح لهما بصورة دورية بان يؤديا دور القضاة والمديرين والاوصياء والمراقبين وان يقوما بعمل الشرطي وبوظيفة الحارس الليلي ؛ والشارب والبزة العسكرية اللذين كان ينادى بهما بصورة دورية كاسمى حكمة في المجتمع وكمرشد له – الم يكن محتما لهذه الثكنة والمعسكر والسيف والبندقية والشارب والبزة العسكرية ان تخطر لها بالاحرى فكرة انقاذ المجتمع مرة واحدة والى الابد باعلان حكمها هي اعلى الاحكام وتحرير المجتمع البرجوازي بصورة تامة من مشقة الادارة الذاتية! بل ان الثكنـــة والمعسكر والسيف والبندقية والشـــارب والبزة العسكرية كان محتوما ان تخطر لها هذه الفكرة خصوصا وانه كان بمستطاعها في هذه الحال ان تنتظر اجوراً نقدية اسخى على خدماتها الاسنى في حين انها لم تكن تتبلغ من مجرد حالة الحصار الدورية ومن عمليات انقاذ المجتمع العابرة تقوم بها بناء على

امر هذه الكتلة البرجوازية او تلك ، إلا ببلـغ ضئيلة ، فيما عدا بعض القتلى والجرحى وبعض التجهـم الودي يلوح على وجوه البرجوازيين . ولماذا لا يحاول العسكريون اخيراً ان يلعبوا لعبة حالة الحصار لمصلحتهم الخاصة ولمنفعتهم الخاصة وان يحاصروا في الوقت ذاته جيوب البرجوازيين ؟ وفضلا عن هذا لا يجوز ان ننسى ، على سبيل الملاحظة العابرة ، ان العقيد برنار ، رئيس المجالس العسكرية نفسه الذي أبعد في عهد كافينياك خمسة عشر الفا من المتمردين دون محاكمة ، هو في هذه اللحظة وللمرة الثانية على رأس المجالس العسكرية العاملة في باريس

واذا كان الجمهوريون الصرف ، «والموقرون» ، باعلانهم حالة الحصار في باريس ، قد غرسوا المستنبت الذي نما فيه فيما بعد بريتوريو الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ (٦٩) ، فلا بدّ من الاعتراف ايضا بانهم يقومون بمأثرة من نوع آخر : فبدلا من تسعير المشاعر القومية ، كما فعلوا ذلك في عهد لويس فيليب ، عمدوا الآن ، وهم يقبضون على كامل قوة الامة ، الى الحبو امام الاقطار الاجنبية ، وبدلا من ان يحرروا ايطاليا تركوها للنمساويين والنابوليين (٧٠) يستعبدونها من جديد . ان انتخاب لويس بونابرت رئيسا للجمهورية في اليوم العاشر من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨ قد وضع حداً لديكتاتورية كافينياك وللجمعية التاسيسية

تقول المادة الرابعة والاربعون من الدستور «لا يجوز ان يكون رئيس الجمهورية الفرنسية شخص فقد يوماً ما صفته كمواطن فرنسي» ان الرئيس الاول للجمهورية الفرنسية لويس نابوليون بونابرت لم يكن قد فقد صفته كمواطن فرنسي فحسب ،

ولم يكن شرطيا خاصا من الشرطة الانجليزية فحسب بل كان متجنسا بالجنسية السويسرية ايضا (٧١)

لق حت مفصلا في غير هذا المكان مغـــزى انتخـــاب العاشر من كانون الاول (ديسمبر) * ولن اعود اليه هنا ويكفي ان اشير هنا الى انه كان **رد فعل من الفلاحين** ، الذين ترتب عليهم ان يدفعوا نفقات ثورة شباط (فبراير) ، ضد الطبقات الباقية من الامة ــ **رد فعل من الريف ضد المدينة** . وقد صادف عطفـــا كبيراً في الجيش الذي لم يقدم له جمهوريو "National„ لا مجداً ولا زيادة في الرواتب ، ولدى البرجوازية الكبيرة التي حيت بونابرت باعتباره جسراً الى الملكية ولدى البروليتاريـــا والبرجوازيين الصغار الذين حيوه باعتباره سوط عقاب لكافينياك . ولسوف تتاح لي فيما بعد فرصة الخوض بصورة اكثر تدقيقا في موقف الفلاحين من الثورة الفرنسية .

ان الفترة من العشرين من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨ لغاية حل الجمعية التاسيسية في شهر ايار (مايو) ١٨٤٩ تشتمل على تاريخ سقوط الجمهوريين البرجوازيين فبعد ان أسس هؤلاء جمهورية للبرجوازية وطردوا البروليتاريـــا الثورية من الميدان واسكتوا البرجوازية الصغيرة الديموقراطية لفترة من الزمن ، طُرحوا هم انفسهم جانباً من قبل جمهرة البرجوازية التي استولت على هذه الجمهورية عن حق باعتبارها **ملكا لها** . بيد ان هذه الجمهرة البرجوازية كانت **ملكية** . كان قسم منها ، وهو كبار مالكي الارض ، يحكم زمن **العودة** فكان بناء على ذلك **شرعيا** والقسم الآخر ،

---

* راجع ك ماركس «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» . الناشر .

وهو اقطاب المال ورجال الصناعة الكبار ، كان يحكم اثناء ملكية تموز (يوليو) وكان بالتالي اورليانيا (٧٢) اما اصحاب المقامات العليا في الجيش وفي الجامعة والكنيسة ونقابة المحامين والاكاديمية والصحافة ، فكنا نجدهم موزعين بين كلا الجانبين وان بنسب مختلفة . وهنا ، في الجمهورية البرجوازية ، التي لم تكن تحمل لا اسم بوربون ولا اسم اورليان بل اسم رأس المال ، وجد هذان القسمان من البرجوازية شكل الدولة الذي استطاعا ان يسيطرا فيه سويا . ان تمرد حزيران (يونيو) كان قد وحدهما في «حزب النظام» (٧٣) واليوم آن الاوان لاقصاء زمرة الجمهوريين البرجوازيين الذين كانوا ما يزالون يحتلون مواقعهم في الجمعية الوطنية . وبقدر ما كان هؤلاء الجمهوريون الصرف متوحشين في سوء استخدامهم للقوة البدنية ضد الشعب ، بقدر ما كانوا جبناء ومتهافتين وخائرين ومتخاذلين وعاجزين عن القتال في تقهقرهم ، عندما كان الامر يتطلب الذود عن نزعتهم الجمهورية وحقوقهم التشريعية ضد السلطة التنفيذية وضد الملكيين . ولست في حاجة لان اروي هنا تاريخ انحلالهم المعيب انهم لم يهلكوا بل انهم زالوا من الوجود لقد ادوا دورهم الى الابد . وسواء في داخل الجمعية او في خارجها كانوا يظهرون في الفترة التالية كاشباح الماضي فحسب ، اشباح كان يبدو انها تنبعث ثانية كلما كان الامر يتناول مجرد اسم الجمهورية مرة اخرى ، وكلما كان النزاع الثوري يهدد بالهبوط الى المستوى الادنى . واشير هنا بصورة عابرة الى ان صحيفة "National" التي اعطت اسمها لهذا الحزب ، انحازت الى الاشتراكية في الفترة التالية .

وقبل ان نفرغ من هذه الفترة لا بد لنا ان نلقي نظرة الى الوراء على القوتين اللتين ابادت احداهما الاخرى في ٢ كانون الاول

(ديسمبر) سنة ١٨٥١ ، بينما كانتا تعيشان متزاوجتين من ٢٠ كانـــون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ حتى تواري الجمعيـــة التاسيسية ونحن نعني بهما لويس بونابرت من جهة وحزب الملكيين المؤتلفين ، حزب النظام ، حزب البرجوازية الكبيرة ، من جهة اخرى . ان بونابرت قام ، فور توليه رئاسة الجمهورية ، بتشكيل وزارة من حزب النظام وضع على رأسها اوديلون بارو الزعيم القديـــم ،ـ ولنلاحظ هذا ،ـ للكتلة الاكثر ليبيرالية من البرجوازية البرلمانية . لقد امسك المسيو بارو اخيراً بحقيبة وزارية كان شبحها يملأ عليه خياله منذ عام ١٨٣٠ ، فضلا عن انها حقيبة رئيس الوزراء بيد انه توصل الى هذا على غير ما كان يحلم به في عهد لويس فيليب ، لا بصفته الزعيم الاكثر تقدما للمعارضة البرلمانية بل كحليف لجميع خصومه الالداء ، اليسوعيين والشرعيين فضلا عن ان مهمته هي اعدام البرلمان لقد جلـب اخيراً العروس الى الكنيسة ولكن بعد ان تم انتهاك بكارتها . وبدا كأنّ بونابرت قد طمس نفسه تماماً فان حزب النظام كان يقوم بالعمل نيابة عنه .

وفي الاجتماع الاول بالذات لمجلس الوزراء تقرر توجيه الحملة العسكرية على روما وتم الاتفاق على ان يجري القيام بهذه الحملة من وراء ظهر الجمعية الوطنية وعلى ان تنتزع الاموال اللازمة لهـا من الجمعية الوطنية بذريعة كـاذبة . وهكذا بدأت الوزارة نشاطهـا بغش الجمعية الوطنية وبالتـآمر سراً مع الدول المستبدة في الخارج ضد الجمهورية الرومانية الثورية . وبالطريقة ذاتها وبالمناورات ذاتها اعد بونابرت انقلابه في الثاني من كانون الاول (ديسمبر)ضد الجمعية التشريعية الملكية وجمهوريتهـا الدستورية . وينبغي الا ننسى ان الحزب نفسه الذي شكل وزارة

بونابرت في العشرين من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨ كان يشكل الاكثرية في الجمعية الوطنية التشريعية في ٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ .

وفي شهر آب (اغسطس) قررت الجمعية التاسيسية الا تحل نفسها الا بعد الفراغ من وضع واصدار سلسلة كاملة من القوانين العضوية لاستكمال الدستور . وفي السادس من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩ ، جعل حزب النظام نائبا يدعى راتو يقترح أن تدع الجمعية هذه القوانين العضوية وشانها وان تتخذ بالاحرى قراراً بشأن حلها من تلقاء ذاتها . وليست الوزارة وحدهـا ، وعلى رأسهـا المسيو اوديلون بارو ، بله جميع النواب الملكيين في الجمعية الوطنية كانوا يرددون لها بلهجة الوعيد حينئذ بان حلها كان ضرورياً لاعادة الثقة وتوطيد دعائم النظام ولوضع حد للوضع الموقت غير المحدد ولايجاد حالة من الاستقرار النهائي ، كما كانوا يرددون ان الجمعية تعرقل قيام الحكومة الجديدة بالنشاط المثمر وانها لا تريد اطـالة بقائها الا بدافع العناد الشرير فحسب وان البلاد قد تعبت منها . واخذ بونابرت علماً بكل هذه الحملات على السلطة التشريعية وحفظهـا عن ظهر قلب واثبت للملكيين البرلمـانيين في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ ، انه قد تعلم منهم بعض الشيء . فقد وجه شعاراتهم نفسها ضدهم .

ولم تقف وزارة بارو وحزب النظام عند هذا الحد . فقد استكتبوا عرائض الى الجمعية الوطنية في جميع انحاء فرنســا تطالبها بادب بان تشد الرحال . وهكذا قادوا الجماهير الشعبية غير المنظمة الى نيران المعركة ضد الجمعية الوطنية ، وهي التعبير الدستوري التنظيم عن ارادة الشعب . لقد علموا بونابرت ان يلجأ الى الشعب ضد الجمعيات البرلمانية . واخيراً ، في ٢٩ كانون

الثاني (يناير) ١٨٤٩ ، حان اليوم الذي كان يترتب فيه على الجمعية التأسيسية ان تبت في امر حل نفسها . في هذا اليوم وجدت الجمعية التأسيسية البناية التي تعقد فيها جلساتها محتلة من قبل وحدات الجيش ، وهمد شانغارنيه ، جنرال حزب النظام ، الذي اجتمعت في يديه القيادة العليا للحرس الوطني والجيش النظامي ، الى اقامة عرض عسكري كبير في باريس كما لو ان معركة حربية كانت على الابواب ، واعلن الملكيون المؤتلفون للجمعية التاسيسية بلهجة التهديد والوعيد ان القوة ستستخدم لو ثبت انها غير موافقة . ولكنها ابدت موافقتها ، الا انها حصلت على المهلة القصيرة للغاية التي ساومت عليها وماذا كان التاسع والعشرون من كانون الثاني (يناير) غير coup d'état * الثاني من كانون الاول (ديسبر) ١٨٥١ قام بتنفيذه الملكيون بالتحالف مع بونابرت ضد الجمعية الوطنية الجمهورية ؟ ان السادة الملكيين لم يلاحظوا ، او لم يشاؤوا ان يلاحظوا ، ان بونابرت استغل احداث اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩ لكي يجعل قسماً من الجيش يمر امامه قبالة قصر التويلري ، وانه اغتنم بشراهة هذا الاستدعاء العلني الاول بالذات للقوة العسكرية ضد القوة البرلمانية لكي يلمح لهم الى كاليغولا (٧٤) . وبديهي انهم لم يروا سوى رجلهم شانغارنيه .

ان احد الدوافع التي كانت تحفز حزب النظام بشكل خاص على تقصير اجل الجمعية التأسيسية بالقوة كان يكمن في القوانين العضوية المستكملة للدستور ، كقانون التعليم وقانون ممارسة الشعائر الدينية الخ .. لقد كان المهم للغاية بالنسبة للملكيين

---

* انقلاب . الناشر .

المؤتلفين ان يقوموا هم انفسهم بسن هذه القوانين والا يدعوا الجمهوريين الذين غدوا متشككين يسنونها بيد انه كان هنالك ايضاً بين هذه القوانين العضوية قانون حول مسؤولية رئيس الجمهورية . وفي سنة ١٨٥١ كانت الجمعية التشريعية منهمكة في صياغة قانون كهذا القانون بالضبط ، عندما عاجل بونابرت هذ coup بـ coup * الثاني من كانون الاول (ديسمبر) . والملكيون المؤتلفون كانوا مستعدين لاعطـــاء كل شيء في اثناء حملتهم البرلمانية الشتوية سنة ١٨٥١ ليجدوا قانون مسؤولية رئيس الجمهورية جاهزاً بين ايديهم ، حتى ولو صاغته جمعية الجمهوريين المعادية والمتشككة !

بعد ان حطمت الجمعية التاسيسية بنفسها آخر سلاح لها في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٤٩ قامت وزارة بارو واصدقاء النظام بمطاردتها بلا هوادة . انهم لم يضيعوا فرصة واحدة لاذلالها وانتزعوا من الجمعية العاجزة واليائسة من نفسها قوانين كلفتها آخر بقية من احترام كانت لها في عيون المجتمـــع . وكان لدى بونابرت ، الذي كانت تشغله فكرتـــه النابوليونية الثابتة ، ما يكفي من الصفاقة لاستغلال هذا الحط من شان السلطة البرلمانية على ملأ من الناس فعندما اتخذت الجمعية الوطنية ، في الثامن من ايار (مايو) ١٨٤٩ ، قراراً بلوم الوزارة بسبب احتلال تشيفيتاـفيكيا من قبل الجنرال اودينو وامرتها بارجاع الحملة الرومانية الى غرضها المرسوم (٧٥) نشر بونابرت في ذلك المساء نفسه في "Moniteur" (٧٦) رسالة الى اودينو هناه فيها على مآثره البطولية واظهر نفسه ، على نقيض

---

* ضربة ، عمل حاسم . الناشر .

البرلمانيين اهل القلم ، بمظهر الحامي الشهم للجيش وقابل الملكيون ذلك بالابتسام اذ كانوا على يقين بانه مجرد مغفل في ايديهم . واخيراً وعندما ظن ماراست ، رئيس الجمعية التاسيسية ، للحظة ان سلامة الحمعية الوطنية في خطر وقام ، استناداً الى الدستور ، باستدعاء احد العقداء وفوجه ، رفض العقيد ذلك مستنداً الى الانضباط واحال ماراست على شانغارنييه الذي رفض الطلب مشيراً بسخرية الى أنه لا يحب baïonnettes„* intelligentes" وعندما استعد الملكيون المؤتلفون في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١ لان يبدأوا صراعهم الحاسم ضد بونابرت ، حاولوا ، عن طريق مشروع قانونهم السيئ الذكر المعروف باسم **مشروع قانون الكويستور** (٧٧) ، اقرار مبدأ استدعاء وحدات الجيش من قبل رئيس الجمعية الوطنية مباشرة . وقد وقع احد جنرالاتهم المدعو ليفلو على مشروع القانون . ولكن عبثاً اقترع شانغارنييه الى جانبه واطرى تيير الحكمة البعيدة النظر التي كانت تتمتع بها المرحومة الجمعية التاسيسية . لقد اجابه **وزير الحربية سان-ارنو** بمثل ما اجاب شانغارنييه ماراست وذلك وسط تصفيق «الجبل» !

وهكذا فان **حزب النظام** ، عندما لم يكن بعد سوى الوزارة ، لا الجمعية الوطنية ، قام بنفسه بتلطيخ سمعة **الحكم البرلماني** . وهو يرفع عقيرته صائحاً عندما طرد انقلاب اليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ هذا الحكم من فرنسا !

اننا لنتمنى له سفراً ميموناً !

---

* الحراب المفكرة . الناشر .

٣

في ٢٨ ايار (مايو) سنة ١٨٤٩ انعقدت الجمعية الوطنية التشريعية وفي ٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ حلت وهذه الفترة تشمل عمر **الجمهورية الدستورية او البرلمانية** .

في الثورة الفرنسية الاولى تعاقب **الدستوريون فالجيروندييون فاليعاقبة** (٧٨) على الحكم وكان كل حزب من هذه الاحزاب يعتمد على الحزب الاكثر منه تقدمية وحالما كان كل حزب يوصل الثورة الى مدى لا يستطيع بعده ان يسايرها ، بله ان يتزعمها ، كان يُطرح جانبا من قبل الحليف الاجرأ الذي يقف وراءه ويُرسل الى المقصلة . وهكذا كانت الثورة تسير في خط صاعد

عكس ذلك حدث في ثورة سنة ١٨٤٨ فان الحزب البروليتاري يبدو فيها كتابع للحزب الديموقراطي البرجوازي الصغير . وقد خانه هذا الحزب الاخير وساعد على اسقاطه في السادس عشر من نيسان (ابريل) (٧٩) وفي الخامس عشر من ايار (مايو) وفي ايام حزيران (يونيو) . والحزب الديموقراطي كان يستند بدوره الى اكتاف الحزب الجمهوري البرجوازي ولكن مـــا ان ظن الجمهوريون البرجوازيون ان الامور قد استقرت لهـــم حتى نفضوا عنهم رفيقهم المزعج واستندوا الى اكتاف حزب النظام غير ان حزب النظام هز بكتفيه وترك الجمهوريين البرجوازيين يسقطون وسارع الى القاء نفسه على اكتاف القوة المسلحـــة وتوهم هذا الحزب انه كان ما يزال يجلس على اكتافها عندما رأى هذه الاكتاف ذات صباح جميل وقد استحالت الى حراب كان كل حزب يركل الحزب الذي يدفعه من الوراء ، وكان في الوقت نفسه يدفع ظهر الحزب الذي امامه والذي يدفع به الى

الوراء . فلا عجب ان يفقد توازنه وهو في هذا الوضع المضحك وان يهوي بتقطيبات الوجه التي لا بد منها وهو ينط نطات غريبة . وهكذا كانت الثورة تسير في خط نازل . وقد وجدت نفسها في هذه الحال من الحركة التقهقرية قبل ان يزول آخر متراس من متاريس شباط (فبراير) وتتشكل اول سلطة ثورية

ان الفترة التي نحن بصددها تضم خليطا من المتناقضات الصارخة مبرقشاً الى اقصى حد دستوريون يتآمرون علناً ضد الدستور ؛ ثوريون يعترفون بصراحة بانهم انصار الاعمال في اطار الدستور ؛ جمعية وطنية تريد ان تكون كلية القدرة ، وتظل دائماً برلمانية ؛ حزب «الجبل» الذي يجد دعوته في الصبر والذي يعوض عن هزائمه الحالية بالتنبؤ بانتصارات مقبلة ؛ ملكيون في دور patres conscripti* الجمهورية ومرغمون بحكم الظروف على ان يبقوا خارج البلاد البيوت المالكة المتعادية التي يشايعونها وعلى ان يدعموا في فرنسا الجمهورية التي يكرهونها ؛ سلطة تنفيذية تجد قوتها في ضعفها ذاته ومكانتها في الاحتقار الذي تثيره في النفوس ؛ الجمهورية ليست سوى الجمع بين اقذر جوانب ملكيتين عهد العودة وملكية تموز (يوليو) وعليه لافتة امبراطورية ؛ احلاف تقوم على الانفصال ؛ كفاحات قانونها الاساسي عدم السير بها الى النهاية ؛ تهييج طائش اجوف باسم السكينة ؛ أوكد الواع التبشير بالسكينة باسم الثورة ؛ عاطفة بلا صدق وصدق بلا عاطفة ؛ ابطال بلا بطولات وتاريخ بلا احداث ؛ تطور يبدو ان القوة الدافعة الوحيدة له هي التقويم الزمني ، تطور مرهق بسبب من دوام تكرار ذات

---

* الشيوخ . الناشر .

النهضات والسقطات ؛ معاكسات يبدو كانها لا تتأزم دوريا حتى تبلغ الاوج الا لتفقد حدتها بعد ذلك ولتسقط دون ان تستطيع الوصول الى حل ؛ جهود تعرض بمباهاة وادعاء ورعب تافه من خطر نهاية العالم الزاحفة في وقت ينصرف فيه مخلّصو العالم الى احقر المكائد والى مهازل البلاط فلا يذكروننا ، بسبب من لامبالاتهم ، بيوم الحساب بقدر ما يذكروننا بايام الفروند (٨٠) ؛ كل العبقرية الرسمية لفرنسا كلها تغدو صفراً امام الحماقة الماكرة لفرد واحد ؛ الارادة الجماعية للامة ، كلما تفصح عن ذاتها عن طريق الاقتراع الشامل ، تبحث عن التعبير الملائم عن نفسها في الاعداء الالداء لمصالح الجماهير حتى تجده آخر الامر في ارادة قرصان واحد . ولو ان حقبة من التاريخ طليت بلون رمادي على رمادي لكانت هي هذه الحقبة بالضبط ان الناس والاحداث يظهرون كشليملات معكوسة ، كظلال فقدت اجسامها فالثورة نفسها تشل اولئك الذين يحملـون اعباءهـا وتمنح خصومها وحدهم قوة العنف الفائرة . وعندما يظهر اخيراً «الشبح الاحمر» ، الذي يستحضره دعاة الثورة المعاكسة ويطردونـه باستمرار ، فهو لا يظهر والقبعة الفريجية الفوضوية (٨١) فوق راسه بل يظهر في بزة النظام ، في سراويل حمراء

لقد رأينا ان الوزارة التي نصّبها بونابرت في العشرين من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ ، يوم اعتلائه سدة الرئاسة ، كانت وزارة من حـزب النظـام ، وزارة الائتلاف الشرعـي والاورلياني وقد عاشت وزارة بارو ـ فالو هذه بعد زوال الجمعية التاسيسية الجمهورية التي قصرت الوزارة اجلها بالعنف قل او كثر ، ووجدت نفسها ما تزال تقبض على زمام السلطة . وقد ظل شانغارنييه ، جنرال الملكيين المؤتلفين ، يجمع في

شخصه القيادة العليا لفرقة الجيش الاول وللحرس الوطني في باريس واخيراً امنت الانتخابات العامة لحزب النظام اغلبية ضخمة في الجمعية التشريعية . وقد واجه نواب لويس فيليب ونبلاؤه هنا جيشا مقدسا من الشرعيين تحولت بطاقات الاقتراع العام الكثيرة بالنسبة لهم الى بطاقات لدخول المسرح السياسي اما النواب البونابرتيون فقد كانوا من ضآلة العدد بحيث تعذر عليهم ان يشكلوا حزبا برلمانيـــا مستقلا فظهروا بمظهـــر mauvaise queue* لحزب النظام وهكذا استولى حزب النظام على السلطة الحكومية وعلى الجيش والهيئة التشريعية ، وبكلمة ، على سلطة الدولة بكاملها التي تعززت معنويا بالانتخابات العامة التي جعلت سيطرة حزب النظام تظهر كانها تعبير عن ارادة الشعب وبالانتصار الذي احرزته الثورة المضـــادة في الوقت ذاتـــه في القارة الاوروبية باكملها

لم يسبق ان افتتح حزب من الاحزاب حملته وهو يتمتع بموارد اضخم او يحظى بطالع ايمن .

اما الجمهوريون الصرف الذين تحطمت بهم السفينة ، فلـــم يبقوا في الجمعية الوطنية التشريعية الا زمرة مؤلفة من حوالي خمسين رجلا وعلى رأسها الجنرالات الافريقيـــون كافينيـــاك ولاموريسيير، وبيدو بيد ان حزب المعارضة الكبير كان يتالف من «الجبل» ، وهذا اسم برلمـــاني اطلقـــه الحزب الاشتراكي الديموقراطي على نفسه وقد كان له في الجمعية الوطنية ما ينيّف على مائتي صوت من ٧٥٠ صوتا ولهذا فقد كان له من القوة ما يعدل على الاقل قوة اية كتلة من الكتل الثلاث التي

* الذيل الحقير . الناشر .

تؤلف حزب النظام لو اخذت على انفراد . اما اقليته العددية النسبية ، بالمقارنة مع الائتلاف الملكي باكمله ، فقد كان يبدو ان ظروفا خاصة عوضت عنها . فالانتخابات التي جرت في المقاطعات لم تبين انه كسب اتباعا كثيرين بين سكان الارياف فحسب بل كان يعد في صفوفه جميع نواب باريس تقريبا وقد كشف الجيش عقائده الديموقراطية بانتخابه ثلاثة من ضباط الصف ، كما ان زعيم «الجبل» ، ليدرو-رولان ، على نقيض ممثلي حزب النظام جميعا ، رفعته الى شرف عضوية البرلمان خمس مقاطعات اجمعت على تقديم اصواتها له ونظراً للاصطدامات التي كان لا مناص من وقوعها فيما بين الملكيين انفسهم ، وبين حزب النظام بكامله وبين بونابرت ، فقد كان يبدو ان كل عناصر النجاح كانت بذلك متوفرة لحزب «الجبل» في الثامن والعشرين من ايار (مايو) سنة ١٨٤٩ ولكنه بعد اسبوعين كان قد فقد كل شيء ، بما في ذلك الشرف .

وقبل ان نواصل تتبعنا للتاريخ البرلماني لا بد ان نبدي بعض الملاحظات لتفادي الاخطاء الشائعة لدى تقدير الطابع العام لهذه الحقبة التي امامنا اذا نظرنا الى فترة الجمعية الوطنية التشريعية بعيون الديموقراطيين فسنجد ان ما عنيت به هذه الفترة هو نفس ما عنيت به فترة الجمعية التاسيسية الصراع البسيط بين الجمهوريين والملكيين اما الحركة نفسها فهم يلخصونها في كلمة واحدة هي «الرجعية» ، اي الليل اذ تبدو القطط كلها فيه رمادية ، ويسمح للديموقراطيين بان يكرروا على الاسماع بلا عائق العبارات السطحية المعهودة التي يرددها الحارس الليلي والحق ان حزب النظام يبدو لنا ، لاول وهلة ، عبارة عن متاهة محيرة من التكتلات الملكية المختلفة التي لا

تتآمر احداها ضد الاخرى فحسب – لكي تجلس على العرش من تؤيده من المدعين به وتقصي عنه المدعي الذي تؤيده الكتلة المعارضة – بل هي كلها قد جمعتها ايضاً الكراهية المشتركة «للجمهورية» والنضال المشترك ضدها وعلى النقيض من هؤلاء المتآمرين الملكيين يظهر «الجبل» من جهته كمدافع عن «الجمهورية» ان حزب النظام يبدو منهمكا على الدوام في حملة «رجعية» موجهة ضد الصحافة والجمعيات وما شاكل ذلك بصورة لا تزيد ولا تقل عما هو حاصل في بروسيا ، ويتم تنفيذها ، كما هو في بروسيا ايضاً ، في شكل تدخل بوليسي وحشي من جانب البيروقراطية والدرك والمحاكم و«الجبل» من جهته منهمك ايضاً ، كانهماك حزب النظام تماماً ، بصورة متواصلة في صد هذه الهجمات والدفاع عن «حقوق الانسان السرمدية» كما فعل ، الى هذا الحد او ذاك ، خلال فترة القرن ونصف القرن الاخيرة ، كل حزب من هذه الاحزاب التي تسمى احزاب الشعب . ولكن اذا حلل المرء الوضع والاحزاب بمزيد من الامعان ، لاختفى هذا المظهر السطحي الذي يحجب الصراع الطبقي والسيماء المميزة لهذه الفترة

ان الشرعيين والاورليانيين كانوا يشكلون ، كما قلنا ، الكتلتين الكبيرتين اللتين تألف منهما حزب النظام ترى ، الم يكن ما شد كلا من هاتين الكتلتين الى المدعي بالعرش الذي تريده وما فصل هاتين الكتلتين الواحدة عن الاخرى سوى الزنبقة (٨٢) ، والعلم المثلث الالوان ، سوى آل بوربون وآل اورليان اوالانواع المختلفة من النزعة الملكية ؟ هل كانت المسألة كلها مسألة اعتقاد بالملكية ؟ ان الملكية العقارية الكبيرة هي التي كانت تحكم في عهد اسرة بوربون ، مع كهانها وخدمها ، بينما

كان سلطان رأس المال – اي الصناعة الكبيرة ، والتجارة الكبيرة وارستقراطية المال – وحاشيته المؤلفة من المحامين والاساتذة والخطباء المداهنين هو الذي يحكم في عهد آل اورليان . ان المَلَكية الشرعية لم تكن الا التعبير السياسي عن الحكم الوراثي لمالكي الارض ، كما ان مَلَكية تموز (يوليو) لم تكن الا التعبير السياسي عن الحكم الذي اغتصبه حديثو النعمة البرجوازيون . ان ما فصل هاتين الكتلتين الواحدة عن الاخرى لم يكن لهذا السبب ما يسمى بالمبادىء بل كان شروط البقاء المادية لكل منهما ، كان نوعين مختلفين من المَلَكية ، كان التناقض القديم بين المدينة والريف ، المنافسة بين رأس المال والمَلَكية العقارية . اما ان الذكريات القديمة والخصومات الشخصية ، والمخاوف والآمال ، والخرافات والاوهام ، ومشاعر العطف والكراهية ، والمعتقدات ورموز الايمان ، والمبادىء ، قد ربطتهم في الوقت نفسه ايضا الى هذا البيت المالك او ذاك فمن ذا الذي ينكر هذا ؟ ففوق الاشكال المختلفة للمَلَكية ، فوق شروط البقاء الاجتماعية ، ينهض بناء فوقي كامل من المشاعر والاوهام وانماط التفكير ووجهات النظر الى العالم ، المتميزة بعضها عن بعض والمشكلة تشكيلا خاصا . ان الطبقة باسرها تخلقها وتكونها على اساس شروطها المادية وعلى اساس العلاقات الاجتماعية التي تقابلها . وقد يتصور الشخص الفرد الذي يستمد هذه المشاعر والآراء تقليديا من العرف والتربية انها هي التي تشكل البواعث الحقيقية ونقطة البدء في تصرفه . فبينما كان الاورلياليون والشرعيون ، بينما كانت كل كتلة تسعى لتجعل نفسها وتجعل الكتلة الاخرى تعتقد ان ما كان يفصلهما انما هو الولاء لبيتيهما المالكين ، اثبتت الحقائق فيما بعد ان تضاد مصالحهما هو الذي

كان يحول بالاحرى دون توحيد البيتين المالكين . وكما ان المرء يفرق في الحياة العادية بين ما يحمله الانسان من رأي وما يقوله عن نفسه وبين ما هو عليه في الواقع وما يفعله ، هكذا ايضا في الصراعات التاريخية لا بد للمرء بالاحرى ان يميز بين اقوال الاحزاب وتخيلاتها وبين طبيعتها الحقيقية ومصالحها الحقيقية ، بين فكرتها عن نفسها وبين حقيقتها لقد وجد الاورليانيون والشرعيون انفسهم جنبا الى جنب في الجمهورية ولهم ادعاءات متساوية . واذا كان كل جانب يسعى الى اعادة بيته المالك ضد الجانب الآخر فهذا لا يعني سوى ان كلا من الكتلتين الكبيرتين التي انقسمت اليهما البرجوازية – الملكية العقارية والراسمال المالي – كانت تسعى الى اعادة سيادتها واخضاع الاخرى لها ونحن نتحدث عن كتلتين اثنتين للبرجوازية لان الملكية العقارية الكبيرة ، على الرغم من دلّها الاقطاعي ومن فخرها بحسبها ونسبها ، قد غدت برجوازية تماما بفعل تطور المجتمع الحديث . وهكذا تصور التوريون (٨٣) في انجلترا مدة طويلة انهم كانوا متحمسين للسلطة الملكية والكنيسة ومواطن الجمال في الدستور الانجليزي القديم حتى جاء يوم الخطر فانتزع منهم الاعتراف بانهم متحمسون للريع العقاري وحده

ان الملكيين المؤتلفين كانوا يكيدون بعضهم لبعض في الصحف ، وفي ايمز وفي كليرمونت (٨٤) ، خارج البرلمان . ووراء الكواليس كانوا يرتدون من جديد حللهم الاورليانية والشرعية القديمة وينهمكون من جديد في مبارزتهم القديمة اما على المسرح العام فقد كانوا ، في تمثيلياتهم وبصفتهم حزبا برلمانيا كبيراً ، يكتفون بالانحناءات الاحترام امام البيتين المالكين ويؤجلون

اعادة الملكية in infinitum* وكانوا يؤدون شغلهم الحقيقي بوصفهم حزب النظام ، اي في صفة اجتماعية لا صفة سياسية ، بوصفهم ممثلي النظام البرجوازي العالمي ، لا فرسانا لأميرات جوالات ، بوصفهم الطبقة البرجوازية ضد سائر الطبقات ، لا ملكيين ضد جمهوريين . وبوصفهم حزب النظام كانوا يمارسون سلطانا اقل تقييداً واشد وطاة على الطبقات الاخرى في المجتمع من اي سلطان مارسوه في وقت من الاوقات في عهد العودة او عهد ملكية تموز (يوليو) ، سلطانا لم يكن ممكنا بصورة عامة الا في ظل شكل الجمهورية البرلمانية لانه لا يمكن ، الا في ظل هذا الشكل ، للكتلتين الكبيرتين من البرجوازية الفرنسية ان تتحدا وان تدرجا بذلك في جدول الاعمال حكم طبقتهما لا حكم كتلة ذات امتياز منها واذا كانوا ، برغم ذلك ، بوصفهم حزب النظام ، قد اهانوا الجمهورية ايضاً واعربوا عن نفورهم منها فان هذا لم يكن يحدث بسبب الذكريات الملكية فحسب فان الغريزة لوحت لهم ان الجمهورية هي ذروة حكمهم السياسي ، بيد انها تقوض في الوقت نفسه اساسه الاجتماعي لانه كان عليهم ان يواجهوا الآن الطبقات المقهورة ويتنازعوا معها مباشرة ، بدون التغطية التي هي التاج ، بدون صرف اهتمام الامة بالصراعات الثانوية التي تدور بينهم ومع الحكم الملكي . ان الشعور بالضعف هو الذي دعاهم الى النكوص عن الشروط الخالصة لحكم طبقتهم ذاتها والى الحنين الى الاشكال السابقة لهذا الحكم ، الاشكال الاقل كمالا ، والاقل تطوراً ، ولهذا السبب بالذات الاقل خطراً بالعكس ، كلما كان الملكيون المؤتلفون يصطدمون بالمدعي

---

* الى ما لا نهاية له . الناشر .

بالعرش المعادي لهم ، اي ببونابرت ، وكلما كانوا يعتقدون ان سلطانهم البرلماني الكلي في خطر من السلطة التنفيذية ، وكلما كان يترتب عليهم بالتالي وبالدرجة الاولى ان يثبتوا صفتهم السياسية التي تعطيهم الحق في حكمهم ، كانوا يطلعون على الناس **كجمهوريين لا ملكيين** ، ابتداء من تيير الاورلياني الذي أكد للجمعية الوطنية ان مسالة الجمهورية تفرقهم الى اقل مدى ممكن ، وانتهاء ببريبه الشرعي الذي وقف ، في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، وبصفته مخاطبا عن الامة مقمطا بوشاح مثلث الالوان يجلجل باسم الجمهورية في الناس المحتشدين امام دار بلدية الدائرة العاشرة صحيح ان صدى ساخراً كان يجاوبه قائلا : Henri V ! Henri V ! *

وفي مواجهة الائتلاف البرجوازي ، قام ائتلاف بين البرجوازيين **الصغار والعمال** ، وهو ما يدعى بالحزب **الاشتراكي-الديموقراطي** . فالبرجوازيون الصغار رأوا انهم كوفئوا مكافاة سيئة بعد ايام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ وان مصالحهم المادية قد منيت بالخسائر وان الضمانات الديموقراطية التي كان عليها ان تؤمن لهم امكانية الدفاع عن هذه المصالح قد وضعتها الثورة المعاكسة موضع تساؤل وبناء على ذلك ، تقربوا من العمال ومن جهة اخرى ، عاد ممثلهم البرلماني ، «الجبل» الذي طرح جانبا اثناء ديكتاتورية الجمهوريين البرجوازيين ، وظفر من جديد ، في النصف الاخير من حياة الجمعية التاسيسية ، بشعبيته السابقة وذلك بفضل الصراع ضد بونابرت والوزراء الملكيين . وقد عقد «الجبل» حلفا مع الزعماء الاشتراكيين . وفي شهر شباط (فبراير) ١٨٤٩ اقيمت الولائم احتفالا بالمصالحة ووضع المتحالفون

---

* هنري الخامس ! هنري الخامس ! الناشر .

برنامجا مشتركا وشكلوا لجانا انتخابية مشتركة وقدموا مرشحين مشتركين وقد جُرّدت المطالب الاجتماعية للبروليتاريا من الحدة الثورية وصُبغت بصبغة ديموقراطية ، بينا جُرّدت المطالب الديموقراطية للبرجوازية الصغيرة من الشكل السياسي البحت السابق وصُبغت بصبغة اشتراكية . وهكذا نشأ الحزب **الاشتراكي-الديموقراطي** . اما «**الجبل**» الجديد ، وهو نتيجة هذه المساومة ، فقد كان يضم ، بصرف النظر عن بعض الافراد التافهين من الطبقة العاملة وبعض من المنعزلين الاشتراكيين ، نفس العناصر التي كان يضمها حزب «الجبل» القديم ، والفرق الوحيد ان عدد هذه العناصر كان اكثر بيد انه قد تغير في مجرى التطور ، مع تغير الطبقة التي كان يمثلها ان الطابع المميز للحزب الاشتراكي-الديموقراطي يتجلى في كونه يطالب بالمؤسسات الجمهورية الديموقراطية كوسيلة لا لازالة نقيضين هما : رأس المال والعمل الماجور بل لاضعاف تناحرهما وتحويله الى انسجام ومهما اختلفت الوسائل المقترحة لبلوغ هذه الغاية ومهما كانت التصورات التي تزدان بها ثورية الى هذا الحد او ذاك ، فان المغزى يبقى واحداً ، الا وهو تحويل المجتمع بطريقة ديموقراطية ولكنه تحويل ضمن حدود البرجوازية الصغيرة غير انه لا يجوز للمرء ان يكوّن فكرة ضيقة الافق تزعم أنّ البرجوازية الصغيرة ترغب ، من حيث المبدأ ، في تحقيق مصلحتها الطبقية الانانية . انها تعتقد بالعكس ان الشروط **الخاصة** لانعتاقها هي في الوقت ذاته الشروط **العامة** التي لا يمكن انقاذ المجتمع العصري وتفادي النضال الطبقي فيه الا ضمن نطاقها كذلك لا يجوز للمرء ان يتصور ان ممثلي الديموقراطية هم جميعا بالفعل من اصحاب الحوانيت او مدافعون متحمسون عن اصحاب الحوانيت . فانهم بحسب تعليمهم ووضعهم

الفردي قد يكونون بعيدين عن ذلك بعد السماء عن الارض ان ما يجعلهم ممثلين للبرجوازية الصغيرة هو انهم عاجزون عن ان يتعدوا في تفكيرهم النطاق الذي لا تتعداه حيــاة البرجوازيين الصغار ، وانهم يتوصلون بالتالي ، نظرياً ، الى القضايا والحلول ذاتها التي تساق البرجوازية الصغيرة اليها عملياً بدافع مصلحتها المادية ووضعها الاجتماعي هذه ، بصورة عامة ، هي العلاقة بين الممثلين السياسيين والفكريين لطبقة من الطبقات وبين الطبقة التي يمثلونها

بعد التحليل الذي قدمناه يكون من الواضح ان «الجبل» ، اذ يناضل بصورة متواصلة ضد حزب النظام من اجل الجمهورية وما يسمى بحقوق الانسان ، فلا تكون الجمهورية ولا حقوق الانسان هدفه النهائي شأنه في ذلك شأن جيش يريدون ان يجردوه من سلاحه فيقاوم ويخوض المعركة لا من اجل الاحتفاظ بسلاحه وحسب .

على اثر انعقاد الجمعية الوطنية مباشرة عمد حزب النظام الى استفراز «الجبل» لقد شعرت البرجوازية الآن بضرورة القضاء على البرجوازية الصغيرة الديموقراطية تماماً مثلما ادركت قبل عام ضرورة القضـاء على البروليتاريـا الثورية . ولكن وضعية الخصم كانت تختلف هذه المرة فقوة الحزب البروليتاري كانت في الشوارع بينما كانت قوة البرجوازيين الصغار في الجمعية الوطنية نفسها . فالقضية اذن كانت قضية استدراجهم من الجمعية الوطنية الى الشوارع وجعلهم يحطمون بانفسهم قوتهم البرلمانية ، قبل ان يتسنى توطيدها بفعل الزمن والظروف . واندفع «الجبل» الى الشرك على غير هدى .

ان قصف روما بالمدفعية من قبل القوات الفرنسية كان الطعم

الذي أُلقي به اليه . لقد كان هذا يشكل خرقاً للمادة الخامسة من الدستور التي تحظر على الجمهورية الفرنسية استخدام قواتها العسكرية ضد حرية شعب آخر . وفضلا عن ذلك تحظر المادة الرابعة والخمسون على السلطة التنفيذية اعلان الحرب دون موافقة الجمعية الوطنية ، كما ان الجمعية التاسيسية كانت قد شجبت الحملة الرومانية ، في قرارهـا الذي اتخذته في الثامن من ايار (مايو) . وبناء على هذا ، قدم ليدرو-رولان للجمعية لائحة اتهام ضد بونابرت ووزرائه في اليوم الحادي عشر من حزيران (يونيو) ١٨٤٩ . واذ احفظت ليدرو-رولان قوارص الكلام التي كان يطلقها تيير ، فقد سمح لنفسه ان ينجرف الى درجة التهديد بانه سوف يدافع عن الدستور بكل الوسائل وحتى بقــوة السلاح . وقــام اعضاء «الجبل» قومة رجل واحد وكرروا هذه الدعوة الى السلاح . وفي اليوم الثاني عشر من حزيران (يونيو) رفضت الجمعية الوطنية لائحة الاتهام وترك «الجبل» البرلمان . اما حوادث الثالث عشر من حزيران (يونيو) فمعروفة : البيان الذي اصدره فريق من «الجبل» والذي اعلن فيه بونابرت ووزراءه «خارجين على الدستور»؛ الموكب الذي نظمه في الشوارع افراد الحرس الوطني الديموقراطيون الذين تشتتوا ، وهم غير المسلحين ، عند التقائهم بقوات شانغارنييه ، الخ .، الخ .. وقد فر قسم من «الجبل» الى الخارج ، وقُدّم قسم آخر الى المحاكمة امام المحكمة العليا في بورجيه ، بينما أخضع الباقون ، كالتلامذة ، وفقاً للنظام البرلماني ، لرقابة حقيرة يمارسها رئيس الجمعية الوطنية . واعلنت حالة الحصار في باريس مرة اخرى وحل الجزء الديموقراطي من الحرس الوطني الباريسي . وهكذا صُفّي نفوذ «الجبل» في البرلمان وقوة البرجوازيين الصغار في باريس

ان مدينة ليون ، حيث اصبحت حوادث اليوم الثالث عشر من حزيران (يوليو) اشارة لانتفاضة دموية قام بها العمال ، قد اعلنت فيها كذلك هي وخمس مقاطعات مجاورة لها حالة الحصار التي ما تزال سارية المفعول هناك حتى اللحظة الراهنة .

ان الشطر الاعظم من اعضاء «الجبل» قد خانوا طليعتهم اذ رفضوا توقيع البيان الذي اصدرته . كذلك فرت الصحافة من الميدان ، ولم يجروء غير صحيفتين على نشر هذا البيان . وخان البرجوازيون الصغار ممثليهم وذلك اما بعدم حضور افراد الحرس الوطني او بعرقلتهم بناء المتاريس حيثما ظهروا . وخدع الممثلون البرجوازيين الصغار اذ لم يظهر اي اثر لحلفائهم المزعومين في الجيش . ثم ان الحزب الديموقراطي اخيراً ، بدلا من ان يكتسب المزيد من القوة من البروليتاريا ، اصابها هو بعدوى ضعفه وكما هو شأن جلائل الاعمال التي يقوم بها الديموقراطيون عادة ، شعر الزعماء بالرضى اذ استطاعوا ان يتهموا «شعبهم» بالخيانة وشعر الشعب بالرضى اذ استطاع ان يتهم الزعماء بالتدجيل عليه .

قلّما أُعلن عن اجراء من الاجراءات بضجيج يفوق ذاك الذي اعلن به عن الحملة التي كان «الجبل» يوشك على القيام بها ، وقلما دوت الابواق بحدث من الاحداث في ثقة اعظم وقبل وقوعه بمدة اطول ، كما جرى ذلك هذه المرة حول الاعلان عن حتمية انتصار الديموقراطية ان الديموقراطيين يؤمنون بلا شك بقوة الابواق التي انهارت امام اصواتها اسوار اريحا (٨٥) وهم يسعون ، كلما وقفوا امام اسوار الاستبداد ، الى تقليد هذه المعجزة . فلو ان «الجبل» اراد ان ينتصر في البرلمان ، لما كان له ان يدعو الى اللجوء الى السلاح ، ولو دعا الى اللجوء الى السلاح في البرلمان لما كان يجوز ان يتصرف تصرفا برلمانيا في الشوارع . ولو كان ينوي

جديـا القيام بمظاهرة سلمية ، لكان من الحمـالة الظن انهـا لن تستقبل استقبالا حربيا . ولو كان يقصد الكفاح الحقيقي ، لكان من غريب التفكير ان يلقي السلاح الذي به يخاض الكفاح . ولكن التهديدات الثورية التي يطلقهـا البرجوازيون الصغـار وممثلوهم الديموقراطيون هي مجرد محاولات لارهاب الخصم . فعندما يقع هؤلاء في مازق ، عندمـا يكونون قد اوقعوا انفسهم في الشبهـات لدرجة يتحتم عليهم معها ان يضعوا تهديداتهم موضع التنفيذ ، حينذاك يفعلون هذا بطريقة غامضة ولا يتفادون شيئا اكثر من الوسائل اللازمة لبلوغ الغاية ويسعون وراء الذرائع للانهزام فالافتتاحية المدوية التي تعلن بدء الكفاح تغدو همهمة وجلة ما ان يبلغ الامر حد الكفاح بالذات ! اذ ذاك يتوقف الممثلون عن اخذ الامور ماخذ الجد وتتوقف التمثيليـة ، وتتلاشى كالفقاعة التي وخزتها ابرة .

ما من حزب يبالغ في تقدير الوسائل المتوفرة لديه اكثر من الحزب الديموقراطي وما من حزب يخدع نفسه عن حقيقة الوضع باستخفاف اكثر منه فبما ان قسما من الجيش اقترع لحزب «الجبل» فقد اصبح هذا الحزب الآن على يقين من ان الجيش سوف يثور من اجله . وفي اية مناسبة ؟ في مناسبة لم يكن لها في نظر الجنود من معنى سوى ان الثوريين انحازوا الى جـانب الجنود الرومانيين ضد الجنود الفرنسيين . ومن ناحية اخرى كانت ذكريات ايام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ اقصر من ان تسمح باي شيء سوى المقت الشديد من جانب البروليتاريـا تجاه الحرس الوطني والارتياب التام بالقادة الديموقراطيين من جانب قادة الجمعيات السرية . ولكي تتسنى تسوية هذه الخلافات ، كان لا بد من ان تكون هنالك مصالح جدية مشتركة معرضة للخطر . وخرق فقرة مجردة

من فقرات الدستور لا يمكن ان يبعث مثل هذا الاهتمام ألم يخرق الدستور مراراً عديدة ، بحسب تأكيدات الديموقرطيين انفسهم ؟ ألم تصمه اكثر الجرائد شعبية بانه شيء من صنع اعداء الثورة ؟ بيد ان الديموقراطي ، لانه يمثل البرجوازية الصغيرة ، اي طبقة انتقالية تتثلم فيها مصالح طبقتين بصورة متبادلة ، يتصور لهذا السبب انه فوق التناحر الطبقي بصورة عامة والديموقراطيون يسلمون بأنهم يواجهون طبقة ذات امتيازات ولكنهم هم ، مع سائر فئات الامة ، يشكلون **الشعب** . ان ما يدافعون عنه ، هو ، كما يقولون ، **حقوق الشعب** وما يعبرون عنه ، هو ، كما يقولون ، **مصالح الشعب** . ولذلك ليست بهم من حاجة ، عندما يوشك صراع على النشوب ، لان يتفحصوا مصالح الطبقات المختلفة ومواقفها . وليست بهم من حاجة لان يزنوا وسائلهم نفسها بميزان النقد الدقيق . كل ما عليهم هو ان يعطوا الاشارة وعندها ينقض **الشعب** على **الظالمين** ، بكل ما لديه من وسائل لا تنفد . اما اذا تبين ان مصالحهم لا تهم الآخرين وان قوتهم هي عجز ، فاما ان يكون الذنب حينئذ هـو ذنب اولئك السفسطائيين المؤذين الذين يشقون صفوف **الشعب غير المنقسم** الى معسكرات متعادية مختلفة واما ان الجيش قد توحش او انعمى لدرجة تعذر عليه معهـا ان يدرك ان الاهداف الخـالصة للديموقراطية هي احسن الاشياء بالنسبة له هو نفسه ، واما ان تكون القضية كلها فشلت من جراء خطأ في التفاصيل ارتكب اثناء التنفيذ ، ولما ، اخيرا ، ان تكون صدفة غير متوقعة قد آلت بالقضية الى الفشل في هذه المرة . وعلى اية حال يخرج الديموقراطي من اشد العزائم خزيا طاهر الذيل بقدر ما كان بريئا عندما دخل فيها ، بعد ان يكون قد تعزز اقتناعه بانه لا بد ان ينتصر ، وانه لا ينبغي عليه

هو وحزبه ان يتخليا عن موقفهما القديم بل بالعكس ، فان الظروف هي التي يجب عليها ان تنضج حتى تغدو ملائمة له .

وعلى هذا ، لا ينبغي ان نتصور ان حزب «الجبل» قد غدا بائساً غاية البؤس ، على الرغم مما اصابه من تنكيل وتحطيم ورغم ان عدد اعضائه قد قل كثيراً ، ورغم الاذلال الذي لحق به من جراء النظام البرلماني الجديد فاذا كان اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو) قد اقصى رؤساءه فهو قد افسح المجال ، من جهة اخرى ، لـ«عباقرة» من الدرجة الثانية كان يتملقهم هذا الوضع الجديد واذا كان عجزهم في البرلمان لم يعد موضع شك فقد صار من حقهم الآن ان يقصروا عملهم على فورات الغضب انتصارا للفضيلة وعلى الخطابة الطنانة الصاخبة . واذا كان حزب النظام قد شاء ان يرى كل فظائع الفوضى متجسمة فيهم ، بوصفهم آخر ممثلين رسميين للثورة ، فان في وسعهم ان يكونوا بالتالي اكثر تفاهة واعتدالا في واقع الامر . انهم عزوا انفسهم على هزيمة الثالث عشر من حزيران (يونيو) بالقول البليغ «ليتجاسروا على مس حق الاقتراع الشامل ، ليتجاسروا وان مرة ! فاننا حينئذ سوف نريهم اي رجال نحن ! *Nous verrons ! » .

اما فيما يتعلق «بالجبليين» الذين فروا الى الخارج فيكفينا ان نشير هنا الى ان ليدرو-رولان قد وجد نفسه مدعوا الآن الى تشكيل حكومة فرنسية **in partibus وذلك بعد ان نجح في فترة لا تتجاوز الاسبوعين في تدمير الحزب القوي الذي كان يرأسه حتى انعدمت كل امكانية لانقاذه ؛ وان شخصه بدا الآن

* سوف نرى ! الناشر .

** على الورق . الناشر .

عن بعد ، وهو مقصى عن مسرح العمل ، وكان قامته قد ازدادت ارتفاعاً بقدر ما هبط مستوى الثورة وتضاءلت اشخاص اصحاب الامر والنهي الرسميين في فرنسا الرسمية ؛ وانه استطاع ان يظهر بوصفه المدعي الجمهوري لانتخابات سنة ١٨٥٢ ؛ وانه اصدر تعميمات دورية الى الولاشيين وغيرهم من الشعوب توعد فيها طغاة القارة بافاعيله هو وحلفائه وهل كان برودون مخطئا كل الخطأ عندما صاح في وجوه هؤلاء السادة

*« Vous n'êtes que des blagueurs! »

ان حزب النظام لم يحطم قوة «الجبل» فحسب في اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو) ، بل انه توصل ايضـاً الى **اخضـاع الدستور للقرارات الاكثرية في الجمعية الوطنية** . وقد فهم الجمهورية كما يلي : في الجمهورية ، تسود البرجوازية باشكال برلمانية دون ان تواجه اية حدود من مثل حق السلطة التنفيذية في النقض او حق هذه السلطة في حل البرلمان كما هي الحال في الحكم الملكي . وتلك هي **الجمهورية البرلمانية** ، بحسب تحديد تيير . ولكن البرجوازية ، اذ امنت لنفسها ، في اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو) ، السلطان التام في داخل البرلمان ، الم تنزل بالبرلمان نفسه ضربة قاضية بطرد اكثر نوابه شعبية ، في مواجهة السلطة التنفيذية والشعب وبذلك اضعفته ؟ ان البرجوازية بتسليمها نواباً عديدين دون تكلف الى المحاكم قد الغت حصانتها البرلمانية ذاتها كما ان النظام المهين الذي فرضته على نواب «الجبل» قد رفع من شان رئيس الجمهورية بذات القدر الذي غض فيه من شأن كل ممثل من ممثلي الشعب على انفراد . واذ هي وصفت انتفاضة استهدفت حماية الدستور بانها عمل فوضوي

---

* «لستم سوى فواشيش !» الناشر .

يهدف الى هدم المجتمع ، حرمت نفسها من امكانية الدعوة الى الانتفاضة اذا ما عمدت السلطة التنفيذية الى خرق الدستور من اجل محاربتها . ومن سخرية التاريخ ان اوديغو ، ذلك الجنرال الذي قصف روما بالمدفعية بناء على تعليمات بونابرت ، فهيأ بذلك المناسبة المباشرة للعصيان الدستوري في الثالث عشر من حزيران (يونيو) ، قيض له ان يكون الرجل الذي قدمه حزب النظام الى الشعب في ضراعة وعلى غير طائل بوصفه القائد المنافح عن الدستور ضد بونابرت في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ . وبطل آخر من ابطال الثالث عشر من حزيران (يونيو) فيرا الذي اطري من على منبر الجمعية الوطنية بسبب الاعمال الوحشية التي ارتكبها في مكاتب الصحف الديموقراطية على رأس عصابة من افراد الحرس الوطني تنتمي الى دوائر اريستقراطية المال — فيرا هذا نفسه كان مطلعاً على مؤامرة بونابرت وساهم مساهمة كبيرة في حرمان الجمعية الوطنية ساعة موتها من اية حماية من جانب الحرس الوطني .

وقد كان للثالث عشر من حزيران (يونيو) معنى آخر ايضاً ان «الجبل» كان يبذل جهده لمحاكمة بونابرت ولذلك كانت هزيمته نصراً مباشراً لبونابرت وظفراً شخصياً له على اعدائه الديموقراطيين . ان حزب النظام هو الذي احرز هذا النصر ، وكل ما كان على بونابرت هو ان يسجل هذا النصر في سجله . وقد فعل ذلك . ففي اليوم الرابع عشر من حزيران (يونيو) كان المرء يقرأ على جدران باريس منشوراً يطل فيه الرئيس من صومعته ، وهو متردد ، كانما لا شان له بكل هذا ، كانه ارغم ارغاماً واكرهه على ذلك مجرد ضغط الاحداث ، ويشكو ، كانما هو الفضيلة التي اسيء فهمها ، من الافتراءات التي يوجهها اليه

خصومه ؛ وفي الوقت الذي يبدو فيه وكأنه يجعل قضية شخصه هي قضية النظام ، كان يجعل في الواقع من قضية النظام قضيــة شخصه اضف الى هذا ان الجمعية الوطنية ، وان وافقت فيما بعد على الحملة على روما ، بيد ان بونابرت هو الذي تولى المبادرة في الموضوع . وهو بعد ان أعاد تنصيب الحبر صموئيل في الفاتيكان اصبح لديه امل في دخول التويلري باعتباره الملك داود (٨٦) لقد كسب الكهنة الى صفه .

ان تمرد الثالث عشر من حزيران (يونيو) قد اقتصر ، كما رأينا ، على موكب سلمي في الشوارع . وبالتالي لم يكن ممكناً لهذا السبب ان تكون الغلبة سبيلا الى الظفر بغار الحروب . وعلى الرغم من هذا فان حزب النظام ، في وقت كهذا الوقت فقير بالابطال والاحداث ، حوّل هذه المعركة التي لم تسل فيها دمـاء الى اوسترلتز ثانية (٨٧) . المنابر والصحف اثنت على الجيش بوصفه قوة النظام ، على نقيض الجماهير الشعبية التي تمثل عجز الفوضى ، ومجدت شانغارنييه باعتباره «حصن المجتمع» – خداع انطلى عليه هو نفسه آخر الامر . وفي هذه الاثناء كانت القطعات العسكرية التي كان مشكوكا في ولائها قد نقلت من باريس خلسة وكذلك نفيت الفصائل التي اظهرت في الانتخابات مشاعر ديموقراطية اكثر من سواها من فرنسا الى الجزائر ، واحيل المشاغبون من الجنود الى مفارز العقاب واخيراً نفذت عملية عزل الصحافة عن الثكنات والثكنات عن المجتمع المدني بصورة منتظمة

وهنا نكون قد وصلنا الى نقطة الانعطاف الحاسمة في تاريخ الحرس الوطني الفرنسي كان الحرس الوطني في سنة ١٨٣٠ العامل الحاسم في تقرير مصير عهد العودة (٨٨) . وفي عهد لويس فيليب كان كل تمرد يقف فيه الحرس الوطني الى جانب الجنود

يمنى بالفشل . وعندما اظهر الحرس الوطني في ايام شباط (فبراير) ١٨٤٨ موقفا سلبيا تجاه الانتفاضة وموقفا مبهما تجاه لويس فيليب ، سلم هذا بهزيمته وهزم فعلا . وهكذا رسخ الاعتقاد بانه لا يمكن للثورة ان تنتصر بدون الحرس الوطني ولا للجيش ان ينتصر والحرس الوطني ضده . كانت هذه خرافة الجيش فيما يتصل بقدرة المدنيين الكلية . وقد قويت هذه الخرافة في ايام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ عندما قام الحرس الوطني باسره ، بالاشتراك مع قوات الميدان ، باخماد الانتفاضة . وبعد ان تسنّم بونابرت منصب رئيس الجمهورية طرأ على مركز الحرس الوطني بعض الضعف بعد ان جُمعت قيادة قوات الحرس الوطني مع قيادة فرقة الجيش الاولى في شخص شانغارنييه ، بصورة غير دستورية .

وكما ان قيادة الحرس الوطني ظهرت هنا كصفة من صفات القيادة العسكرية العليا ، كذلك ظهر الحرس الوطني نفسه كمجرد ذيل لقوات الميدان . واخيراً ، في الثالث عشر من حزيران (يونيو) كسرت شوكته نهائيا ، ولم يكن ذلك بتسريحه تدريجيا جزءاً بعد آخر فحسب ابتداء من هذا اليوم في جميع انحاء فرنسا ، حتى لم يتبقَّ منه سوى شراذم ضئيلة . فان مظاهرة الثالث عشر من حزيران (يونيو) كانت قبل كل شيء مظاهرة قام بها القسم الديموقراطي من الحرس الوطني صحيح ان الحرس الوطني لم يقاوم الجيش بكامل سلاحه بل ببزته العسكرية فقط ولكن في هذه البزة بالذات كان يكمن الطلسم . لقد اقتنع الجيش بان هذه البزة كانت قطعة من الصوف شانها شان غيرها . وزال السحر . ان البرجوازية والبرجوازية الصغيرة في شخص الحرس الوطني قد اتحدتا في ايام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ مع الجيش وضد البروليتاريا . وفي الثالث عشر من حزيران (يونيو) ١٨٤٩ شتتت البرجوازية الحرس الوطني

البرجوازي الصغير بمساعدة الجيش وفي اليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ لم يكن الحرس الوطني البرجوازي موجوداً ، وكل ما فعله بونابرت ، عندما وقع فيما بعد على مرسوم تسريحه ، هو انه دوّن هذه الحقيقة الواقعة . وهكذا حطّمت البرجوازية بنفسها آخر سلاح لها ضد الجيش ، ولكن كان عليها ان تفعل ذلك في اللحظة التي لم تعد فيها البرجوازية الصغيرة تقف وراءها تابعة لها بل كانت تقف امامها ثائرة عليها . ثم ان البرجوازية كانت ملزمة ، بصورة عامة ، بان تدمر بايديها كل وسائل دفاعها ضد الاستبداد حالما اصبحت هي نفسها مستبدة

وفي هذه الاثناء احتفل حزب النظام بظفـــره مجـــدداً بسلطة كانّها ما ضاعت في سنة ١٨٤٨ الا ليجدها ثانية في سنة ١٨٤٩ وقد تحررت من قيودها كلها ، احتفل بهجمات عنيفة شنها ضد الجمهورية وضد الدستور ، وبلعنات صبها على جميع الثورات المقبلة والحاضرة والماضية ، بما فيها تلك التي قام بها قادته انفسهم واخيراً باصدار قوانين كممت الصحافة وقضت على حرية تأليف الجمعيات ، وصدّقت على حالة الحصار بوصفها نظاما طبيعيا . ثم ارجأت الجمعية الوطنية جلساتها من منتصف آب (اغسطس) حتى منتصف تشرين الاول (اكتوبر) ، بعد ان عينت لجنة دائمة خلال فترة غيابها . وفي خلال هذه العطلة حاك الشرعيون الدسائس مع ايمز ، والاورليانيون مع كليرمونت ، وحاك بونابرت دسائسه بواسطة الجولات المدبرة تدبيراً فخما كما حاكت مجالس المقاطعات الدسائس في المداولات حول اعادة النظر في الدستور ؛ وهي الوقائع التي كانت تتكرر بصفة منتظمة اثناء العطل الدورية للجمعية الوطنية ، والتي ليس في نيتي ان ابحثها بالتفصيل الا عندما تصبح احداثا . وحسبنا هنا ان نشير ، فضلا عن هذا ، الى

انه كان من قصر النظر بالنسبة للجمعية الوطنية ان تختفي عن المسرح فترات طويلة نسبيًا وتترك شخصا واحداً فقط ،ولو انه مخلوق بائس ، على رأس الجمهورية ، هو لويس بونابرت ، بينما كان حزب النظام يتفتت الى الاجزاء الملكية التي كان يتالف منها والتي لها رغباتها المتعارضة بشأن عهد العودة ، مما عرضه للفضائح امام الناس . وكلما كانت ضجة البرلمان المصمة تخفت خلال هذه العطل وتذوب هيئته في الامة ، كان يتضح على نحو لا لبس فيه ان شيئا واحداً فقط كان ما يزال ناقصا حتى يتم الشكل الصحيح لهذه الجمهورية : ان تصبح العطلــة البرلمانية دائمة ، وان يستعاض عن شعارها القائل *Liberté, égalité, fraternité بكلمات صريحة واضحة لا تفسح المجال لتفسيرها تفسيراً مزدوجا وهي : **Infanterie, Cavalerie, Artillerie!

٤

في منتصف شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٤٩ استانفت الجمعية الوطنية جلساتها . وفي اليوم الاول من تشرين الثاني (نوفمبر) فاجاها بونابرت برسالة اعلن فيها اقالة وزارة بارو ــ فالو وتشكيل وزارة جديدة ولم يسبق ان طُرد خادم بعدم تكلف اكبر مما فعل بونابرت مع وزرائه . ان الركلات التي قصد بونابرت بها الجمعية الوطنية قد اصابت هذه المرة بارو وشركاه .

---

* الحرية والمساواة والاخاء . الناشر .

** المشاة والخيالة والمدفعية . الناشر .

ان وزارة بارو كانت ، كما رأينا ، مؤلفـة من شرعيين واورليانيين ، وزارة من حزب النظام . وقد كان بونابرت في حاجة اليها ليحل الجمعية التاسيسية وليدبر الحملة على روما وليكسر شوكة الحزب الديموقراطي . وقد طمس نفسه وقتذاك ، كما كان يبدو ، وراء هذه الوزارة وتنازل عن السلطة الحكومية ووضعها في ايدي حزب النظام ، وارتدى قناع التواضع الذي كان يرتديه في باريس رؤساء تحرير الجرائد في عهد لويس فيليب – قناع homme de paille* . ولكنه عمد الآن الى طرح قناع لم يعد بعد حجابا خفيفا يستطيع ان يخفي سيماءه وراءه بل غدا قناعا حديديا كان يمنعه من اظهار سيماء خاصة به لقد دعا وزارة بارو الى الحكم قصد حل الجمعيـة الوطنيـة الجمهورية باسم حزب النظام ، وعزل هذه الوزارة لكي يعلن اسمه مستقلا عن الجمعية الوطنة لحزب النظام هذا

ولم تكن تنقصه الذرائع المقبولة الظاهر التي يبرر بها هذا العزل فان وزارة بارو قد أهملت حق المجـاملات التـي ينبغي التقيد بها حيال رئيس الجمهورية بوصفه سلطة قائمة الى جانب الجمعية الوطنية ففي اثناء عطلة البرلمان نشر بونابرت رسالة وجهها الى ادغار نيي كان يبدو فيها انـه لا يوافق على الموقف المتزمت الذي وقفه البابا ** ، تماما كما نشر من قبل رسالة امتدح فيها اودينو بسبب الهجـوم على الجمهورية الرومانية ، مخالفا في ذلك الجمعية التاسيسية . وعندما صدقت الجمعية الوطنية على الميزانية الخاصة بالحملة الرومانية طرح فكتور هوغو ، بدافع من الليبيرالية المزعومة ،

* المسؤول الاسمي . الناشر .

** بيوس التاسع . الناشر .

هذه الرسالة للمناقشة وعمد حزب النظام بصيحات الانكار المشوب بالازدراء الى خنق الفكرة القائلة ان تصرفات بونابرت غير الذكية يمكن ان تكون لها اية اهمية سياسية ولم يلتقط واحد من الوزراء القُفّاز الذي ألقي في وجه بونابرت وفي مناسبة اخرى عمد بارو ، بما هو معهود فيه من بلاغة جوفاء ، الى القاء كلمات غاضبة من على المنبر حول «الدسائس المنكرة» التي كانت تجرى ، حسب تأكيده ، بين الحاشية المباشرة للرئيس . واخيراً رفضت الوزارة بصورة قاطعة تقديم اي اقتراح لزيادة مخصصات رئيس الجمهورية ، في الوقت الذي توصلت فيه الى الحصول من الجمعية الوطنية على مرتب ارملة لدوقة اورليان ولكن المدعي بالتاج الامبراطوري قد ادمج اوثق الاندماج في شخص بونابرت بالمغامر الخائب حتى ان الفكرة العظيمة التي كانت تساوره وهي انه مدعو لاعادة الامبراطورية كانت تتممها عنده دائماً فكرة عظيمة اخرى هي ان الشعب الفرنسي مدعو لسداد ديونه .

ان وزارة بارو – فالو كانت اول وآخر وزارة برلمانية اخرجها بونابرت للوجود . وعلى ذلك كان عزلها يشكل نقطة تحول حاسمة . فقد خسر حزب النظام بها الى غير رجعة حصناً ضرورياً للحفاظ على الحكم البرلماني الا وهو قيادته للسلطة التنفيذية وواضح انه في بلد كفرنسا ، حيث يأتمر بامر السلطة التنفيذية جيش من الموظفين يتجاوز عدده نصف مليون اي ان السلطة التنفيذية تحتفظ لذلك بصورة دائمة بكتلة ضخمة من المصالح والاشخاص في حالة اعتماد مطلق عليها ، وحيث تلف الدولة المجتمع المدني بشباكها وتراقبه وتوجهه وتهيمن عليه وتقوم على اموره ابتداء من اكثر مظاهر حياته شمولا الى اقل حركاته شأناً ، ومن اعم اشكال وجوده الى حياة الافراد الخاصة ، وحيث

تكتسب هذه الهيئة الطفيلية ، من جراء المركزية الخارقة للعادة ، وجوداً كلياً ومعرفة كلية وقدرة على المرونة والحركة المتزايدتين اللتين لا تجدان لهما نداً الا في عدم الاستقلال العاجز للهيئة الاجتماعية الفعليـــة وفي ميوعتهـــا وانعدام شكلها — واضح ان الجمعية الوطنية تخسر في بلد كهذا كل نفوذ حقيقي لها عندما تفقد سيطرتها على توزيع المناصب الوزارية ان لم تعمد في الوقت نفسه الى تبسيط ادارة الدولة وتخفيض جيش الموظفين بقدر الامكان ، واخيراً ان لم تدع المجتمع المدني والراي العام يخلقان اجهزة خاصة بهما مستقلة عن السلطة الحكومية بيد ان **المصالح المادية** للبرجوازية الفرنسية متشابكة اوثق التشابك مع الاحتفاظ بجهاز الدولة الواسع هذا بما له من تشعبات متعددة فهي تجد هنا الوظائف لمن يفيض من بينها وتعوض ، على شكل المرتبات الحكومية ، عما تعجز عن اخذه لجيبها على شكل الارباح والفوائد والريع والمكافئات ومن ناحية اخرى كانت **مصالحها السياسية** قد ارغمتها على ان تزيد كل يـــوم اجراءات القمع ، اي ان تزيد يوميا موارد سلطة الدولـــة وموظفيها ، بينما كان عليها ان تخوض في الوقت نفسه حربا غير منقطعة ضد الرأي العام وان تعمد بدافع الارتياب الى شل الاجهزة المستقلة للحركة الاجتماعية وتعطيلها حيثما لم تنجح في بترها تماما . وهكذا كانت البرجوازية الفرنسية مرغمة بحكم وضعها الطبقي على ان تبيد شروط وجود كل سلطة برلمانية ، وبالتالي سلطتها البرلمانية هي ايضا ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ان تجعل السلطة التنفيذية المعادية لها سلطة قاهرة

لقد دعيت الوزارة الجديدة باسم وزارة دوبول وليس معنى هذا ان الجنرال دوبول قد تسلم منصب رئيس الوزراء .

بل ان بونابرت قد عمد بالاحرى – وفي نفس الوقت الذي اقال فيه بارو – الى الغاء هذا المقام الذي كان يحكم على رئيس الجمهورية فصلا بان يظل في وضع الصفر القانوني الذي يكون فيه الملك الدستورى ، ولكن ملك دستوري بلا عرش ولا تاج ، بلا صولجان ولا سيف ، بلا امتياز حصانة وبلا حيازة وراثية على مقام في الدولة ، – واسوأ ما في الامر – بلا مخصصات كانت وزارة دوبول تضم شخصا واحداً فحسب ذا مكانة برلمانية وهو المرابي فولد ، الذي كان من اسوأ رجال اريستقراطية المال ذكراً . وقد نال منصب وزير المالية. ولو رجع المرء الى لوائح اسعار بورصة باريس لوجد ان الاوراق المالية الفرنسية ، اعتباراً من اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ فصاعداً ، كانت ترتفع وتهبط تبعاً لارتفاع مكانة بونابرت وهبوطها وهكذا ما ان وجد بونابرت حليفاً له في البورصة حتى استولى في الوقت نفسه على الشرطة بتعيين كارلييه مديراً لشرطة باريس .

بيد ان النتائج التي اسفر عنها تغيير الوزارة لم يكن ممكناً ان تظهر الا في مجرى التطور . في بداية الامر لم يسر بونابرت هذه الخطوة الى الامام ليُدفَع الى الوراء على نحو اشد جلاء وقد اردف رسالته الفظة تلك ببيان في منتهى التذلل يعلن فيه ولاءه للجمعية الوطنية . وكلما كان الوزراء يجرؤون على القيام بمحاولة وجلة لاضفاء شكل مشاريع القوانين على اهوائه الشخصية ، كان يبدو انهم يقومون رغما عن ارادتهم وبحكم مناصبهم فحسب بمأموريات مضحكة كانوا مقتنعين سلفاً بعدم جدواها وكلما كان بونابرت يهذر في الكلام عن مقاصده من وراء ظهور وزرائه ويلعب بـ «idées napoléoniennes» الخاصة به (٨٩) كان وزراؤه

هو يتنصلون منه من على منبر الجمعية الوطنية وكان يبدو كانه لا يعرب عن شهواته الاغتصابية الا لكي لا تسكت الضحكات الشامتة التي يطلقها اعداؤه . كان يتصرف كانه عبقري غير معترف به وتنظر اليه الدنيا كلها نظرتها الى ابله لم يسبق له قط ان تمتع من قبل باحتقار جميع الطبقات الى مدى اعظم مما حدث في هذه الفترة . ولم يسبق للبرجوازية ان حكمت حكما اكثر استبداداً ، ولم يسبق لها ان عرضت على الملأ شعائر سلطانها بهذا القدر من المباهاة

ليس من شاني هنا ان اكتب تاريخ نشاطها التشريعي ، وهو النشاط الذي يتلخص في هذه الفترة في قانونين القانون الذي يعيد فرض ضريبة الخمور وقانون التعليم الذي يلغي الالحاد واذا كانت البرجوازية تعرقل استهلاك الفرنسيين للخمر ، فانها عمدت مقابل ذلك الى منحهم ماء الحياة الطاهرة على نحو اوفر واغزر . واذا كانت البرجوازية ، باصدار القانون الخاص بضريبة الخمور ، قد اعلنت نظام الضرائب القديم المقيت نظاماً مصوناً ، فهي قد سعت بواسطة قانون التعليم الى ان تضمن بين الجماهير بقاء الحالة العقلية القديمة التي تتيح لها احتمال نظام الضرائب هذا وان المرء ليدهش اذ يرى الاورليانيين ، البرجوازيين الليبيراليين ، اتباع الفولتيرية والفلسفة الاختيارية القدامى هؤلاء ، يعهدون الى اعدائهم الالداء التقليديين ، اليسوعيين ، بالاشراف الروحي على الفرنسيين . وايا كانت الخلافات بين الاورليانيين والشرعيين فيما يتصل بامر المدعي بالعرش ، فقد كانوا يدركون ان حكمهم الموحد يقتضي توحيد وسائل القمع في العهدين وان وسائل الاستعباد التي اتبعت في عهد ملكية تموز

(يوليو) كان يبغي ان تكمل وتعزز بوسائل الاستعباد التي ابتعث في عهد العودة .

اما الفلاحون ، الذين خيب جميع آمالهم وسحقهم اكثر من اي وقت مضى هبوط اسعار القمح من جهة والعبء المتزايد للضرائب وديون الرهن من جهة اخرى ، فقد بدأوا يتحركون في المقاطعات . وقد اجيبوا على ذلك بحملة ضد اساتذة المدارس الذين اخضعوا لرجال الاكليروس وبحملة ضد رؤساء البلديات الذين اخضعوا لحكام المقاطعات واخيراً بنظام التجسس الذي اخضع له الجميع . وفي باريس والمدن الكبرى تتسم الرجعية ذاتها بسيماء عصرها وهي تزعج اكثر مما تضغط وفي الريف تصبح خسيسة ، خشنة ، تافهة ، متعبة ومزعجة ، وبكلمة واحدة جندرمة . وفي وسع المرء ان يدرك كيف ان ثلاث سنوات من حكم الجندرمة ، يكرسها حكم القسيس ، كان لا بد لن تفسد اخلاق الجماهير غير الناضجة .

ومهما كان مبلغ الانفعال او الخطب الحماسية التي كان حزب النظام يلجا اليها ضد الاقلية من على منبر الجمعية الوطنية فان كلامه ظل ذا مقطع واحد ككلام المسيحيين الذين كان عليهم ان يقولوا : نعم ، نعم ، لا ، لا ! كذلك على المنابر كما في الصحافة ، غث كلغز حله معروف سلفاً . وسواء كان الامر يتعلق بحق الالتماس او ضريبة الخمور ، بحرية الصحافة او التجارة ، بالنوادي او دستور البلديات ، بضمان الحرية الشخصية او تحديد ميزانية الدولة ، فان كلمة السر الواحدة تتكرر دائماً والموضوع يبقى واحداً على الدوام ، والحكم جاهز ابداً ، وهو دائما بلا تغيير «الاشتراكية !» . حتى الليبيرالية البرجوازية كانوا يعلنونها اشتراكية ، والاستنارة البرجوازية والاصلاح المالي

البرجوازي اشتراكية لقد كانت اشتراكية ان تبنى سكة حديد حيثما كانت قناة من قبل ، وكانت اشتراكية ان يدافع المرء عن نفسه بخيزرانة حين يهاجمه احد بالشيش .

لم يكن هذا مجرد جملة او موضة او اسلوب في النضال الحزبي . فان البرجوازية ادركت ادراكا صحيحا ان جميع انواع الاسلحة التي اعدتها لمحاربة الاقطاع قد ادارت رؤوسها ضدها هي وان جميع وسائل التعليم التي اوجدتها قد ثارت ضد مدنيتها هي وان جميع الالهة التي خلقتها قد تخلت عنها لقد فهمت ان كل ما يدعى بحريات المواطنين واجهزة التقدم كانت تتطاول على حكمها الطبقي وتهدده من جانب اساسه الاجتماعي وقمته السياسية في الوقت نفسه ، وانها اصبحت لهذا السبب «اشتراكية» . وفي هذا التهديد وهذا التطاول رأت بحق سر الاشتراكية التي قدرت معناها واتجاهها باصح مما تقدر نفسها هذه التي تدعى بالاشتراكية والتي لا تستطيع ان تفهم لهذا السبب لماذا يقسو قلب البرجوازية كل هذه القسوة عليها ، سواء وهي تندب آلام البشريـــة على نحو مؤثر ، او تعظ عظة مسيحية حول العصر الالفي السعيد والمحبة الاخوية الشاملة ، او تلغو حول الروح والتعليم والحرية على طريقة اهل البر والانسانية ، او تعمد كدأب النظريين المتحذلقين الى اختلاق نظام للتوفيق ونشر الرخاء بين جميع الطبقات بيد ان البرجوازية لم تدرك شيئا واحداً هو ان نظامها البرلماني نفسه ، وان سيطرتها السياسية بصورة عامة ، اذا كنا منسجمين في المحاكمة ،لا بد لهما الآن ان يتعرضا ايضاً للشجب العام بوصفهما شيئا اشتراكيا وطالما ان سيطرة البرجوازية لم تنظم تنظيما تاما بعد ، وطالما انها لم تكتسب التعبير السياسي الخالص ، فان التناحر بين البرجوازية وبين الطبقات الاخرى لم يكن يستطيع

كذلك ان يظهر في شكله الخالص ولم يكن ، حيثما ظهر ، يستطيع ان يتجه الاتجاه الخطير الذي يتحول معه كل صراع ضد سلطة الدولة الى صراع ضد رأس المال . واذا كانت البرجوازية ترى في كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية تهديداً «للسكينة» فكيف كانت تريد ان تحتفظ على رأس هذا المجتمع بنظام القلق ، بنظامها هي بالذات ، النظام البرلماني ، هذا النظام الذي يعيش ، على حد تعبير احد الناطقين باسمهـا ، في الصراع وبالصراع ؟ وكيف يستطيع النظام البرلماني الذي يعيش بالنقاش ، ان يمنع النقاش ؟ ان كل مصلحة وكل اجراء اجتماعي يتحولان هنا الى فكرة عامة ، ويُعتبران فكرة ، فكيف يتسنى لاية مصلحة او اية اجراءات ان تُنصّب فوق التفكير وتفرض كرمز للايمان ؟ ان كفاح الخطباء على المنابر يستتبع كفاح المشبّجين على صفحات الجرائد ، ونـادي النقاش في البرلمان تكمله بالضرورة نوادي النقاش في الصالونات والحانات والنواب الذين يرجعون على الدوام الى الرأي العام يعطون بالتالي الرأي العام الحق في الافصاح عن وجهات نظره الحقيقية في العرائض . ان النظام البرلماني يترك كل شيء لقرار الاكثرية ، فكيف لا ترغب الاكثرية العظمى خارج البرلمان في اتخاذ القرارات ؟ اذا كان رب الحكم ضارباً بالدف فما عسى ان ننتظر ممن هم دونه غير الرقص ؟

وهكذا فان البرجوازية ، اذ تصم الآن «بالاشتراكية» ما كانت تمجده سابقاً باعتباره «ليبيراليا» ، تعترف بان مصالحها الخاصة تملي عليها ان تتخلص من خطر حكمها ذاتها ، وبضرورة تسكين برلمانها البرجوازي بادئ ذي بدء من اجل اعادة السكينة الى البلاد ، وبان سلطتها السياسيـة ينبغي ان تكسر بغيـة المحافظة على سلطتها الاجتماعية دون مساس ، وبان البرجوازيين

الافراد يستطيعون ان يواصلوا استغلالهم للطبقات الاخرى وان يتمتعوا دونما ازعاج بخيرات الملكية والعائلة والدين والنظام ولكن بشرط ان يحكم على البرجوازية بوصفها طبقة ، شانها في ذلك شان الطبقات الاخرى ، بالتفاهة السياسية المتساوية ، وبانه يجب خلع التاج عنها لكي تحافظ على محفظتها ، وبان السيف الذي يحميها ينبغي ، في الوقت ذاته ، ان يظل مسلطا فوق راسها كسيف داموكليس .

اما في مجال المصالح العامة للبرجوازية فقد اثبتت الجمعية الوطنية انها عديمة الانتاج تماماً حتى ان المناقشات بشأن بناء سكة حديد باريس ـ افينيون ، على سبيل المثال ، وهي التي بدأت في شتاء ١٨٥٠ ، لم تكن ناضجة بعد للختام في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ . فحيثما لم تكن الجمعية الوطنية تقمع او تسلك مسلكاً رجعيا كانت مصابة بعقم لا شفاء منه

بينما كانت وزارة بونابرت ، من جهة ، تأخذ زمام المبادرة في صياغة القوانين وفقا لروح حزب النظام وتشدد من جهة اخرى قساوة تنفيذ هذه القوانين ، كان بونابرت يسعى ، من جهته الى كسب الشعبية بما يقدمه من مقترحات صبيانية سخيفة مظهراً عداوته للجمعية الوطنية وملمحا الى دفينة سرية حالت الظروف موقتا فحسب دون ان يفتح كنوزها هذه للشعب الفرنسي من هذا القبيل كان الاقتراح القاضي بزيـادة رواتب ضباط الصف بمقدار ٤ سوات * يوميا ومن هذا القبيل كان مشروع «مصرف الشرف» لاقراض العمال المال موهوبا والمال مدانا ـ هذه هي

* سو ـ sou ـ الجزء العشرون من الفرنك او خمسة سنتيمات . المترجم .

الآفاق التي كان يعلل النفس بأن يغوي بها الجماهير الهبات والقروض ، ان الفن المالي لحثالة البروليتاريا – سواء كانوا من درجة عالية او واطئة – لم يكن يتعدى هذا هذه هي اللوالب الوحيدة التي كان بونابرت يعرف كيف يحركها . ولم يسبق من قبل ان ضارب مدع على سفالة الجماهير بمثل هذه السفالة

ان الجمعيـــة الوطنية قد ثارت مراراً وتكراراً على هذه المحاولات التي لا لبس فيها لكسب الشعبية على حسابها في ظروف خطر متزايد كان يتمثل في احتمال مجازفة هذا المغامر الذي كانت تنخسه ديونه والذي لم تكن تردعه سمعة راسخة – بعمل يائس .كانت الخلافات بين حزب النظام والرئيس توشك ان تتخذ طابعاً خطيراً عندما ألقى به حادث غير منتظر مرة اخرى تائباً بين ذراعي الحزب . ونعني بذلك **الانتخابات الاضافية في العاشر من آذار (مارس) سنة ١٨٥٠** لقد اجريت هذه الانتخابات بغية ملء مقاعد النواب التي شغرت بعد الثالث عشر من حزيران (يونيو) بسبب السجن او النفي . ان باريس لم تنتخب الا المرشحين الاشتراكيين الديموقراطيين بل انها ركزت معظم الاصوات على احد المشتركين في انتفاضة حزيران (يونيو) ١٨٤٨ ، على ديفلوت . وهكذا ثارت البرجوازية الصغيرة الباريسية ، بالتحالف مع البروليتاريا ، للهزيمة التي حاقت بها في الثالث عشر من حزيران (يونو) ١٨٤٩ . وبدا ان البرجوازية الصغيرة ما اختفت من ميدان القتال في لحظة الخطر الا لتظهر هناك من جديد في ظروف اكثر مؤاتاة ، حائزة على قوات قتالية اكبر ورافعة شعاراً قتاليا اجرأ . وبدا ان ظرفا واحداً كان قد زاد من خطر هذا النصر الانتخابي : فان الجيش اقترع في باريس لمتمرد حزيران (يونيو) ضد لاهيت ، احد وزراء بونابرت ، واقترع في المقاطعات الى حد

بعيد للجبليين الذين اكدوا هنا ايضاً رجحان كفتهم على خصومهم وان لم يكن بالدرجة الحاسمة التي كان عليها في باريس

وراى بونابرت نفسه فجاة مرة اخرى ازاء ثورة وكما كان الامر في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩ وكما كان في ١٣ حزيران (يونيو) ١٨٤٩ ، كذلك في العاشر من آذار (مارس) ١٨٥٠ اختفى بونابرت وراء حزب النظام . انحنى امتثالا واستماح العذر جبنا وصغاراً واعرب عن استعداده لأن يشكل ، بناء على امر الاكثرية البرلمانية ، اية وزارة ترضى عنها بل انه توسل الى زعماء الاورليانيين والشرعيين ، الى امثال تيير وبريبه وبروغلي وموليه ، وبالاختصار الى من يدعون بالبرجراف (٩٠) ، ان يأخذوا زمام الدولة بايديهم واثبت حزب النظام عجزه عن اغتنام هذه الفرصة التي لن تعود فهو بدلا من ان يستولي بجرأة على السلطة التي عرضت عليه ، لم يرغم بونابرت حتى على اعادة الوزارة التي اقالها في اليوم الاول من تشرين الثاني (نوفمبر). واكتفى باذلالــه بالصفح عنه وبضم المسيو باروش الى وزارة دوبول . وكان باروش هذا ، بصفته مدعياً عاماً ، قد ارغى وازبد امام المحكمة العليا في بورجيه ، المرة الاولى ضد ثوريي الخامس عشر من ايار (مايو) والمرة الثانية ضد ديموقراطيي الثالث عشر من حزيران (يونيو) ، وكلتا المرتين إتهمهم بالاعتداء على الجمعية الوطنية ولم يساهم احد من وزراء بونابرت فيما بعد اكثر منه في الغض من شان الجمعية الوطنية ، وبعد اليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ نصادفه مرة اخرى في ذلك المنصب المريح العالي الاجر ، منصب نائب رئيس مجلس الشيوخ لقد بصق في حساء الثوريين حتى يتمكن بونابرت من التهامه

اما الحزب الاشتراكي - الديموقراطي فقد بدا من جهته ،

وكان لا هم له الا ايجاد الذرائع للمخاطرة بانتصاره مرة اخرى ولتثليم حده . ان فيدال وهو احد النواب الذين انتخبوا حديثا عن باريس ، كان قد انتخب في الوقت نفسه عن ستراسبورغ وقد حمل على ان يرفض النيابة عن باريس وان يقبلها عن ستراسبورغ . وهكذا ، بدلا من ان يجعل الحزب الديموقراطي نصره في الانتخابات نصراً فاصلا ويرغم بذلك حزب النظام فوراً على ان ينازعه اياه في البرلمان ، بدلا من ان يرغم خصمه على القتال ، في لحظة الحماسة الشعبية والجو المؤاتي في الجيش ، عمد هذا الحزب الى اتعاب باريس خلال شهري آذار (مارس) ونيسان (ابريل) بدعاية انتخابية جديدة ، وترك العواطف الشعبية الفائرة تستنفد قوتها في هذه اللعبة الانتخابية الجديدة الموقتة ، واطفا الطاقة الثورية بالنجاحات الدستورية وبعزق هذه الطاقة في المكائد الصغيرة والخطب الطنانــة الجوفــاء والتظاهر بالحركة ، وترك البرجوازية تتمالك نفسها وتأخذ اهبتها ، وهو قد اضعف اخيراً مغزى انتخابات آذار (مارس) بتعليق عاطفي عليها ، بانتخابات نيسان (ابريل) الفرعية ، بانتخاب اوجين سو . وبكلمة واحدة جعل من العاشر من آذار (مارس) كذبة اول نيسان (ابريل)

ان الاكثرية البرلمانية قد فهمت ضعف عدوها وبما ان بونابرت قد ترك لحزب النظام ادارة الهجوم ومسؤوليته فقد اعد البرجرافيون السبعة عشر قانوناً انتخابياً جديداً عهد امر تقديمه الى المسيو فوشيه الذي توسل لينال هذا الشرف . وفي اليوم الثامن من ايار (مايو) قدم فوشيه القانون الذي كان سيلغي حق الاقتراع الشامل ويفرض على الناخبين شرط الاقامة لمدة ثلاث سنوات في الدائرة الانتخابية هذا مع العلم ان اثبات مدة هذه الاقامة كان متوقفاً في حالة العمال على شهادة من ارباب اعمالهم .

واذا الديموقراطيون الذين هاجوا وماجوا كثيراً على نحو ثوري اثناء الكفاح الانتخابي الدستوري ، ياخذون الآن ، وقد اقتضت الامور ان يثبتوا جدية ذلك النصر الانتخابي والسلاح في ايديهم ، يبشرون على نحو دستوري بالنظام والهدوء المهيب (calme majestueux) والاعمال المطابقة للقانون اي الاذعان الاعمى لارادة الثورة المضادة التي ادعت بانها هي القانون وفي اثناء المناقشات خجّل «الجبل» حزب النظام معارضا انفعاله الثوري بموقف التافه الشريف غير المتاثر بالعواطف الذي يراعي حدود القانون ، وبطرحه ذلك الحزب ارضا بتوجيـــه التانيب المخيف له بانّه يتصرف بطريقة ثورية . وحتى النواب المنتخبين حديثا بذلوا قصاراهم ليثبتوا بسلوكهم المحتشم الرزين مبلغ الخطل في التنديد بهم على اعتبـــار انهم فوضويـــون وتفسير انتخابهم بانه نصر للثورة وفي اليوم الحادي والثلاثين من ايار (مايو) اقر قانون الانتخاب الجديد ، واكتفى «الجبل» بدس احتجاج للرئيس خلسة واعقب قانون الانتخاب قانون جديد للصحافة اخمدت بموجبه الصحافة الثورية تماما (٩١) وقد استحقت هذه الاخيرة مصيرها وبعد هذه الهزيمة الشنعاء لم يبق غير صحيفتي «National» و «Presse» (٩٢) البرجوازيتين باعتبارهما اكثر المراكز الامامية للثورة تقدما

لقد رأينا كيف ان الزعماء الديموقراطيين فعلوا كل شيء خلال شهري آذار (مارس) ونيسان (ابريل) ليورطوا سكان باريس في قتال صوري وكيف انهم فعلوا كل شيء بعد الثامن من ايار (مايو) ليصدوهم عن القتال الحقيقي وفضلا عن هذا لا يجوز ان ننسى ان سنـــة ١٨٥٠ كانت من اروع سنوات الازدهار الصناعي والتجاري وان العمل كان لذلك متوفراً تماما

لبروليتاريا باريس غير ان قانون الانتخاب الصادر في الحادي والثلاثين من ايار (مايو) ١٨٥٠ حرمها من اية مساهمة في السلطة السياسية وعزلها حتى عن حلبة الصراع ذاتها . وقد رد هذا القانون العمال الى مركز المنبوذين الذي كانوا يحتلونه قبل ثورة شباط (فبراير) واذ سمح العمال بان يقودهم الزعماء الديموقراطيون في وجه حدث كهذا الحدث ونسوا المصالح الثورية لطبقتهم من اجل الرخاء الوقتي فقد تخلوا عن شرف كونهم قوة ظافرة واستسلموا لمصيرهم واثبتوا ان هزيمة حزيران (يونيو) ١٨٤٨ قد جعلتهم عاجزين عن القتال لسنوات طويلة وان العملية التاريخية كان لا بد لها في الوقت القريب ان تمضي مرة اخرى من فوق رؤوسهم . اما الديموقراطية البرجوازية الصغيرة التي صرخت في الثالث عشر من حزيران (يونيو) « ليتجاسروا على مس حق الاقتراع الشامل ، ليتجاسروا وان مرة ! » فانها قد عزت نفسها الآن بالادعاء القائل ان الضربة التي هوى عليها بها اعداء الثورة لم تكن ضربة وان قانون الحادي والثلاثين من ايار (مايو) لم يكن قانونا ففي يوم الاحد الثاني من شهر ايار (مايو) ١٨٥٢ سيظهر كل فرنسي في مركز الاقتراع وقد حمل بطاقة الاقتراع بيد وحمل السيف باليد الاخرى كانت تعزي نفسها بهذه النبوءة . واخيراً كان الجيش قد ضبطه رؤساؤه لانتخابات آذار (مارس) ونيسان (ابريل) ١٨٥٠ تماما كما ضبطوه لانتخابات ٢٨ ايار (مايو) ١٨٤٩ بيد انه في هذه المرة قال لنفسه حازماً « ولن تخدعنا الثورة مرة ثالثة »

ان قانون ٣١ ايار (مايو) سنة ١٨٥٠ كان coup d'état قامت به البرجوازية . ان جميع انتصاراتها السابقة على الثورة

كان لها طابع موقت فحسب . وكانت تتعرض للخطر حالما كانت الجمعية الوطنية القائمة تنسحب من المسرح وكانت تعتمد على المصادفات التي يحملها اي انتخاب عام جديد معه وتاريخ الانتخابات منذ عام ١٨٤٨ اثبت بصورة لا تدحض ان سلطان البرجوازية الادبي على الجماهير الشعبية كان يضعف بنفس المقدار الذي كانت تزداد به سيطرتها الفعليـــة في العاشر من آذار (مارس) ظهر ان حق الاقتراع الشامل يعارض سيطرة البرجوازية معارضة مباشرة . فاجابت البرجوازية على ذلك بالغاء حق الاقتراع الشامل . ولذا كان قانون ٣١ ايار مظهراً من المظاهر الملازمة للصراع الطبقي ومن ناحية اخرى كان الدستور يستلزم حداً ادنى يبلغ مليوني صوت لجعل انتخاب رئيس الجمهورية صالحاً . فاذا لم ينل احد المرشحين للرئاسة هذا الحد الادنى كان على الجمعية الوطنية ان تختار الرئيس من بين المرشحين الخمسة الذين يفوزون باكبر عدد من الاصوات . وعندما اعدت الجمعية التاسيسية هذا القانون كان عدد الناخبين المسجلين في جداول الاقتراع عشرة ملايين . وعلى هذا كان خمس الناس الذين يحق لهم الاقتراع يكفي ، بموجب هذا القانـــون ، لجعل انتخـــاب الرئيس صالحاً . ان قانون ٣١ ايار (مايو) شطب ثلاثة ملايين صوت على الاقل مـــن الجداول الانتخابيـــة وخفض عدد الذين يتمتعون بحق الاقتراع الى سبعة ملايين وابقى مع ذلك الحد الادنى القانوني – وهو مليونان – اللازم لانتخاب الرئيس . ولذلك ارتفع الحد الادنى القانوني من خمس الاصوات الانتخابية جميعاً الى حوالى الثلث اي بكلمة اخرى ، فعل هذا القانون كل شيء لتهريب انتخاب الرئيس من ايدي الشعب الى ايدي الجمعية الوطنية . وهكذا يبدو ان حزب النظام قد حصن حكمه بقانون

٣١ ايار (مايو) الانتخابي مرتين ، وذلك بتسليم انتخاب نواب الجمعية الوطنية وانتخاب رئيس الجمهورية الى القسم المحافظ في المجتمع .

•

وما أن مرت الازمة الثورية وأُلغي حق الاقتراع الشامل حتى نشب الصراع ثانية بين الجمعية الوطنية وبونابرت

حدد الدستور مرتب بونابرت بـ٦٠٠٠٠٠ فرنك ولم تكد تمضي ستة اشهر على تنصيبه حتى نجح في زيادة هذا المبلغ الى الضعف لان اوديلون بارو انتزع من الجمعية التاسيسية علاوة اضافية قدرها ٦٠٠ فرنك سنويا لسد نفقات ما يسمى بنفقات التمثيل . وبعد اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو) تقدم بونابرت بطلبات مماثلة ولكن دون ان يجد في هذه المرة اذنا صاغية لدى بارو . والآن ، بعد الحادي والثلاثين من ايار (مايو) ، استغل بونابرت على الفور اللحظة المؤاتية وجعل وزراءه يقترحون في الجمعية الوطنية مخصصات للرئاسة تبلغ ثلاثة ملايين فرنك سنويا ان حياة طويلة من التشرد والمغامرة قد اكسبته حاسة شديدة للغاية لاقتناص لحظات الحرج التي يمكن ان يعتصر فيها المال من البرجوازيين كان يزاول الابتزاز حقا وفعلا . كانت الجمعية الوطنية قد انتهكت سيادة الشعب بمساعدته وباطلاعه ، فهدد بشجب جريمتها امام محكمة الشعب ما لم تحل كيسها وتشتر سكوته بثلاثة ملايين فرنك سنويا وقد سلبت الجمعية الوطنية ثلاثة ملايين فرنسي حقهم الانتخابي فطلب ، مقابل كل فرنسي وضع خارج التداول السياسي ، فرنكا واحدا قيد التداول اي ثلاثة ملايين

فرنك بالتمام . وطالب ، وهو منتخب ستة ملايين ، بتعويضات عن الاصوات التي قال انها سرقت منه بالغش في وقت لاحق ورفضت لجنة الجمعية الوطنية طلب هذا الملحاح . واخذت الصحافة البونابرتية تهدد هل في وسع الجمعية الوطنية ان تقطع صلاتها مع رئيس الجمهورية في لحظة كانت قد قطعت فيها ، من حيث المبدأ ، صلاتها مع جمهور الامة بصورة نهائية ؟ صحيح انها رفضت المخصصات السنوية ولكنها منحت لمرة واحدة علاوة اضافية قدرها مليونان ومائة وستون الف فرنك وهكذا ادانت نفسها بضعف مزدوج بمنحها المال وباظهارها في الوقت ذاته ، بالضيق الذي ابدته ، انها منحتـــه على غير ارادتها . وسوف نرى فيما بعد لاي غرض كان بونابرت يحتاج هذا المال بعد هذه العاقبة المزعجة التي جاءت في اثر الغاء حق الاقتراع الشامل ، والتي استعاض فيها بونابرت عن الموقف المتواضع الذي وقفه ابان ازمة آذار (مارس) ونيسان (ابريل) بالتحدي الوقح للبرلمان الغاصب ، اجلت الجمعية الوطنيـــة جلساتها ثلاثة اشهر من ١١ آب (اغسطس) حتى ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) وخلفت مكانها لجنة دائمة مؤلفة من ثمانية وعشرين عضواً لم تكن تضم بونابرتيين ولكنها قد ضمت بعض الجمهوريين المعتدلين ان اللجنة الدائمة لسنة ١٨٤٩ ضمت اعضاء حزب النظام وبونابرتيين فحسب بيد ان حزب النظام قد اعلن آنذاك انه ضد الثورة بصفة دائمة وفي هذه المرة اعلنت الجمهورية البرلمانية انها ضد الرئيس بصفة دائمة وبعد قانون ٣١ ايار (مايو) كان هذا هو المنافس الوحيد الذي ما زال يواجه حزب النظام .

عندما انعقدت الجمعية الوطنية مرة اخرى في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٠ ، بدا انه هذا لا مناص من نشوب صراع كبير قاس ، صراع حياة او موت بين السلطتين ، بدلا من المناوشات الطفيفة التي قامت حتى الآن بين البرلمان والرئيس .

وكما في سنة ١٨٤٩ ، كذلك اثناء العطلة البرلمانية لعام ١٨٥٠ انقسم حزب النظام الى كتل متفرقة انهمكت كل واحدة بمكائدها لاعادة الملكية ، وهي المكائد التي حصلت على غذاء جديد بوفاة لويس فيليب . بل ان ملك الشرعيين ، هنـــري الخامس ، عين وزارة رسمية اتخذت باريس مقراً لها وشغل بعض الاعضاء في اللجنة الدائمة مقاعد فيها . ولهذا كان من حق بونابرت ، بدوره ، ان يقوم برحلات في المقاطعات الفرنسية يفشي فيها مشاريع الاعادة الخاصة به بقدر متفاوت من الصراحة ويتصيد الاصوات الانتخابية لنفسه وفقا لمزاج المدينة التي كان يسعدها بحضوره . وفي هذه المواكب ، التي كانت تحتفل بها الصحيفة الرسميـــة الكبرى «Moniteur» والصحف الصغـــرى الخصوصية التابعة لبونابرت بطبيعة الحال بوصفهـــا مواكب ظفر ، كان يرافقه دائما اشخاص ينتمون الى **جمعية العاشر من كانون الاول** (ديسمبر) وهذه الجمعية يرجع تاسيسها الى سنة ١٨٤٩ فبحجة تاسيس جمعية خيرية تم تنظيم حثالة البروليتاريا في باريس في اقسام سرية يقود كل قسم منها وكلاء بونابرتيون ويراس الجميع جنرال بونابرتي وجنبا الى جنب مع الفجرة الذين بددوا اموالهم والمشكوك في وسائل معاشهم والمشكوك في اصلهم ومع المغامرين المنفلتين من اوباش البرجوازية الفاجرين كان هنالك متشردون وجنود مسرحون وزبائن سجون مطلقو السراح وهاربون من الاشغال الشاقة ونصابون ومشعوذون

ومتسكعون (٩٣) ونشالون ومحتـالون ومقامـرون وقوادون واصحاب مواخير وحمالون ونساخون وضاربو ارغن وجامعو اسمال وسنانو سكاكين ولحامو معادن ومتسولون — وباختصار كل هذا الجمهور السائب ، المتنوع ، غير المحدد الذي تدفعه الظروف هنا وهناك والذي يسميه الفرنسيون la bohème* . من هذه العناصر القريبة منه ، كوّن بونابرت نواة جمعيـة العاشر من كانون الاول — «جمعية خيرية» — اذ كان يشعر جميع اعضائها ، شأنهم شأن بونابرت ، بالحاجة الى اجتلاب الخيرات لانفسهم على حساب قسم الامة الكادح . وبونابرت هذا الذي يجعل من نفسه رئيساً لحثالة البروليتاريا والذي يرى فيها وحدها انعكاساً جماعياً لمصالحه الشخصية والذي يرى في هذا الزبد والسقط والقمامة من جميع الطبقات الطبقـة الوحيدة التـي يستطيع ان يستند اليها دون قيـد او شرط ، هو بونـابرت الحقيقي ، بونابرت sans phrase** . انه ، وهو الفاسق الماكر القديم ، ينظر الى الحياة التاريخية للشعوب والى جميع المآسي التي تحملها هذه الحياة نظرته الى ملهاة باكثر المعاني ابتذالا والى مسخرة لا تقصد الملابس الفخمـة والكلمـات والمواقف فيها الا ان تخفي احقر النذالات فهكذا في غزوة ستراسبورغ ادى عقاب سويسري مدرب دور النسر النابوليوني والنناء الغارة التي شنها على بولون ، ألبس بعض الخدم اللندنيين البزات العسكرية الفرنسية انهم كانوا يمثلون الجيش (٩٤) . وفي جمعية العاشر من كانون الاول حشد عشرة آلاف من الاوغاد

---

* بوهيما الناشر .

** دون زينة . الناشر .

عليهم ان يؤدوا دور الشعب كما نرى نك بوتوم ان يؤدي دور الاسد . وفي اللحظة التي كانت البرجوازية نفسها تؤدي فيها الملهاة باتم صورها ، ولكن باكثر المظاهر جدية ، دون ان تخرق اي شرط من الشروط المتحذلقة لاصول فن الدراما في فرنسا ، وكانت هي نفسها ما بين منخدعة ومقتنعة بمهابة المسرحية التي تقوم بها ، كان لا بد للمغامر ، وهو الذي اخذ الملهاة مجرد ملهاة ، ان ينتصر . وهو لم يغدُ فريسةً لفكرته الخاصة عن العالم ، وهو المهرج الجاد الذي لم يعد يعتبر تاريخ العالم ملهاة بل الملهاة التي يقوم بها تاريخ العالم ، الا عندما قضى على خصمه الوقور ، عندما صار ياخذ بنفسه الآن دوره الامبراطوري بصورة جدية ويتصور وهو تحت القناع النابوليوني انه نابوليون الحقيقي . وقد كانت جمعية العاشر من كانون الاول ، وهي القوة المقاتلة الحزبية التي يتميز بها بونابرت ، تقوم عنده مقام المشاغل الوطنية عند العمال الاشتراكيين والحرس المتنقل عند الجمهوريين البرجوازيين . في اثناء رحلاته كان على قطعات هذه الجمعية المرصوصة في محطات السكك الحديدية ان ترتجل جمهوراً له وان تمثل مناظر الحماسة العمومية وان تزار «Vive l'Empereur!»* وان تهين الجمهوريين وتضربهم ، بحماية البوليس بالطبع . وفي رحلات ايابه الى باريس كان عليها ان تؤلف حرس الطليعة ، ان تستبق المظاهرات المعاكسة او تفرقها . ان جمعية العاشر من كانون الاول كانت تخصه ، كانت عمله ، كانت فكرته الخاصة بالذات . اما كل ما يحوزه فيما عدا ذلك ، فقد وضع بيديه بحكم الظروف . وكل ما يفعله فيما عدا ذلك ،

---

* «عاش الامبراطور !» الناشر .

تفعله الظروف له او يكتفي بالنسخ عن اعمال الآخرين بيد ان بونابرت بالعبارات الرسمية حول النظام والدين والعائلة والملكية تقال علناً وعلى ملأ من البرجوازيين بينما يستند سراً الى جمعية شوفتيرله وشبيغلبرغ واضرابهما ، جمعية الفوضى والدعارة والسرقة - انما هو بونابرت نفسه في صفة المؤلف الاصلي ، وتاريخ جمعية العاشر من كانون الاول هو تاريخه الخاص لقد حدث ذات مرة حادث خارق : فان بعض النواب من حزب النظام وقع تحت هراوات اعضاء جمعية العاشر من كانون الاول بل اكثر من ذلك فان يون ، مفوض الشرطة المكلف بالسهر على سلامة الجمعية الوطنية ، ابلغ اللجنة الدائمة ، استناداً الى تصريح من شخص يدعى آليه ، ان فرعاً من فروع جمعية العاشر من كانون الاول قرر اغتيال الجنرال شانغارنييه ودوبان ، رئيس الجمعية الوطنية ، وانه قام بالفعل بتعيين الاشخاص الذين كان عليهم تنفيذ هذا الفعل . ويستطيع المرء ان يتصور مدى الجزع الذي تملك المسيو دوبان وبدا انه لا مناص من القيام بتحقيق برلماني يتناول جمعية العاشر من كانون الاول ، اي من فضح العالم البونابرتي السري وقبيل انعقاد الجمعية الوطنية عمد بونابرت ، على سبيل التحوط ، الى تسريح جمعيته ، على الورق فحسب بطبيعة الحال ، وذلك لان مدير الشرطة كارلييه كان ما يزال يسعى عبثاً في مذكرة تفصيلية وضعها في نهاية عام ١٨٥١ الى دفعه الى حل هذه الجمعية بصورة حقيقية .

وكان لجمعية العاشر من كانون الاول ان تبقى جيش بونابرت الخصوصي حتى نجح في تحويل جيش الدولة الى جمعية العاشر من كانون الاول وقد قام بونابرت بالمحاولة الاول في هذا الصدد بعد ارفضاض الجمعية الوطنية بوقت قصير وبالمال ذاته

الذي اغتصبه منها . وهو ، بوصفه قدريا ، يعيش في العقيدة القائلة ان هنالك قوى علوية معينة لا قبل للانسان ، وخاصة الجندي ، بمقاومتها ، وهو يعد من بين هذه القوى اولا وقبل كل شيء لفافات السيجار والشمبانيا ولحم الطيور البارد والمقانق المحشوة بالثوم . وبناء على ذلك ، عمد بادئ ذي بدء الى تضييف الضباط وضباط الصف في مقاصير الايليزيه لفافات السيجار والشمبانيا ولحم الطيور البارد والمقانق المحشوة بالثوم . وفي الثالث من تشرين الاول (اكتوبر) ، اعاد هذه المناورة مع جمهرة من الجنود في استعراض سان-ماور ، وفي العاشر من تشرين الاول كرر المناورة نفسها على نطاق اكبر في استعراض الجيش الرئيسي في ساتوري . لقد تذكر العم حملات الاسكندر في آسيا وتذكر ابن اخيه زحوف باخوس المظفرة في البلاد ذاتها . صحيح ان الاسكندر كان نصف اله ولكن باخوس كان الها حقيقيا بل كان الاله الحامي لجمعية العاشر من كانون الاول (ديسمبر)

بعد استعراض الثالث من تشرين الاول (اكتوبر) ادانت اللجنة الدائمة وزير الحربية دوبول فوعد بالا يتكرر هذا الخرق للانضباط . ونحن نعرف كيف حافظ بونابرت في العاشر من تشرين الاول على كلمة دوبول ان شانغارنييه ، بوصفه قائداً عاما لجيش باريس ، قد قاد الاستعراضين وهو ، اذ كان في وقت واحد عضواً في اللجنة الدائمة ورئيساً للحرس الوطني و«منقذ» ٢٩ كانون الثاني (يناير) و١٣ حزيران (يونيو) و«حصن المجتمع» ومرشح حزب النظام لشرف الرئاسة و«مونك» المظنون لملكيتين ، لم يعترف حتى الآن مطلقا بانه دون وزير الحربية منزلة وكان يزدري دائما الدستور الجمهوري بصورة مكشوفة ويتتبع بونابرت بحماية مبهمة فيها استعلاء . وقد استبدت به

الآن الحماسة للجنود عن الانضباط ضد وزير الحربية ومن الدستور ضد بونابرت . وبينما كان فريق من الفرسان في العاشر من تشرين الاول (اكتوبــر) يصيحون «Vive Napoléon! Vivent les saucissons!»* وضع شانغارنييه ترتيباً لجعل المشاة الذين يمرون امام المنصة تحت قيادة صديقه نيماير على الاقل يراعون الصمت المطبق وعقاباً على ذلك أعفى وزير الحربية الجنرال نيماير من وظيفته في باريس بتحريض من بونابرت ، بحجة تعيينه قائداً عاماً للفرقتين العسكريتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة وقد رفض نيماير هذا التبادل في الوظائف فكان عليه بذلك ان يستقيل اما شانغارنييه فقد اذاع من جانبه امراً في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) منع فيه الجنود من الانغماس في الصراع السياسي او المظاهرات من اي نوع ما داموا تحت السلاح . وهاجمت جرائد الايليزيه (٩٥) شانغارنييــه وهاجمت جرائد حزب النظام بونابرت ، وعقدت اللجنة الدائمة جلسات سرية متكررة اقترح فيها تكراراً اعلان الوطن في خطر . وبدا ان الجيش انقسم الى معسكرين متعاديين لهما هيئتان متعاديتان للاركان العامة ، واحدة في الايليزيه حيث كان يسكن بونابرت والاخرى في التويلري حيث كان مقر شانغارنييه وبدا ان انعقاد الجمعية الوطنية قد يغدو الاشارة للمعركة وحكم الجمهور الفرنسي على هذا الاحتكاك بين بونابرت وشانغارنييه كما فعل ذلك الصحفي الانجليزي الذي حدّد الوضع بالكلمات التالية :

«ان خادمات منزل فرنسا السياسيات يكنسن حمم الثورة بمكانس عتيقة ويتشاجرن الواحدة مع الاخرى وهن يؤدين عملهن»

---

* «عاش نابوليون ! عاشت المقانق !» الناشر .

وفي هذه الاثناء بادر بونابرت الى اقالة وزير الحربية دوبول وارساله باقصى السرعة الى الجزائر وتعيين الجنرال شرام وزيراً للحربية مكانه . وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) بعث الى الجمعية الوطنية برسالة اميركية الاسهاب ، مشحونة بالتفاصيل ، عابقة بشذا النظام ، راغبة في المصالحة ، مذعنة للدستور تتناول كل شيء اجمالا وافراداً ما عدا questions brûlantes * في الوقت الراهن . وكانما بصورة عابرة ابدى ملاحظة مفادها ان التصرف في الجيش ، وفق احكام الدستور الصريحة ، هو من شان الرئيس وحده . واختتمت الرسالة بهذه الكلمات المهيبة :

«ان فرنسا تطالب ، قبل كل شيء ، بالسكينة ... وبما انني وحدي مرتبط بقسم فسوف التزم الحدود الضيقة التي رسمها لي ... وبقدر ما يتعلق الامر بي ، بوصفي منتخباً من قبل الشعب وادين له وحده بالسلطة ، فاني سانحني دائما لارادته المعبر عنها بصورة شرعية فاذا ما استقر رأيكم في هذه الدورة على اعادة النظر في الدستور فسوف تتولى الجمعية التاسيسية تنظيم وضع السلطة التنفيذية . والا فان الشعب سيعلن قراره على نحو مهيب في عام ١٨٥٢ ولكن مهما كانت حلول المستقبل فدعونا نصل الى تفاهم بحيث لا ندع مطلقا للعاطفة او المفاجاة او العنف سبيلا لتقرير مصير الامة العظيمة ان ما يشغل اهتمامي في الدرجة الاولى ليس هو من يحكم فرنسا في سنة ١٨٥٢ بل كيف استخدم الوقت الباقي تحت تصرفي بحيث تمر الفترة الانتقالية دون تهييج او اضطراب لقد فتحت قلبي لكم باخلاص وستجيبون على صراحتي بثقتكم وعلى مساعي الحميدة بتعاونكم والباقي على الله» .

---

* القضايا الملحة . الناشر .

ان لغة البرجوازية الموقرة ، المنافقة في اعتدالها ، الغثة في فضيلتها ، لتكشف عن اعمق معانيها في فم اوتوقراطي جمعية العاشر من كانون ألاول وبطل وليمتي سان-ماور وساتوري

ان بورجرافيي حزب النظام لم يضللوا انفسهم لحظة في شان الثقة التي يستحقها فتح القلب هذا اما الايمان فقد طال عهد بشمهم منها ، اذ كانوا يضمون بين صفوفهم محنكين وموهوبين في الحنث بالايمان السياسية ، ولكن لم يفتهم مع ذلك ان يسمعوا الفقرة المتعلقة بالجيش فقد لاحظوا ساخطين ان الرسالة في تعدادها المستفيض للقوانين التي شرعت مؤخراً قد اغفلت اهم هذه القوانين جميعاً ، وهو قانون الانتخاب ، بصمت متعمد ، بل انها تركت انتخاب الرئيس سنة ١٨٥٢ في حالة عدم اعادة النظر في الدستور ، الى الشعب ان القانون الانتخابي كان كرة الرصاص التي قيدت بها ارجل حزب النظام فمنعته من المشي بله منعته من الاقتحام ! ناهيك بان بونابرت ، بتسريحه الرسمي لجمعية العاشر من كانون الاول وبعزله وزير الحربية دوبول ، قد قرّب بيديه اكباش الفداء على مذبح الوطن لقد ثلم حدة الصدام المرتقب . واخيراً كان حزب النظام نفسه حريصاً ، بدافع الجبن ، على ان يتفادى اي اشتباك حاسم مع السلطة التنفيذية وان يلطّفه ويطمسه وخوفاً من ان يخسر انتصاراته ضد الثورة ، سمح لمنافسه بان يجني ثمارها وان فرنسا تطالب ، قبل كل شيء ، بالسكينة» . هذا ما صرخ به حزب النظام بوجه الثورة منذ شباط (فبراير) * وهذا ما صرخت به رسالة بونابرت الآن بوجه حزب النظام وان فرنسا تطالب ، قبل

* سنة ١٨٤٨ . الناشر .

كل شيء ، بالسكينة» ان بونابرت اتخذ تدابير تهدف الى الاغتصاب ولكن حزب النظام يغدو مذنباً في «تعكير السكينة» اذا اثار ضجيجاً حول هذه التدابير وفسرها تفسيراً سوداويا موسوساً . ان مقانق ساتوري كانت تسكت سكوت السمك عندما لم يكن يتكلم عنها احد وان فرنسا تطالب ، قبل كل شيء ، بالسكينة» . ولذا طالب بونابرت بأن يتركوه يتصرف في سلام وسكينة . وكان الحزب البرلماني يشله خوف مزدوج خوف من ان يتسبب ثانية بتعكير ثوري للسكينة وخوف من ان يظهر هو نفسه بمظهر المحرض على تعكير السكينة في عيون طبقته ذاتها ، في عيون البرجوازية . ولما كانت فرنسا تطالب بالسكينة قبل كل شيء فان حزب النظام لم يجرؤ على ان يجيب «حرباً» بعد ان تكلم بونابرت في رسالته «سلاماً» اما الجمهور الذي توقع مشاهد من الفضائح الكبرى لدى افتتاح الجمعية الوطنية فقد خابت توقعاته فنواب المعارضة الذين طالبوا بعرض محاضر مناقشـــات اللجنة الدائمة حول حوادث تشرين الاول (اكتوبر) خذلتهم الاغلبية . وتجنبت الجمعية ، من حيث المبدأ ، جميع المناقشات التي كان ممكناً ان تؤدي الى اهاجة المشاعر . ان اجراءات الجمعية الوطنية خلال تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الاول (ديسمبر) ١٨٥٠ كانت عديمة الاهمية

وفي اواخر كانون الاول (ديسمبر) فقط ، بدأت صدامات صغيرة حول عدد من صلاحيات البرلمان وقد تفهت الحركة وانحصرت في مشاحنات صغيرة حول صلاحيات كلتا السلطتين منذ ان تخلصت البرجوازية من الصراع الطبقي للاوقات القريبة القادمة بالغائها حق الاقتراع الشامل .

لقد اصدرت المحكمة حكمها بحق موغين ، احد النواب ، بسبب ديونه . ورداً على استفسار رئيس المحكمة ، اعلن روييه ، وزير العدلية ، وجوب اصدار الامر بالقاء القبض على المدين دون مزيد من الاخذ والرد . وهكذا زج بموعين في حبس المدينين . وثارت ثائرة الجمعية الوطنية عندما علمت بالاعتداء على حصانة النواب . ولم تكتف باصدار الامر باطلاق سراحه في الحال بل انها عملت على احضاره بالقوة من كليشي في المساء ذاته بواسطة كاتبها بيد انها لكي تثبت ايمانها بقداسة الملكية الخاصة ومع الفكرة التي كانت تساورها بفتح ملجـأ ، اذا اقتضى الامر ، «للجبليين» الذين غدوا مزعجين ، اعلنت ان حبس النواب بسبب الدين يمكن السماح به بعد الحصول على موافقة سابقة منها ونسيت ان ترسم بانه يمكن حبس الرئيس ايضاً بسبب الدين لقد قضت على آخر مظهر من مظاهر الحصانة التي كانت تحيط باعضاء هيئتها نفسها .

لقد اشرنا اعلاه الى ان يون ، مفوض الشرطة ، قد اخبر عن تدبير فرع من فروع جمعية العاشر من كانون الاول لخطة اغتيال دوبان وشانغارنييه ، بناء على اخبارية من شخص يدعى آليه . ونظرا لهذا قدم الكويستور في الجلسة الاولى ذاتها اقتراحاً بتشكيل شرطة خاصة بالبرلمان ، تدفع مرتباتها من الميزانية الخاصة للجمعية الوطنية وتكون مستقلة استقلالا مطلقاً عن مدير الشرطة . واحتج وزير الداخلية ، باروش ، على هذا الاعتداء على ميدان اختصاصه بعد هذا ، تمت مساومة بائسة بهذا الشأن اصبح راتب مفوض شرطة البرلمان بموجبها يدفع حقيقة من ميزانيته الخاصة ويعين ويعزل من قبل كويستور البرلمان ولكن بعد اتفاق سابق مع وزير الداخلية فحسب . وفي هذه الأثناء

باشرت الحكومة بالملاحقات القضائية بحق آليه وكان من السهل هنا اظهار اخباريته بانها خزعبلة واظهار دوبان وشانغارنييه ويون والجمعية الوطنية بكاملها بمظهر مضحك ، وذلك على لسان المدعي العام وبعد هذا ، يكتب الوزير باروش في ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) رسالة الى دوبان يطالب فيها بعزل يون . ويقرر ديوان الجمعية الوطنية ابقاء يون في منصبه ، بيد ان الجمعية الوطنية ، وقد ذعرت من عنفها في قضية موغين واعتادت ان تتلقى من السلطة التنفيذية ضربتين مقابل كل ضربة تجرات على توجيهها اليها ، لم تصادق على هذا القرار . وعزلت يون مكافاة له على ما ابداه من حماسة في الوظيفة وسلبت نفسها صلاحية برلمانية لا غنى عنها ازاء شخص لا يقرر ليلا ما ينفذه نهاراً بل يقرر نهاراً وينفذ ليلا .

لقد رأينا كيف ان الجمعية الوطنية في مناسبات جديه بارزة خلال شهري تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الاول (ديسمبر) قد تفادت لو رفضت الصراع مع السلطة التنفيذية . ونحن الآن نجدها مرغمة على مباشرته في اصغر المناسبات شأناً . ففي قضية موغين تؤكد ، من حيث المبدأ ، حبس النواب بسبب الدين ولكنها تحتفظ بحق تطبيقه على النواب الذين تمقتهم فحسب ، وتتشاجر حول هذا الامتياز الشائن مع وزير العدلية وبدلا من ان تستفيد من نبأ اعداد مؤامرة القتل فتامر باجراء تحقيق في نشاط جمعية العاشر من كانون الاول وتكشف بذلك القناع نهائيا عن بونابرت امام فرنسا واوروبا ، بحيث يستحيل ستره بعد ذلك ، وبحيث يبدو في صفتــه الحقيقية رئيســا لحثالة البروليتاريا في باريس ، حصرت النزاع في مشاجرة بينها وبين وزير الداخلية هي ايهما صاحب الصلاحية في تعيين مفوض شرطة

وعزله . وهكذا نرى حزب النظام ، خلال هذه الفترة باسرها ، قد ارغمه موقفه المبهم على تبديد صراعه مع السلطة التنفيذية وتحويله الى هذر ولغو وتفتيته في مناوشات صغيرة حول حدود الصلاحيات ومماحكات صغيرة ونزاعات قانونية سفسطائية وخلافات على تحديد السلطات ، وعلى جعل المسائل الشكلية الفارغة موضوعاً لنشاطه انه لا يجرؤ على الدخول في القتال في اللحظة التي يكون فيها للصراع معنى من حيث المبدأ ، عندما تكون السلطة التنفيذية قد فضحت نفسها حقاً وتكون قضية الجمعية الوطنية هي قضية الامة وهو اذ يفعل ذلك يكون قد اعطى الامة الاوامر بأن تهاجم في حين انه ليس له ما يخشاه اكثر من ان تتحرك الامة ولذا يرفض في مثل هذه المناسبات اقتراحات «الجبل» وينتقل الى اجراءات دورية وبعد ما امتنع حزب النظام عن النضال الواسع النطاق ، اخذت السلطة التنفيذية تتحين بهدوء الوقت الذي يمكن لها فيه ان تخوض هذا النضال ثانية في مناسبات صغيرة تافهة ، اي عندما يكون الامر ، كما يقال ، ذا اهمية برلمانية محلية فحسب وعندئذ ينفجر غضب حزب النظام المكبوت ، عندئذ يزيح حزب النظام الستار عن الكواليس ، عندئذ يكشف القناع عن الرئيس ، عندئذ يعلن الجمهورية في خطر ، ولكن عندئذ ايضاً تبدو غيرته سخيفة وتبدو مناسبة الصراع ذريعة ملؤها النفاق او غير جديرة مطلقاً بالصراع . وتصبح العاصفة البرلمانية عاصفة في فنجــان ، ويصبح الصراع مكيدة والنزاع فضيحة . وبينما تتأمل الطبقات الثورية ملياً بشماتة الاذلال الذي صارت اليه الجمعية الوطنية وذلك لان حماستها لصلاحيات هذه الجمعية البرلمانية تعادل تماماً حماسة الاخيرة للحريات العامة ، لا تدرك البرجوازية خارج البرلمان كيف تقدر البرجوازية داخل البرلمان

على اضاعة الوقت في مشاحنات صغيرة كهذه وتهديد السكينة بمثل هذه المنافسات الحقيرة مع الرئيس ، وتتابها البلبلة من ستراتيجية يعقد بموجبها الصلح في لحظة تتوقع فيها الدنيا كلها المعارك ، ويبدأ بموجبها الهجوم في اللحظة التي تعتقد فيها الدنيا كلها ان الصلح قد عقد

في العشرين من كانون الاول (ديسمبر) تقدم باسكال دوبرا باستجواب الى وزير الداخلية بشأن يانصيب قضبان الذهب . ان هذا اليانصيب كان «ابنة الايليزيوم» (٩٦) وقد جلبه للدنيا بونابرت واتباعه ووضعه مدير الشرطة كارلييه تحت حمايته الرسمية ، رغم ان القانون الفرنسي يحرم جميع انواع اليانصيب ما عدا اليانصيب الذي يخصص للاغراض الخيرية فقد صدرت سبعة ملايين تذكرة يانصيب ، ثمن التذكرة فرنك ، يخصص ريعه في ظاهر الامر لتسفير مشردي باريس الى كاليفورنيا فمن جهة كان للاحلام الذهبية ان تحل محل الاحلام الاشتراكية لبروليتاريا باريس وللامل المغري في الفوز بالجائزة الاولى ان يحل محل الحق النظري في العمل ومن الطبيعي ان عمال باريس لم يتعرفوا في بريق قضبان كاليفورنيا الذهبية على الفرنكات المتواضعة التي سحبها الاغواء من جيوبهم. وعلى العموم، كان هذا اليانصيب «نصباً» صريحاً ان المشردين الذين ارادوا فتح مناجم ذهب كاليفورنيا دون ان يزعجوا انفسهم بترك باريس كانوا بونابرت نفسه وحاشيته المثقلة بالديون . فان الملايين الثلاثة التي وافقت الجمعية الوطنية على اعتمادها قد بعزقت وكان لا بد من املاء صناديق المال الفارغة ثانية بطريقة او باخرى وعبثاً افتتح بونابرت اكتتاباً وطنياً لانشاء ما يسمى cités ouvrières * وظهر هو نفسه

* حواضر العمال . الناشر .

على راس القائمة بمبلغ كبير . ان البرجوازيين قساة القلوب انتظروه بارتياب حتى يسدد حصته ، ولما لم يحدث هذا بطبيعة الحال ، اندثرت المضاربة بالقصور العوالي الاشتراكية كفقاعات الصابون وكان سحب قضبان الذهب افضل ان بونابرت وشركاه لم يكتفوا بان يملأوا جيوبهم بجزء من دخل اليانصيب بقي من السبعة ملايين فرنك بعد حسم قيمة القضبان المعروضة في اليانصيب بل صنعوا تذاكر يانصيب مزورة ، اذ اصدروا عشر وخمس عشرة بل وعشرين تذكرة تحمل ذات الرقم — وهي عملية مالية تنسجم مع روح جمعية العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ! ان الجمعية الوطنية لم تواجه هنا رئيس الجمهورية الوهمي بل واجهت بونابرت بلحمه ودمه هنا كان في وسعها ان تمسكه متلبساً بفعلته ، ليس خلافا للدستور بل خلافا لـCode pénal*

واذا كانت الجمعية الوطنيـة قد اجابت على استجواب دوبرا بالانتقال الى الاجراءات الدورية ، فان هذا لم يحدث لمجرد ان اقتراح جيراردين بانه ينبغي ان تعلن «ارتياحها» قد ذكر حزب النظام بالفساد المنتظم القائم بين صفوفه ان البرجوازي ، وفي الدرجة الاولى البرجوازي الذي تضخم فاصبح رجل دولة ، يكمل لؤمه العملي بالاسراف النظري . وهو يصبح ، بوصفه رجل دولة ، شأن سلطة الدولة التي تواجهه ، كائنا اعلى لا يمكن محاربته الا بشكل اعلى واشد تكريسا .

ان بونابرت الذي كان يتمتع بوصفه وليد البوهيما وزعيما لحثالة البروليتاريا ، بمزية على البرجوازي النذل من حيث انه استطاع ان يقود الصراع بوسائل سافلة رأى الآن ، بعد ان

---

* قانون العقوبات . الناشر .

قادته الجمعية نفسها بيدها بنجاح عبر مزالق الولائم العسكرية والاستعراضات وجمعية العاشر من كانون الاول واخيراً Code pénal ، ان اللحظة التي يستطيع فيها ان ينتقل من الدفاع الظاهري الى الهجوم قد حانت . وقليلا ما ازعجته الهزائم الصغيرة التي حلت في هذه الاثناء بوزير العدلية ووزير الحربية ووزير البحرية ووزير المالية والتي اعربت الجمعية الوطنية من خلالها عن استيائها المزمجر . فهو لم يكتف بأن يمنع الوزراء من ان يستقيلوا فيعترفوا بذلك بسيادة البرلمان على السلطة التنفيذية بل انه استطاع الآن ان يتم ما بدأه اثناء عطلة الجمعية الوطنية اي فصل السلطة العسكرية عن البرلمان اذ انه اقصى شانغارنييه .

نشرت صحيفة من صحف الايليزيه امراً يومياً زعم انه وجه في شهر ايار (مايو) الى الفرقة العسكرية الاولى وانه صدر بالتالي عن شانغارنييه ، وفيه أُوصي الضباط بالا تاخذهم في حالة التمرد رأفة بالخونة في صفوفهم بل بأن يرموهم بالرصاص على الفور وان يرفضوا مد الجمعية الوطنية بالجند ، فيما لو استدعتهم . وفي ٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٥١ تلقت الوزارة استجوابا بشان هذا الامر وتطلب الوزارة ، من اجل اجراء تحقيق في هذه القضية ، مهلة ثلاثة اشهر في اول الامر ، ثم اسبوعا واخيراً اربعاً وعشرين ساعة فحسب . وتصر الجمعية على تفسير فوري ، وينهض شانغارنييه ويصرح بانه لم يصدر امراً كهذا على الاطلاق ويضيف انه سيبادر دائما الى الامتثال لطلبات الجمعية الوطنية وانها تستطيع في حالة حدوث اصطدام ان تعول عليه وتستقبل الجمعية تصريحه بتهليل وتصفيق لا يوصف وتصدر قراراً بالثقة فيه . انها تتخلى عن السلطة وتصدر حكما

بعجزها هي وبقدرة الجيش الكلية بوضع نفسها تحت الحماية الخاصة لجنرال بيد ان الجنرال يخطئ عندما يضع تحت امر البرلمان ضد بونابرت قوة حازها بمثابة القطاع فقط من بونابرت نفسه ، وعندما يتوقع ، هو بدوره ، ان يحميه هذا البرلمان ، هذا اللائذ به الذي يحتاج الى الحماية . بيد ان شانغارنييه يؤمن ، على كل حال ، بالقوة الغامضة التي اسبغتها البرجوازية عليه منذ ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩ انه يعتبر نفسه السلطة الثالثة التي تقوم جنبا الى جنب مع سلطتي الدولة الاخريين وهو يشارك سائر ابطال هذه الفترة ، او بالاحرى قديسيها ، مصيرهم ، وهم الذين تقوم عظمتهم ، بوجه التحديد ، على الفكرة العظيمة المتحيزة التي شيعها عنهم حزبهم والذين ينكمشون الى اشخاص عاديين حالما تدعوهم الظروف الى القيام بالمعجزات ان عدم الايمـــان هو ، بصورة عامـــة ، العدو المميت لهؤلاء المحسوبين ابطالا والقديسين الحقيقيين ومن هنا ينشا غضبهم الفاضل الجليل على هذا الفقر في الحماسة الذي يبديه المتندرون والساخرون

في المساء نفسه يدعى الوزراء الى قصر الايليزيه ويصر بونابرت على عزل شانغارنييه ويرفض خمسة وزراء توقيع العزل وتعلن «Moniteur» نشوء ازمة وزارية بينما تهدد صحف حزب النظام بتشكيل جيش برلماني تحت قيادة شانغارنييه . وقد كان لدى حزب النظام الحق الدستوري في اتخاذ هذه الخطوة . ولم يكن عليه الا ان ينتخب شانغارنييه رئيسا للجمعية الوطنية ويستدعي العدد الذي يشاؤه من الجنود لحمايتها وكان في وسعه ان يفعل ذلك باطمئنان تام لأن شانغارنييه كان ما يزال بالفعل على رأس الجيش والحرس الوطني في باريس وكان ينتظر

فقط ان يستدعي هو والجيش لتقديم المساعدة ولم تجرأ الصحف البونابرتية لغاية الآن حتى على مناقشة حق الجمعية الوطنية في استدعاء الجنود مباشرة ، وهو تشكك قانوني لم يكن يبشر في تلك الظروف باي حظ من النجاح . اما ان الجيش كان سيطيع اوامر الجمعية الوطنية فهو امر محتمل كثيراً اذا تذكر المرء ان بونابرت اضطر الى ان يفتش باريس كلها مدة اسبوع لكي يجد جنرالين – باراغه ديليه وسان-جان دانجيلي – اعلنا استعدادهما لاضافة توقيعهما على امر عزل شانغارنييه اما ان حزب النظام كان سيجد في صفوفه نفسها وفي البرلمان العدد اللازم من الاصوات لاتخاذ قرار كهذا فهذا اكثر من مشكوك فيه لو اخذ المرء بالحسبان انه انفصل ٢٨٦ نائباً عن الحزب بعد اسبوع وانه في شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ ، في ساعة الفصل الاخيرة ، كان «الجبل» يرفض اقتراحاً مماثلا ورغم هذا ، ربما كان ما يزال في وسع البورجرافيين ان ينجحوا في دفع جمهرة حزبهم الى بطولة الاختفاء خلف غابة من الحراب والى قبول خدمات جيش التحق بمعسكرهم وبدلا من هذا ، توجه السادة البورجرافيون مساء ٦ كانون الثاني (يناير) الى قصر الايليزيه ليحملوا بونابرت ، باستخدام الاساليب والحجج الديبلوماسية ، على عدم اتخاذ قرار باقالة شانغارنييه . وكل من تسعى لاقناعه فانما تعترف بانه سيّد الموقف . وفي ١٢ كانون الثاني عمد بونابرت ، وقد بعثت هذه الخطوة التي اتخذها البورجرافيون في نفسه الاطمئنان ، الى تشكيل وزارة جديدة بقي فيها زعيما الوزارة القديمة ، فولد وباروش . واصبح رينو دي سان-جان دانجيلي وزيراً للحربية ، ونشرت «Moniteur» مرسوم اقالة شانغارنييه وتوزيع وظيفتيه بين باراغه ديليه الذي استلم

فرقة الجيش الاولى ، وبيرو الذي استلم الحرس الوطني وأُقيل «حصن المجتمع» ، وبينما لم يتسبب هذا في سقوط اية آجرة من الاسطحة فان اسعار البورصة قد ارتفعت بالمقابل

ان حزب النظام ، اذ صد الجيش الذي يضع نفسه في شخص شانغارلييه تحت تصرفه وتنازل عنه بذلك بصورة قطعية للرئيس ، قد أثبت ان البرجوازية قد فقدت القدرة على الحكم . ولم يعد هنالك وزارة برلمانية . وهو اذ فقد الآن بالفعل قبضته على الجيش والحرس الوطني فما هي وسائل القهر لديه التي يتمكن بها من ان يحتفظ في آن واحد بسلطة البرلمان المغتصبة على الشعب وبسلطته الدستورية ضد الرئيس ؟ لا شيء لم يبق له الآن الا ان يلجأ الى المبادئ العاجزة ، الى المبادئ التي اعتبرها هو نفسه دائماً مجرد قواعد عامة يشير بها على الآخرين لكي يتمكن من ان يتصرف هو بحرية اكبر ان عزل شانغارنييه وسقوط السلطة العسكرية بيدي بونابرت يختمان الجزء الاول من هذه الفترة التي نحن بصددها ، فترة الصراع بين حزب النظام والسلطة التنفيذية . وقد اعلنت الحرب بين السلطتين الآن بصورة رسمية ، وهي تخاض بصورة مكشوفة ، ولكن بعد ان فقد حزب النظام السلاح والجند . واذ غدت الجمعية الوطنية بلا وزارة ولا جيش ولا شعب ولا رأي عام ، ولم تبق بعد اصدارها القانون الانتخابي للحادي والثلاثين من ايار (مايو) تمثل الامة ذات السيادة ، واذ غدت بلا عيون ولا آذان ولا اسنان ولا اي شيء ، تحولت تدريجياً الى برلمان فرنسي قديم (٩٧) عليه ان يترك العمل للحكومة ويكتفي هو بمهمة الاعتراضات post festum* .

* بعد العيد ، اي بعد وقوع الحادث . الناشر .

واستقبل حزب النظام الوزارة الجديدة بعاصفة من السخط . واعاد الجنرال بيدو الى الذهن اللطف الذي ابدته اللجنة الدائمة اثناء العطلة والاعتبار الزائد الذي اظهرته بالعدول عن نشر محاضر جلساتها . واخذ وزير الداخلية بنفسه يصر الآن على نشر هذه المحاضر التي غدت في هذا الوقت بطبيعة الحال راكدة كمياه آسنة لا تكشف عن اية حقائق جديدة وليس لها ادنى تأثير على الجمهور المتعب الضجر وبناء على اقتراح ريموز ، عينت الجمعية الوطنية ، بالاعتماد على جلسات لجانها ، «لجنة الاجراءات فوق العادة» اما باريس فلم تخرج في حياتها عن مجراها العادي اذ ان التجارة كانت في هذه اللحظـــة رائجـــة والمؤسسات الصناعية ناشطة واسعار الحنطة منخفضة والمواد الغذائية فائضة وصناديق التوفير تتلقى يوميا الودائع الجديدة وتمخضت «الاجراءات فوق العادة» التي اعلن عنها البرلمان بكل تلك الضجة فولدت قراراً في اليوم الثامن عشر من كانون الثاني (يناير) بحجب الثقة عن الوزراء حتى دون ان يـــأتي للجنرال شانغارنييه ذكر . وقد اضطر حزب النظام الى صياغة قراره بهذه الصورة لكي يؤمن لنفسه اصوات الجمهوريين ، ذلك لأن عزل شانغارنييه كان من بين جميع الاجراءات التي اتخذتها الوزارة هو الاجراء الوحيد الذي يوافق عليه الجمهوريون بينما لم يكن حزب النظام في الواقع في وضع يمكنه من شجب الاعمال الوزارية الاخرى اذ انه هو الذي املاها بنفسه على الوزارة .

ان قرار حجب الثقة الصادر في ١٨ كانون الثاني (يناير) قد اتخذ باربعمائة وخمسة عشر صوتاً مقابل مائتين وستـــة وثمانين ، اي انه لم يتخذ الا بائتلاف الشرعيين والاورليانيين المتطرفين مع الجمهوريين الصرف و«الجبل» . فبيّن ذلك ان

حزب النظام لم يفقد في نزاعاته مع بونابرت الوزارة وحدها ولا الجيش وحده بل فقد ايضاً اغلبيته البرلمانية المستقلة ، وان فريقاً من النواب قد انفضوا عن معسكره بدافع الميل الاعمى الى المساومة او الخوف من الصراع او الكلل او الحرص العائلي على مرتبات الدولة القريبة اليهم العزيزة عليهم او الامل في الحصول على المناصب الوزارية الخالية (اوديلون بارو) او بدافع الانانية الحقيرة التي تجعل البرجوازي العادي يجنح دائماً الى تضحية المصلحة العامة لطبقته لهذا لباعث الشخصي او ذاك ومنذ البداية لم يتشبث النواب البونابرتيون بحزب النظام الا في الصراع ضد الثورة ومنذ ذلك الحين عمد مونتالمبير ، زعيم الحزب الكاثوليكي ، الى القاء نفوذه الشخصي في الكفة البونابرتية لانه يئس من قدرة الحزب البرلماني على الحياة . واخيراً اضطر زعيما هذا الحزب ، الاورلياني تيير والشرعي بريبه ، الى ان يعلنا نفسيهما جمهوريين بصورة مكشوفة وان يعترفا بأن قلبيهما ملكيان ولكن رأسيهما جمهوريان وان الجمهورية البرلمانية كانت الشكل الوحيد الممكن لحكم البرجوازية ككل وهكذا ، اضطرا على ملأ من الطبقة البرجوازية نفسها ، الى ان يصما مشروعات العودة التي واصلا العمل على تحقيقها بلا كلل من وراء ظهر البرلمان ، بانها مكيدة فيها من الخطر بقدر ما فيها من فراغ العقل .

ان قرار حجب الثقة الصادر في ١٨ كانون الثاني (يناير) قد اصاب الوزارة لا الرئيس . ولكن ليست الوزارة بل الرئيس هو الذي عزل شانغارنييه . أفلم يكن يجب ان يضع حزب النظام بونابرت نفسه موضع الاتهام ؟ بسبب رغبات العودة التي لديه ؟ ولكن الاخيرة كانت مجرد تكملة لرغباته هو . بسبب مؤامرته المتصلة بالاستعراضات العسكرية وجمعية العاشر من كانون

الاول (ديسمبر) ؟ ولكنه دفن هذه الموضوعات منذ زمن طويل تحت جداول الاعمال البسيطة اليومية بسبب عزل بطل ٢٩ كانون الثاني (يناير) و١٣ حزيران (يونيو) ، الرجل الذي هدد في ايار (مايو) ١٨٥٠ باشعال النار في اركان باريس الاربعة في حالة حدوث تمرد ؟ ولكن حلفـــاءه من «الجبل» وكافينياك لم يسمحوا له حق بأن يؤيد «حصن المجتمع» الساقط بوساطة شهادة رسمية بالعطف عليه . بل ان حزب النظام نفسه لم يستطع انكار حق الرئيس الدستوري في عزل الجنرالات انه لم يتهيج الا لان الرئيس استخدم حقه الدستوري ضد البرلمان ولكن الم يستخدم حزب النظام نفسه باستمرار صلاحيته البرلمانية ضد الدستور ، خصوصا فيما يتعلق بالغاء حق الاقتراع الشامل ؟ ولذا لم يبق له غير ان يتمسك بدقة بالحدود البرلمانية وبغير هذا الداء الغريب الذي استشرى منذ عام ١٨٤٨ في طول القارة الاوروبية وعرضها ، وهو داء البلاهة البرلمانية ، والذي يشد المصابين به الى عالم خيالي ويسلبهم كل عقل وكل ذكرى وكل فهم للعالم الخارجي الفظ – بغير هذه البلاهة البرلمانية لا يمكن تفسير سلوك حزب النظام الذي دمر جميع شروط جبروت البرلمان بايديه ، وكان لا بد له من ان يدمرها في صراعه مع الطبقات الاخرى ، وظل مع ذلك يعتبر انتصاراته البرلمانية انتصارات ويعتقد انه يصيب الرئيس بتوجيهه الضربات الى وزرائه . وكل ما فعله هو انه منح الرئيس الفرصة لاذلال الجمعية الوطنية من جديد في عيون الامة . ففي العشرين من كانون الثاني (يناير) اعلنت „Moniteur“ قبول استقالة الوزارة باسرها وبذريعة ان حزبا برلمانيا واحداً لم يعد يتمتع بالاغلبية ، كما اثبت ذلك تصويت ١٨ كانون الثاني ، هذه الثمرة لائتلاف «الجبل»

والملكيين ، وريثما يتسنى تشكيل اغلبية جديدة ، عمد بونابرت الى تعيين ما يسمى بوزارة انتقالية لم يكن عضو واحد من اعضائها عضواً في البرلمان بل كانوا جميعاً اشخاصاً مغمورين تماماً ولا شان لهم ، وزارة مجرد كتبة ونساخ . واصبح في وسع حزب النظام الآن ان يبدد قواه في اللعب مع هذه الدمى . اما السلطة التنفيذية فلم تعد تعتقد بان الامر يستحق منها ان تكون ممثلة تمثيلا جدياً في الجمعية الوطنية . وكلما كان وزراء بونابرت مجرد دمى ، كلما ركز هو السلطة التنفيذية باسرها في شخصه واتسع المجال امامه لاستغلالها لغاياته الخاصة

وبالائتلاف مع «الجبل» ، ثار حزب النظام لنفسه برفض منح الرئيس مبلغ مليون وثمانمائة ألف فرنك ، وهو المبلغ الذي كان رئيس جمعية العاشر من كانون الاول قد ارغم صنائعه الوزراء على ان يقترحوه وقد تقرّرت المسالة في هذه المرة بالاغلبية مائة صوت وصوتين فقط ، اي ان سبعة وعشرين صوتاً جديداً انفضت منذ ١٨ كانون الثاني (يناير) عن حزب النظام ! ان انحلال حزب النظام كان يجري قدماً . وفي الوقت ذاته ، ولكي لا يكون هنالك مجال للالتباس لحظة واحدة بشان معنى ائتلافه مع «الجبل» ، انف حتى ان يبدأ المناقشات حول اقتراح موقع من مائة وتسعة وثمانين عضواً من «الجبل» يدعو الى اصدار عفو عام عن المجرمين السياسيين . كان يكفي وزير الداخلية ، وهو شخص يدعى فايس ، ان يعلن ان السكينة ظاهرية فحسب وان تحريضاً قوياً سرياً ينتشر في البلاد وانه يجري تنظيم جمعيات سرية في كل مكان وان الصحف الديموقراطية تستعد للظهور ثانية وان التقارير الواردة من المقاطعات لا تبشر بالخير وان لاجئي جينيف يراسون مؤامرة تمتد خيوطها عن طريق

ليون الى سائر انحاء جنوبي فرنسا وان فرنسا على حافة ازمة صناعية وتجارية وان اصحاب المعامل في مدينة روبيه قد خفضوا ساعات العمل وان مساجين بيل-ايل(٩٨) قد ثاروا - كان يكفي فايس هذا ان يستحضر الشبح الاحمر حتى يرفض حزب النظام دون مناقشة اقتراحاً كان من شأنه ان يكسب الجمعية الوطنية على وجه التحقيق شعبية عظيمة ويرمي بونابرت بين ذراعيها من جديد . وكان ينبغي عليه ، بدلا من ان يدع السلطة التنفيذية ترهبه باحتمال نشوب اضطرابات جديدة ، ان يمنح الصراع الطبقي بالاحرى بعض المجال حتى يبقي السلطة التنفيذية في حالة اعتماد عليه بيد انه لم يكن يشعر بانه اهل لمهمة اللعب بالنار .

وفي غضون ذلك عاشت ما تدعى بالوزارة الانتقالية معيشتها الخاملة حتى منتصف نيسان (ابريل) وقد انهك بونابرت الجمعية الوطنية وخادعها بمناورات وزارية جديدة مستمرة . فتارة كان يبدو عليه انه يريد تشكيل وزارة جمهورية تضم لامارتين وبيّو وطوراً وزارة برلمانية تضم اوديلون بارو ، الذي لا بد ان يكون اسمه حاضراً ابداً عندما يحتاج الامر الى مغفل ، ثم وزارة شرعية تضم فاتيمينيل وبنوا دازي ، ثم تارة اخرى وزارة اورليانية تضم مالفيل وبينما ابقى بونابرت على هذا الوجه التكتلات المختلفة من حزب النظام في حالة توتر الواحدة ضد الاخرى وافزع حزب النظام ككل باحتمال تشكيل وزارة جمهورية وما يستتبعه ذلك حتما من اعادة حق الاقتراع الشامل ، كان يوحي الى البرجوازية في الوقت نفسه الاقتناع بأن عدم تسامح التكتلات الملكية هو الذي يحبط جهوده الشريفة لتشكيل وزارة برلمانية . اما البرجوازية فكان يعلو صراخها

من اجل «حكومة قوية» وتجد ان ترك فرنسا «دون ادارة» يصبح امراً اقل احتمالا للغفران بقد، ما كان يبدو ان الازمة التجارية العامة الزاحفة اخذت تكسب للاشتراكية انصاراً جدداً في المدن ، تماماً كما فعل الهبوط المخرب في سعر القمح في الريف . وازداد كساد التجارة يوماً بعد يوم كما زادت الايدي العاطلة بصورة ملموسة وبات عشرة آلاف عامل ، على الاقل ، محرومين من الخبز في باريس وتعطل عدد لا يحصى من المعامل في روان ومولهوس* وليون وروبيه وتوركوين وسانتاتيين والبيف ، الخ .. وفي هذه الظروف استطاع بونابرت ان يجترئ في ١١ نيسان (ابريل) على اعادة وزارة ١٨ كانون الثاني (يناير) : السادة روييه وفولد وباروش ، الخ .، اضيف اليهم المسيو ليون فوشيه الذي كانت الجمعية التاسيسية في ايامها الاخيرة قد وصمته باجماع الاصوات ، باستثناء خمسة اصوات ادلى بها الوزراء ، بقرار حجب ثقة لاذاعة برقيات كاذبة وهكذا ، ما احرزت الجمعية الوطنية انتصارها على وزارة ١٨ كانون الثاني (يناير) وما تصارعت مع بونابرت ثلاثة اشهر الا لتمكن فولد وباروش من ادخال المتزمت فوشيه في ١١ نيسان (ابريل) شخصاً ثالثاً في حلفهما الوزاري .

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ اكتفى بونابرت بوزارة غير برلمانية وفي كانون الثاني ١٨٥١ اكتفى بوزارة خارجة عن البرلمان وفي ١١ نيسان انس من نفسه القوة بحيث يشكل وزارة معادية للبرلمان كانت تجمع في ذاتها بانسجام قرارات حجب الثقة التي اصدرتها الجمعيتان التاسيسية والتشريعية ، الجمهورية

* مولوز . الناشر .

والملكية . وقد كان هذا التدرج في الوزارات هو مقياس الحرارة الذي كان البرلمان يستطيع بواسطته ان يقيس انخفاض حرارة حياته هو . وما ان اشرف شهر نيسان (ابريل) على نهايته حتى كانت الاخيرة قد هبطت الى حد استطاع معه برسنييه ان يحث شانغارنييه ، في مقابلة شخصية ، على الانضمام الى معسكر الرئيس واكد له ان بونابرت يعتبر ان نفوذ الجمعية الوطنية قد قضي عليه تماما وانه تم اعداد المنشور الذي سيذاع بعد coup d'état ، الذي كان ماثلا في الذهن بصورة واضحة ولكنه تأجل بفعل الصدفة مرة اخرى وقد ابلغ شانغارنييه زعماء حزب النظام بحكم الموت هذا . ولكن من ذا الذي يظن عضات البق مميتة ؟ وما كان في وسع البرلمان ، وهو العاجز المفكك الذي دب فيه الموت والذي يوشك ان يلفظ نفسه الاخير ، ان يتغلب على نفسه ليرى في مبارزته مع الرئيس المسخ لجمعية العاشر من كانون الاول شيئا غير مبارزة مع بقة . ولكن بونابرت اجاب حزب النظام بمثل ما اجاب اجيسلاوس الملك اجيس «ابدو لعينيك نملة ولكني سأكون ذات يوم اسدا»(٩٩)

٦

ان الائتلاف مع «الجبل» والجمهوريين الصرف الذي وجد حزب النظام انه محكوم به عليه في جهوده غير المجدية للاحتفاظ بالسلطة العسكرية ولاستعادة الاشراف الاعلى على السلطة التنفيذية اثبت بلا جدال انه قد خسر اكثريته البرلمانية المستقلة . وفي ٢٨ ايار (مايو) اعطت القوة البسيطة للتقويم الزمني ولعقرب الساعة الاشارة لتفككه تفككا تاما في ٢٨ ايار بدأت السنة الاخيرة من سني حياة الجمعية الوطنية . لقد كان

عليها الآن ان تقرر اما ابقاء الدستور دون تغيير او اعادة النظر فيه . بيد ان اعادة النظر في الدستور لم تكن تعني فحسب الاختيار بين حكم البرجوازية او حكم ديموقراطية البرجوازية الصغيرة ، بين الديموقراطيـــة او الفوضى البروليتاريـــة ، بين الجمهورية البرلمانية او بونابرت ، بل كانت تعني في الوقت نفسه الاختيار بين اورليان او بوربون ! وهكذا سقطت وسط البرلمان نفسه تفاحة الشقاق التي كان لا بد لها ان تؤجج علناً التضارب في المصالح التي شقت حزب النظام الى تكتلات متعادية ان حزب النظام كان خليطاً من عناصر اجتماعية غير متجانسة . وقد ولدت مسالة اعادة النظر في الدستور درجة الحرارة السياسيـــة التي ينحل عندها هذا الخليط الى عناصره الاصلية

اما مصلحة البونابرتيين في اعادة النظر في الدستور فبسيطة . فبالنسبة اليهم كانت المسالة قبل كل شيء هي مسالـــة الغـــاء المادة ٤٥ التي كانت تمنع اعـــادة انتخـــاب بونابرت وتمديد سلطته . وكان موقف الجمهوريين ليبدو بسيطاً نفس البساطة فقد كانوا ينبذون دون قيد او شرط اية اعادة نظر اذ كانوا يرون فيها مؤامرة عامة على الجمهورية . ولما كانوا يحكمون على اكثر من ربع الاصوات في الجمعية الوطنية ، وكان يلزم ثلاثة ارباع الاصوات ، حسب الدستور ، ليكون القرار القاضي باعادة النظر صحيحاً من الوجهة القانونية وليتم عقد جمعية خاصـــة لاعادة النظر ، فقد كان بحسبهم ان يعدوا اصواتهـــم ليكونوا واثقين من النصر . وقد كانوا واثقين من النصر .

وخلافاً لهذين الموقفين الواضحين وجد حزب النظام نفسه متورطاً في تناقضات لا قبل بحلها . فاذا ما رفض اعادة النظر ، لهدد الوضع القائـــم لان ذلك يترك لبونابرت مخرجـــاً واحداً

فحسب هو اللجوء الى القوة ، ولان ذلك يعني تسليم فرنسا يوم الاحد الثاني من ايار (مايو) سنة ١٨٥٢ ، وفي لحظة الفصل ، الى تعسف الفوضى الثورية مع رئيس فقد سلطته وبرلمان لم يكن يملكها منذ زمن بعيد وشعب ينوي استردادها ثانية . واذا ما اقترح الى جانب اعادة نظر دستورية فقد كان يعرف انه يقترح عبثاً وكان لا بد له ان يفشل دستورياً بسبب اعتراض الجمهوريين . واذا ما اعلن ، خلافاً للدستور ، ان قراراً يتخذ بالاكثرية البسيطة سيكون ملزماً فلن يكون لديه حينئذ أمل في التغلب على الثورة الا اذا اخضع نفسه بلا قيد او شرط لسيادة السلطة التنفيذية ، وبذلك يضع تحت تصرف بونابرت الدستور واعادة النظر فيه ومصير الحزب نفسه . اما اعادة النظر الجزئية الرامية الى اطالة امد سلطة الرئيس فانها تمهد السبيل للاغتصاب البونابرتي . واما اعادة النظر العامة الرامية الى تقصير امد بقاء الجمهورية فانها تؤدي بلا محالة الى وقوع اشتباك بين ادعاءات الاسر المالكة لان شروط اعادة الملكية البوربونية وشروط اعادة الملكية الاورليانية لم تكن تختلف بعضها عن بعض فحسب بل كانت تنفي بعضها بعضاً بصورة متبادلة .

ان الجمهورية البرلمانية كانت اكثر من تربة محايدة تستطيع كتلتا البرجوازية الفرنسية ، الشرعيون والاورليانيون — الملكية العقارية الكبيرة والصناعة — ان تتصرفا عليها جنب الى جنب متمتعتين بالحقوق المتساوية . فقد كانت الشرط الذي لا بد منه لحكمهما المشترك ، شكل الدولة الوحيد الذي سيطرت معه مصلحتهما الطبقية العامة على ادعاءات بعض كتل البرجوازية وكذلك على جميع طبقات المجتمع الباقية . وبوصفهم ملكيين ، ارتدوا الى عداواتهم القديمة ، الى الصراع بين الملكية العقارية

وبين النقد من اجل السيادة ، واعلى تعبير عن هذه العداوة ، وتجسيدها ، انما كان ملوكهم انفسهم واسرهم المالكة وهذا ما يفسر مقاومة حزب النظام لعودة البوربون

كان الاورلياني والنائب كريتون قد تقدم بصورة دورية في سنوات ١٨٤٩ و١٨٥٠ و١٨٥١ باقتراح يدعو لالغاء مرسوم النفي الصادر بحق الامر المالكة . وظهر البرلمان نفسه ، بانتظام مماثل ، بمظهر جمعية من الملكيين توصد بعناد الابواب التي يمكن ان يعود منها ملوكهم المنفيون الى الوطن ان ريتشارد الثالث قتل هنري السادس قائلا انه اطيب من ان يعيش في هذه الدنيا وان مكانه الذي يستحقه هو السماء والملكيون اعلنوا ان فرنسا اسوأ من ان تحصل على ملوكها المنفيين ثانية فقد ارغمتهم الظروف القاهرة على ان يصبحوا جمهوريين ويصادقوا تكراراً على القرار الشعبي الذي نفى ملوكهم من فرنسا

ان اعادة النظر في الدستور – كانت الظروف تجبر طرح هذه المسالة على بساط البحث – عرضت للخطر ، الى جانب الجمهورية ، الحكم المشترك للكتلتين البرجوازيتين واحيت ، مع امكانية قيام الحكم الملكي ، تنافس المصالح التي كان يمثلها هذا الحكم بصورة غالبة بالتناوب ، كما احيت الصراع من اجل سيادة احدى الكتلتين على الاخرى واعتقد ديبلوماسيو حزب النظام انهم يستطيعون اطفاء الصراع بدمج الاسرتين ، بما يسمى صهر الحزبين الملكيين وبيتيهما المالكين ان الصهر الحقيقي لعهد العودة ولملكية تموز (يوليو) كان الجمهورية البرلمانية التي محيت فيها الالوان الاورليانية والشرعية وانحلت فيها الانواع المختلفة من البرجوازية في البرجوازي بشكل عام ، في البرجوازي – النوع . اما الآن فيجب على الاورلياني ان يصبح شرعيا والشرعي

اورليانيا . وكان للملكية التي كانت تجسيداً لعداواتهم ان تصبح تجسيداً لوحدتهم . وكان للتعبير عن مصالحهم التكتلية المتنافرة ان يصبح تعبيراً عن مصلحتهم الطبقية المشتركة ، وكان على الملكية ان تفعل ما لم يستطع فعله ولم يفعله غير الغاء الملكيتين ، غير الجمهورية . لقد كان هذا حجر الفلاسفة الذي صدع كيمائيو حزب النظام رؤوسهم في سبيل انتاجه فكان الملكية الشرعية يمكن ان تغدو يوماً ملكية البرجوازيين الصناعيين او كان الملكية البرجوازية يمكن ان تغدو يوماً ملكية اريستقراطية الارض الوراثية . وكان الملكية العقارية والصناعة يمكن ان تتعايشا بسلام تحت تاج واحد ، في حين لا يستطيع التاج ان يكلل الا رأساً واحداً ، رأس الاخ الاكبر او الاصغر . وكان الصناعة على العموم يمكن ان تتفق مع الملكية العقارية ما دامت الملكية العقارية لا تقرر ان تصبح هي نفسها صناعية . فاذا مات هنري الخامس غداً ، فان كونت باريس لا يغدو لهذا السبب ملك الشرعيين الا اذا كف عن ان يكون ملك الاورليانيين بيد ان فلاسفة الصهر الذين كان يزداد زعيقهم بمقدار ما كانت قضية اعادة النظر في الدستور تأتي الى مركز الصدارة والذين هيأوا لانفسهم من جريدة «Assemblée nationale» (١٠٠) صحيفة رسمية يومية تنطق باسمهم والذين يعكفون على العمل ثانية حتى في هذه اللحظة بالذات (شباط – فبراير – ١٨٥٢) رأوا ان الصعوبة كلها ناشئة عن المقاومة والتنافس بين الاسرتين المالكتين . ان محاولات التوفيق بين اسرة اورليان وهنري الخامس ، التي بدأت منذ وفاة لويس فيليب ولكن التي كانت لا تقوم ، شأنها شأن كل المكائد المتصلة بالاسر المالكة عموماً ، الا في اثناء عطلة الجمعية الوطنية ، فيما بين الفصول ووراء

الكواليس ، بوصفها مداعبة عاطفية للخرافة القديمة اكثر منها شغلا بالمعنى الجدي ، هذه المحاولات اصبحت الآن تمثيلية مهيبة يقوم بها حزب النظام على المسرح العام بدلا من مسارح الهواة ، كما كان الامر حتى الآن . لقد تراكض الرسل بلا انقطاع من باريس الى البندقية(١٠١) ومن البندقية الى كليرمونت ومن كليرمونت الى باريس . ويصدر الكونت شامبور بيانا يعلن فيه ، وبمعونة عموم افراد عائلته» لا اعادته هو بل الاعادة «القوميـــة» ويلقي الاورلياني سالفاندي بنفسه عند اقدام هنري الخامس ويسافر الرؤساء الشرعيون بربيه وبنوا دازي وسان-بريست ، الى كليرمونت لكي يقنعوا آل اورليان ولكن على غير طائل ان انصار الصهر يدركون بعد فوات الاوان ان مصـــالح الكتلتين البرجوازيتين لا تصبح اقل تنافراً ولا تكسب ليونة عندما يجرى التشديد عليها في شكل مصالح عائلية ، مصالح بيتين مالكين فاذا مـــا اعترف هنري الخامس بكونت باريس خلفـاً له — وهو النجاح الوحيد الذي يمكن ان يأمل انصار الصهر فيه في احسن الحالات — فان آل اورليان لن يكسبوا بذلك اي حقوق غير تلك التي امّنهـــا لهم عقم هنري الخـــامس بل انهم سيفقدون جميع الحقوق التي كسبوها بثورة تموز (يوليو) انهم يكونون قد تخلّوا عن ادعاءاتهم القديمة وجميع الحقوق التي انتزعوهـــا من الفرع الاقدم للبوربون خلال مائة عام من الصراع تقريباً ، انهم يكونون قد تخلوا عن امتيازاتهـــم التاريخيـــة ، امتيازات الملكية الحديثة ، لصالح الامتيــاز القائم على شجرة النسب ولهذا لن يكون الصهر الا تنازلا طوعيا من قبل آل اورليـــان ، تنازلا عن حقوقهم في صالح الشرعية وانسحابا نادما من كنيسة الدولة البروتستانتية الى الكنيســـة الكاثوليكية ، انسحابـــاً لن

ياتي بهم ، فضلا عن هذا ، حتى الى العرش الذي فقدوه بل الى درجة من سلم العرش الذي ولدوا عليه . ان الوزراء الاورليانيين القدمـــاء غيزو ودوشاتل وغيرهمـــا الذين سارعــوا بالمثل الى كليرمونت لكي يعدوا الصهر سلفاً لم يكونوا يمثلون في الواقع الا شعور الضيق والكآبة بعد ثورة تموز (يوليو) ، وخيبــة آمالهم في ملكية برجوازية وبرجوازية ملكية ، والاعتقاد الخرافي بالشرعية باعتبارها التعويذة الاخيرة ضد الفوضى . وهم اذ تصوروا انفسهم وسطاء بين الاورليان والبوربون ، كانوا في الواقع مجرد مرتدين اورليانيين وبهذه الصفة استقبلهم الامير جوانفيل اما الفريق المحب للعراك والقـــابل للحيـــاة من الاورليانيين ، تيير وباز ، الخ .، من جهة اخرى ، فقد اقنع اسرة لويس فيليب بسهولة اكثر بانه اذا كانت اية اعادة مباشرة للملكية تفترض مقدماً صهر الاسرتين ولما كان اي صهر كهذا ، على اية حال ، يفترض مقدماً تخلي آل اورليان عن حقوقهم ، فمما يتفق تماماً مع تقاليد اجدادهم هو ان يعترفوا بالجمهورية موقتاً وينتظروا حتى تسمح الاحداث بتحويل كرسي الرئاسة الى عرش . وقد راجت اولا الشائعات عن ترشيح جوانفيل لرئاسة الجمهورية وبات فضول الجماهير في حالة ترقب وقلق ، بعد اشهر قليلة ، في شهر ايلول (سبتمبر) ، وبعد نبذ اعادة النظر في الدستور ، اعلن ترشيحه بصورة علنية .

وهكذا فان محاولة القيام بصهر ملكي للاورليانيين والشرعيين لم تمن بالفشل فحسب بل انها دمرت صهرهم البرلماني ، شكلهم الجمهوري المشترك ، وجزأت حزب النظـــام ثانيـــة الى جزئيه الاصليين اللذين كان يتألف منهما بيد انه كلما ازداد الجفاء بين كليرمونت والبندقية وكلمـــا اخفق التوفيق بينهمـــا واحرز

لهييج جوانفيل نجاحاً ، ازدادت المفاوضات بين فوشيه وزير بونابرت والشرعيين حماسة وجدية .

ان انحلال حزب النظــام لم ينحصر في تفككه الى عنصريه الاصليين فان كلا من الكتلتين الكبيرتين قد تحللت بدورها من جديد . وبات الامر كما لو ان جميع الفروق الطفيفة القديمــة التي تصارعت وتزاحمت سابقاً في داخل كل من المعسكريــن ، سواء أكان شرعياً أم اورليانياً ، قد ساحت ثانية كمــا تسيح النقاعيات الجافة لدى ملامستها الماء ، كما لو انهــا اكتسبت مجدداً طاقة حيوية كافية لتشكيل جماعات خاصة ذات مصالح متناقضة مستقلة . وعاد الشرعيون في احلامهم الى الماضي ، الى زمن المجادلات فيما بين قصر التويلري وجناح مارســان ، بين فيليل وبولينياك(١٠٢) . وعاش الاورليانيون من جديد الايام الذهبية لمواكب المبــارزة بين غيزو ومولیــه وبروغلي وتيير واوديلون بارو

ان ذلك الجزء من حزب النظام الذي كان حريصاً على اعادة النظر في الدستور ، ولكنه كان منقسما ايضا حول حدود اعادة النظر ، وهو فريق مؤلف من الشرعيين بقيادة بريیه وفالو من جهة وبقيادة لاروشجاكلين من جهة اخرى ، ومن الاورليانيين الذين اتعبهم الصراع بقيادة موليه وبروغلي ومونتالمبير واوديلون بارو ، اتفق مع النواب البونابرتيين على الاقتراح التــالي الذي صيغ بعبارة واسعة غير محدودة :

«ان النواب الموقعين ادناه ، بقصد ان تعاد الى الامة ممارسة سيادتها بصورة تامة ، يقترحون اعادة النظر في الدستور»

بيد انهم صرحوا بالاجماع في الوقت نفسه ، بلسان راوية اخبارهم توكفيل ، بان الجمعية الوطنية لم يكن يحق لها ان تقترح

الغاء الجمهورية – وان هذا الحق كان منوطاً بمجلس ينعقد من اجل اعادة النظر في الدستور . وفضلا عن ذلك صرحوا انه لا يجوز اعادة النظر في الدستور الا بصورة «قانونية» ، اي الا اذا كانت ثلاثة ارباع الاصوات التي نص عليها الدستور الى جانب اعادة النظر . وفي اليوم التاسع عشر من تموز (يوليو) ، وبعد ستة ايام من النقاش العاصف ، نبذت اعادة النظر ، كما كان متوقعا فقد اقترع الى جانبها اربعمائة وستة واربعون صوتا بيد ان مائتين وثمانية وسبعين كانت ضدها وقد صوت الاورليانيون المتطرفون ، تيير وشانغارنييه ، الخ .، مع الجمهوريين و «الجبل»

وهكذا اعلنت اكثرية البرلمان وقوفها ضد الدستور ، بيد ان هذا الدستور نفسه اعلن انه يقف مع الاقلية وان قرارها هو الملزم . ألم يقم حزب النظام باخضاع الدستور للاكثرية البرلمانية في ٣١ ايار (مايو) سنة ١٨٥٠ وفي ١٣ حزيران (يونيو) ١٨٤٩ ؟ ألم تكن سياسته كلها تستند حتى الآن الى اخضاع مواد الدستور لقرارات الاكثرية البرلمانية ؟ ألم يترك للديموقراطيين الاعتقاد الخرافي الذي اكل عليه الدهر وشرب بحرفية القانون ويقاص الديموقراطيين بسببه ؟ بيد ان اعادة النظر في الدستور لم تكن تعني في اللحظة الراهنة سوى اطالة مدة سلطة الرئيس ، بينما كان تمديد مفعول الدستور لا يعني سوى الاطاحة ببونابرت ان البرلمان اعلن وقوفه الى جانب بونابرت ولكن الدستور اعلن وقوفه ضد البرلمان . ولذلك كان بونابرت يعمل بروح البرلمان عندما مزق الدستور وكان يعمل بروح الدستور عندما صرف البرلمان .

ان البرلمان اعلن الدستور واعلن مع الدستور حكمـه هو «خارج الاكثرية» ؛ وبالقرار الذي اتخذه هو ، الغى الدستور ومد في اجل سلطـان الرئيس كمـا اعلن في الوقت ذاته انه لا يمكن للدستور ان يموت ولا لسلطان الرئيس ان يعيش ما دام البرلمان نفسه على قيد الحياة . واولئك الذين سيدفنونه كانوا يقفون بالباب . وبينما كان البرلمان يناقش مسالة اعادة النظر في الدستور ، عمد بونابرت الى اقصاء الجنرال باراغه ديلَيه الذي اثبت قلة الحزم ، عن قيادة الفرقة الاولى للجيش وعين بدلا منه الجنرال مانيان ، صاحب النصر في ليون وبطل ايام كانون الاول (ديسمبر) ، وهو احد صنائعه وكان من قبل ، زمن لويس فيليب ، قد اساء الى سمعته الى هذا الحد او ذاك بوصفه من انصار بونابرت لمناسبة الحملة على بولون .

لقد اثبت حزب النظام بالقرار الذي اتخذه بشان اعادة النظر في الدستور انه ليس قادراً لا على ان يحكم ولا على ان يخدم ، لا على ان يعيش ولا على ان يموت ، لا على ان يحتمل الجمهورية ولا على ان يقلبها ، لا على ان يحفظ الدستور ولا على ان يطرحه ، لا على ان يتعاون مع الرئيس ولا على ان ينابذه . فالى من يتطلع ، اذن ، لحل جميع التناقضـات ؟ الى التقويـم الزمني ، الى مجرى الاحداث لقد كف عن الادعاء بانه يتحكم بالاحداث ، ولذلك استسلم لسلطان الاحداث ، اي لسلطان تلك القوة التي تنازل لها عن صلاحية تلو اخرى من صلاحيات السلطة في نضاله ضد الشعب حتى وقف هو نفسه عاجزاً ازاء هذه القوة . ولكي يمكّن رئيس السلطة التنفيذية من ان يضع خطة الحملة ضده دونما ازعاج ويعزز وسائل الهجوم ويختار ادواته ويحصن مواقعه ، قرر حزب النظام في هذه اللحظة الحرجة بالذات ان

يعتزل المسرح وان يرفض ثلاثة اشهر ، من ١٠ آب (اغسطس) لغاية ٤ تشرين الثاني (نوفمبر)

ان الحزب البرلماني لم ينحل الى كتلتيه الكبيرتين فحسب ولم تنقسم كل واحدة من هاتين الكتلتين من الداخل فحسب بل ان الخلاف قد دب بين حزب النظام في البرلمان وحزب النظـام خارج البرلمان . فان خطباء البرجوازية وكتابها ، منابرها وصحافتها ، وبكلمة مختصرة ، ايديولوجيي البرجوازيـة والبرجوازية ذاتهـا ، الممثلين والممثلين ، واجهوا بعضهم بعضاً بالجفاء ولم يعد يفهم احدهم الآخر .

ان الشرعيين في الارياف ، بما كانوا عليه من افق محدود وحماسة غير محدودة ، اتهموا زعيميهـم البرلمانيين ، بريبـه وفالو ، بالتخلي عنهم والانضمام الى المعسكر البونابرتي وبالارتداد عن هنري الخامس ان عقولهم العذراء مثل زنـابق البوربون كانت تؤمن بخطيئة آدم لا بالديبلوماسية

اما ما كان اكثر شؤمـــا من هذا بكثير واكثر حسمـــا فهو قطيعة البرجوازية التجارية مع ساستها لقد وبختهم ، لا لتخليهم عن مبادئهم ، كما فعل الشرعيون مع ساستهم بل بالعكس لتشبثهم بمبادئ اصبحت عديمة الجدوى

لقد اشرت من قبل الى ان ذلك الفريق من البرجوازية التجارية الذي كانت له حصة الاسد من السلطة في زمن لويس فيليب ، اي ارستقراطية المال ، قد غدا منذ دخول فولد الوزارة بونابرتيا . ان فولد لم يكن يذود عن مصالح بونابرت في البورصة فحسب بل كان يدافع في الوقت نفسه عن مصالح البورصة امام بونابرت . ونحن نجد موقف اريستقراطية المال مصوراً باجلى بيان في فقرة وردت في لسان حالها الاوروبي ،

مجلة «Economist» (١٠٣) اللندنية ففي عددها الصادر في ١ شباط (فبراير) ١٨٥١ كتب مراسلها في باريس يقول

«تفيد الانباء الواردة من جميع الجهات ان فرنسا تطالب بالسكينة قبل كل شيء الرئيس يعلنها في رسالته الى الجمعية التشريعية ، وصداها يتردد من على المنابر الوطنية ، وهي تؤكد في الصحف وتذاع من كراسي الوعظ في الكنائس ، **وتثبتها حساسية السندات الحكومية حيال اقل بادرة من بوادر الاضطراب وثباتها في اللحظة التي يتضح فيها ان السلطة التنفيذية هي المنتصرة**» .

وتعلن «Economist» في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١ باسمها الخاص

«ان الرئيس هو حامي النظام . وبهذه الصفة تعترف به الآن جميع بورصات اوروبا»

ولهذا استنكرت اريستقراطية المال الصراع البرلماني لحزب النظام مع السلطة التنفيذية بوصفه **اخلالاً بالنظام** ورحبت بكل نصر احرزه الرئيس على ممثليها هي بالذات ، كما يبدو ، باعتباره **نصراً للنظام** ولا يجوز ان نفهم هنا من فئة «اريستقراطية المال» مجرد كبار متعهدي تقديم القروض والمضاربين في السندات الحكومية ، الذين تتفق مصالحهم تمام الاتفاق مع مصالح سلطة الدولة لاسباب واضحة تماماً . ان عالم المال الحديث كله ، اشغال البنوك بأسرها ، متشابكة اوثق التشابك مع قروض الدولة ان شطراً من رساميل البنوك هو بالضرورة مستثمر ومشغل بالربا في سندات حكومية قابلة للتصريف بسرعة كما ان الودائع البنكية ورأس المال الموضوع تحت تصرف البنوك التي توزعها بين التجار

ورجال الصناعة مستمدة جزئياً من ارباح حاملي السندات الحكومية . واذا كان استقرار سلطة الدولة قد عنى في جميع الازمنة قدس الاقداس بالنسبة الى السوق المالية باسرها وبالنسبة الى كهان هذه السوق المالية فلماذا لا يكون الامر كذلك من باب اولى اليوم عندما يهدد كل طوفان بكنس الدول القديمة وكنس ديون الدول القديمة معها ؟

كذلك البرجوازية الصناعية في تعصبها الاعمى للنظام اغضبتها مناقرات حزب النظام البرلماني مع السلطة التنفيذية . وقد تلقى تيير والجلاس وسان-بيف وغيرهم ، بعد تصويتهم في ١٨ كانون الثاني (يناير) بمناسبة عزل شانغارنييه ، توبيخات علنية من منتخبيهم ، من المناطق الصناعية بالذات ، عنفوا فيها بشدة لائتلافهم مع «الجبل» بوجه خاص باعتباره خيانة عظمى للنظام واذا كانت التقريعات المتبجحة والمكائد التافهة التي انحصر فيها صراع حزب النظام ضد الرئيس لا تستحق ، كما رأينا ، استقبالاً افضل مما استقبلت به فان هذا الجزء من البرجوازية الذي طالب ممثليه باخذ القوة العسكرية من برلمانه واعطائها بلا قيد ولا شرط الى مدع مغامر ، كان لا يساوي ، من ناحية اخرى ، حتى هذه المكائد التي بعزقت من اجل مصالحه . ولقد اثبت ان الصراع من اجل مصالحه العامة ومصالحه الطبقية الخاصة وسلطته السياسية لم يكن من شانه الا ان يزعجه ويتعبه لانه كان عائقاً لاعماله الخصوصية

ان اعيان البرجوازية في مدن المقاطعات ومستشاري البلديات واعضاء المحاكم التجارية ، الخ .، لقد استقبلوا بونابرت في كل مكان تقريباً اثناء رحلاته بمنتهى الخنوع وحتى في ديجون حيث

شن هجوما غير متحفظ على الجمعية الوطنية وخصوصا على حزب النظام .

عندما كانت التجارة رائجة ، كما كانت ما تزال عليه في اول عام ١٨٥١ ، ثارت البرجوازية التجارية ضدّ اي صراع برلماني لئلا يعتكر مزاج التجارة . وعندما كانت التجارة بائرة ، كما كانت باستمرار منذ نهاية شباط (فبراير) ١٨٥١ ، اتهمت البرجوازية التجارية الصراعات البرلمانية بانها سبب الركود وطالبت بالكف عن هذا الصراع قصد تشجيع التجارة . وقد جرت مناقشات اعادة النظر في الدستور في هذه الفترة السيئة بالضبط . ولما كانت القضية هنا هي فيما اذا كان الشكل القائم للدولة سيكون او لن يكون فقد شعرت البرجوازية بان لها ملء الحق في ان تطالب ممثليها بانهاء هذه الحالة الانتقالية المعذّبة وبالمحافظة في الوقت نفسه على الوضع القائم . ولم يكن في هذا اي تناقض فقد كانت تفهم بنهاية الحالة الانتقالية اطالتها بالضبط وتأجيل البت في الامور الى المستقبل البعيد . ولم يكن في الوسع المحافظة على الوضع القائم الا بطريقتين : بتمديد سلطة بونابرت او باعتزاله اعتزالا دستوريا وانتخاب كافينياك . وكان قسم من البرجوازية يميل الى الحل الاخير ولكنه لم يكن يعرف نصيحة يسديها الى ممثليه افضل من ان يلتزموا الصمت ويتركوا القضية الملحة دون مساس . وكان يرى انه اذا لم يتكلم ممثلوه فان بونابرت لن يعمل كان يريد برلمان نعامة يخفي رأسه حتى لا يراه احد . وكان قسم آخر من البرجوازية يرغب في ان يدع بونابرت جالسا على كرسي الرئاسة ، ما دام كان يجلس عليه بالفعل ، حتى يبقى كل شيء في مجراه القديم . وقد سخط

لان برلمانه لا يريد ان يخرق الدستور صراحة ويتخلى عن سلطته دون شكليات

ان المجالس العمومية في المقاطعات ، تلك الهيئات التمثيلية الاقليمية للبرجوازية الكبيرة ، التي انعقدت منذ ٢٥ آب (اغسطس) فصاعداً خلال عطلة الجمعية الوطنية ، اعلنت بالاجماع تقريباً انها مع اعادة النظر في الدستور ووقفت بذلك ضد البرلمان والى جانب بونابرت .

وقد اظهرت البرجوازية سخطها على ممثليها الادبيين ، على صحافتها هي على نحو اقل لبساً حتى من قطيعتها مع ممثليها البرلمانيين . فان الاحكام التي اصدرتها المحاكم البرجوازية بالغرامات النقدية الباهظة وبعقوبات السجن العديمة الحياء لكل هجوم يقوم به الصحفيون البرجوازيون على شهوات بونابرت الاغتصابية ولكل محاولة تقوم بها الصحافة للدفاع عن حقوق البرجوازية السياسية ضد تطاولات السلطة التنفيذية لم تدهش فرنسا وحدها بل ادهشت اوروبا باسرها

واذا كان حزب النظام البرلماني ، بصراخه من اجل ضرورة السكينة ، كما بيَّنتُ سابقاً قد حكم على نفسه بالهمود واذا كان يعلن ان حكم البرجوازية السياسي لا يتفق مع امن البرجوازية وبقائها ، بتدميره بيديه جميع شروط حكمه هو ، اي الحكم البرلماني ، في الصراع ضد طبقات المجتمع الاخرى ، فقد كانت جمهرة البرجوازية خارج البرلمان ، من جهة اخرى ، بخنوعها تجاه الرئيس وبعيبها في البرلمان وبسوء معاملتها الوحشية لصحافتها ذاتها ، تحفز بونابرت لاخماد وابادة الجزء الناطق والكاتب منها ، سياسييها وادبائها ، منبرها وصحافتها حتى يتسنى لها حينئذ متابعة شؤونها الخاصة في ثقة تامة بحماية حكومة

قوية غير مقيدة . لقد اعلنت بغير التباس انها كانت تحن الى التخلص من حكمها السياسي الخاص لكي تتخلص من هموم الحكم ومخاطره .

وهذه البرجوازية خارج البرلمان ، التي ثارت من قبل على الصراع البرلماني والادبي الصرف من اجل حكم طبقتها هي والتي خانت زعماء هذا الصراع ، تجرؤ الآن ، بعد حدوث ما حدث ، على اتهام البروليتاريا بانها لم تنهض من اجلها الى كفاح دام ، كفاح حياة او موت ! وهذه البرجوازية التي كانت تضحي في كل لحظة بالمصالح العامة لطبقتها ، اي بمصالحها السياسية في سبيل اضيق المصالح الخاصة واخسها وكانت تطالب ممثليها بتضحية مماثلة ، تنوح الآن زاعمة ان البروليتاريا قد ضحت بمصالحها السياسية المثالية (اي مصالح البرجوازية) في سبيل مصالحها المادية (اي مصالح البروليتاريا) انها تتصرف كانها كائن جميل اساءت البروليتاريا التي ضللها الاشتراكيون فهمه وخذلته في الساعة الحاسمة وتجد صرخاتها صدى في العالم البرجوازي كله . وانا لا اتحدث هنا بطبيعة الحال عن الساسة الالمان التافهين والجهلة . الى الصد ، على سبيل المثال ، مجلة «Economist» نفسها التي اعلنت ، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١ ، اي قبل الانقلاب باربعة ايام ، بونابرت «حاميا للنظام» وتيير وبرييه واضرابهما «فوضويين» ، والتي تصيح في ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، اي بعد ان اخمد بونابرت هؤلاء «الفوضويين» ، بشان الخيانة التي ارتكبتها «جماهير البروليتاريين الجهلة غير المهذبين البلداء» بحق «مواهب فئات المجتمع الوسطى والعليا وعلمها وانضباطها وتاثيرها العقلي ومواردها الفكرية ووزنها

الادبي » . ولكن الجمهور البليد الجاهل المبتذل لم يكن سوى الجمهور البرجوازي ذاته .

صحيح ان فرنسا مرت في عام ١٨٥١ بنوع من ازمة تجارية صغيرة . فقد اشارت نهاية شهر شباط (فبراير) الى هبوط في الصادرات بالمقارنة مع عام ١٨٥٠ ، وفي شهر آذار (مارس) ساءت حال التجارة واخذت المصانع تغلق ابوابها ، وفي شهر نيسان (ابريل) كان وضع المقاطعات الصناعية يبدو في حالة من اليأس تماثل تلك التي سادت بعد ايام شباط ، وفي شهر ايار (مايو) لم تكن الحال قد تحسنت بعد ، وقد دلت مقتنيات بنك فرنسا حتى في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) ، وذلك استناداً الى الزيادة الضخمة في الودائع والنقصان الكبير المماثل في التسليف على الحوالات المالية ، على ان الانتاج كان في حالة ركود ! ولم يطرأ تحسن تدريجي على الاشغال التجارية الا في منتصف تشرين الاول (اكتوبر) . وقد عزت البرجوازية الفرنسية هذا الركود التجاري الى اسباب سياسية بحتة ، والى الصراع بين البرلمان والسلطة التنفيذية ، والى عدم رسوخ الشكل الموقت للحكم ، والى المنظر المفزع ليوم الاحد الثاني من شهر ايار (مايو) ١٨٥٢ . ولست انكر ان هذه الظروف جميعاً كان لها اثرها في التدهور الذي طرأ على بعض فروع الصناعة في باريس والمقاطعات . بيد ان هذا التأثير للظروف السياسية كان على اية حال تأثيراً محلياً وزهيداً فحسب . وهذا ما تبرهنه بافضل نحو الحقيقة التي تشير الى ان تحسن التجارة قد بدأ في اواسط تشرين الاول (اكتوبر) بالضبط في اللحظة عينها التي ساءت فيهـا الحالة السياسية واكفهر الافق السياسي وكان نزول صاعقة من قصر الايليزيه متوقعاً في اية لحظة . ثم ان البرجوازي الفرنسي الذي لم

تكن «مواهبه وعلمه وبصيرته الروحية وموارده العقلية» تصل الى ابعد من انفه ، كان في وسعه طيلة فترة انعقاد المعرض الصناعي في لندن (١٠٤) ان يجد سبب بؤسه التجاري تحت انفه تماماً . فبينما كانت المصانع في فرنسا تقفل ابوابها ، كانت الافلاسات التجارية تتفشى في انجلترا ، وبينما بلغ الذعر الصناعي اوجه في فرنسا في نيسان (ابريل) وايار (مايو) ، بلغ الذعر التجاري في نيسان وايار اوجه في انجلترا . وكما قاست صناعة الصوف الفرنسية ، كذلك قاست صناعة الصوف الانجليزية ، وكما قاست صناعة الحرير الفرنسية كذلك قاست صناعة الحرير الانجليزية . صحيح ان معامل القطن الانجليزية واصلت اعمالها ولكنها لم تعد تجني نفس الارباح التي جنتها في سنتي ١٨٤٩ و١٨٥٠ . الفرق الوحيد هو ان الازمة في فرنسا كانت صناعية وفي انجلترا تجارية ، وانه بينما تعطلت المعامل في فرنسا ، وسعت اعمالها في انجلترا ولكن في ظروف اقل مؤاتاة من ظروف السنوات السابقة ؛ ان الصادرات هي التي تلقت الضربة الرئيسية في فرنسا وفي انجلترا الواردات اما السبب المشترك ، الذي لا يجوز ان نبحث عنه بطبيعة الحال ضمن حدود الافق السياسي الفرنسي ، فقد كان واضحـا . ان سنتي ١٨٤٩ و١٨٥٠ كانتـا سنتين من اعظم سنوات الرخاء المادي وفيض الانتاج الذي لم تظهر نتائجه الا في ١٨٥١ ففي بداية هذه السنة ، اشتد فيض الانتاج بوجه خاص بسبب من انعقاد المعرض الصناعي في المستقبل . وهنالك فضلا عن ذلك الظروف الخاصة التالية : اولا قلة محصول القطن في ١٨٥٠ و١٨٥١ ، وبعدئذ الثقة والامل في محصول قطن اكبر مما كان متوقعا ، اولا ارتفاع اسعار القطن ثم هبوطها المفاجىء ، وبالاختصار التقلبات في اسعار القطن . ان محصول الحرير الخام ،

في فرنسا على الاقل ، كان حتى اقل من المعدل . واخيراً اتسعت صناعة الصوف لدرجة كبيرة منذ عـام ١٨٤٨ حتى لم يعد في وسع انتاج الصوف ان يجاريها فارتفعت اسعار الصوف الخام بحيث انعدم كل تناسب بينها وبين اسعار المصنوعات الصوفية . هنا اذن ، في حالة المادة الخام لثلاثة فروع صناعية عالمية ، توفرت لدينا قاعدة مثلثة للركود التجاري وفضلا عن هذه الظروف الخاصة لم تكن الازمة الظاهرية لعام ١٨٥١ الا الوقفة التي تحدث على الدوام في حالة فيض الانتـاج والمبالغـة في المضاربة في سياق الدورة الصناعية قبل ان يستجمعا كل قوتهما لكي يقطعا بشكل محموم المرحلة الاخيرة لهذه الدورة ويصلا مرة اخرى الى نقطة بدئهما ، **الازمة التجارية العامة** وفي مثل هذه الفترات في تاريخ التجارة ، تتفشى الافلاسات التجاريـة في بريطانيا في حين تتعطل الصناعة نفسهـا في فرنسـا ، اذ تكون بنوع مـا مرغمة على التقهقر امـام مزاحمة الانجليز في جميع الاسواق ، تلك المزاحمة التي لا تستطيع ان تصمد لها في هذه الحـال ، وتكون بنوع آخر شديدة الحساسيـة بكل ركود في الاعمال بوصفها صناعة كماليات . وهكذا تجتاز فرنسا ، فضلا عن الازمات العامة ، ازمات تجارية وطنية خاصة بها يحددها ويشترطها برغم ذلك الوضع العام للسوق العالميـة اكثر بكثير من المؤثرات المحلية الفرنسية . ولا يخلو الامر من متعة اذا قارنا بين رأي البرجوازي الانجليزي وبين وهم البرجوازي الفرنسي . كتب واحد من اكبر البيوتات التجارية في ليفربول في تقريره التجاري السنوي لعام ١٨٥١ يقول :

وسنوات نادرة كذبت التوقعات التي تكونت عند بدايتها على نحو اتم مما فعلت السنة التي انقضت الآن . فبدلا من الازدهار العظيم الذي

كان يتطلع اليه الجميع ابتت انها واحدة من اكثر السنين التي رايناها في ربع القرن الاخير تثبيطا للعزائم – وهذا يتعلق ، بطبيعة الحال ، بالطبقات التجارية لا الصناعية ومع ذلك كانت هنالك بالتاكيد دواع كافية لتوقع العكس في بداية السنة – مخزون البضائع كان قليلا والرساميل كانت وفيرة والطعام كان رخيصا وكان يبدو ان المحصول الغني مضمون ؛ سلام غير منقطع على القارة ولا صعوبات سياسية او مالية في الوطن وبالفعل ، كان في وسع التجارة ، على ما يبدو ، ان تطلق اجنحتها اوسع مما في اي يوم مضى فلأي شيء اذن يمكن ان تعزى هذه النتيجة المشؤومة ؟ نحن نعتقد – الى التضخم التجاوزة بصورة فائقة العادة سواء في الواردات او في الصادرات واذا لم يضع تجارنا بانفسهم حدودا اضيق لنشاطهم ، فلن يحفظ توازننا غير فزع يتجدد كل ثلاث سنوات» .

والآن لنتصور البرجوازي الفرنسي كيف يتعذب ذهنه المخبول بالتجارة في غمرة هذا الذعر التجاري ويدور في دوامة وينذهل من شائعات الانقلابات واعادة حق الاقتراع الشامل ، من الصراع بين البرلمان والسلطة التنفيذية ، من مخاصمات الفروند فيما بين الاورليانيين والشرعيين ، من المؤامرات الشيوعية في جنوب فرنسا ، من انتفاضات الفلاحين المزعومة في مقاطعتي نييفر وشير ، من اعلانات مختلف المرشحين للرئاسة ، من الشعارات الكثيرة الوعود في الصحف ، من تهديدات الجمهوريين بالدفاع عن الدستور وحق الاقتراع الشامل بقوة السلاح ، من الرسائل الانجيلية من المهاجرين الابطال in partibus التي تبشر بانتهاء العالم يوم الاحد الثاني من ايار (مايو) ١٨٥٢ – لنتامل كل ذلك ، نفهم لماذا كانت البرجوازية ، في هذه الفوضى التي لا توصف والتي تصم الاذان بما فيها من صهر واعادة نظر وتمديد

دستور وتآمر وائتلاف وهجرة واغتصاب وثورة ، ترغي وتزبد مبهورة الانفاس ، وتزعق في جمهوريتها البرلمانية «النهاية برعب ولا رعب بلا نهاية !» .

وقد فهم بونابرت هذه الصرخة ان قدرته على الادراك قد ارهفتها الجلبة المتزايدة للدائنين الذين كانوا يعتقدون انه مع كل مغيب للشمس يقرّب آخر يوم الرئاسة ، الاحد الثاني من ايار (مايو) ١٨٥٢ ، تعلن حركة النجوم رفض دفع كمبيالاتهم الارضية . لقد اصبحوا منجمين حقيقيين ان الجمعية الوطنية بددت آمال بونابرت في تمديد سلطته تمديداً دستورياً ، ولم يعد ترشيح الامير جوانفيل يسمح باي تارجح

لو ان حادثا القى يوما بظلاله امامه قبل مجيئه بمدة طويلة لكان هذا انقلاب بونابرت . ففي اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩ ، ولما يكد ينقضي على انتخابه شهر ، قدم اقتراحاً بهذا المعنى الى شانغارنييه . وفي صيف عام ١٨٤٩ تحدث رئيس وزرائه ذاته ، واديلون بارو ، سراً عن سياسة الانقلاب ، وفي شتاء عام ١٨٥٠ فعل تيير ذلك علناً وفي ايار (مايو) ١٨٥١ سعى برسنييه مرة اخرى لكسب شانغارنييه الى جانب الانقلاب وقد نشرت «Messager de l'Assemblée» (١٠٥) وصفا لهذه المفاوضات . وفي اثناء كل عاصفة برلمانية كانت الصحف البونابرتية تهدد بالانقلاب وكلما كانت الازمة تقترب كانت نبرتها ترتفع وفي مجالس القصف والسكر التي كان بونابرت يعقدها ليليا مع رجال ونساء من طغام الناس وحالما كانت ساعة منتصف الليل تقترب والجرعات الكبار تطلق الالسنة وتلهب الخيال كان الصباح التالي يحدّد موعداً للانقلاب . كانت السيوف تسل والكؤوس تقرع والنواب يلقى

بهم من النافذة والعباءة الامبراطورية تسقط على كتفي بونابرت الى ان يلاشي الصباح التالي الاشبـاح مرة اخرى وتعلم باريس المندهشة من كاهنات فستا القليلات الكتمان ومن الفرسان الطائشين بالخطر الذي نجت منه مرة اخرى . في خلال شهري ايلول (سبتمبر) وتشرين الاول (اكتوبر) كانت شائعات coup d'état تتوالى بسرعة الواحدة في اثر الاخرى . وكان الظل يكتسب لوناً مثل الداجوروتيب* المرقش حسبنا ان نتصفح اعداد شهري ايلول وتشرين الاول من الجرائد الاوروبية لنجد فيها كلمة فكلمة اخباراً كما يلي : «شائعات انقلاب تملأ باريس . يقولون ان العاصمة ستحتل بالجنود اثناء الليل وسيجلب الصبـاح التالي مراسيم بحل الجمعية الوطنية وباعلان حالة الحصار في مقاطعة السين واعادة حق الاقتراع الشامل والرجوع الى الشعب يقال ان بونابـرت يبحث عن وزراء لتنفيـذ هذه المراسيـم غير القانونية» . وكانت الرسائل التي تأتي بهذه الانباء تنتهي دائماً بالكلمة المشؤومة «يؤجل» . ان الانقلاب كان دائمـاً الفكرة الراسخة لدى بونابرت . بهذه الفكرة وطئت قدماه ثانية الارض الفرنسية . وقد كانت تلح عليه وتلاحقـه بحيث كان يفشيهـا بصورة متواصلة ويفتفت بها . وكان من الضعف بحيث كان يقلع عنهـا بنفس الصورة المتواصلـة ان ظل الانقلاب قد اصبح مالوفـاً للباريسيين كشبح حتى انهـم لم يكونوا على استعداد للتصديق به عندما مثل امامهم اخيراً باللحم والدم . وعلى هذا فلا الكتمـان المتحفظ لرئيس جمعية العـاشر من كانون الاول

---

* صورة فوتوغرافية مطبوعة على لوحة معدنية معالجة على نحو خاص . الناشر .

(ديسمبر) ولا اخذ الجمعية الوطنية على حين غفلة هما السبب الذي اتاح للانقلاب ان ينجح . ولئن نجح فهو قد نجح بالرغم من غدر بونابرت ومع علم الجمعية الوطنيــة التــام السابــق بالانقلاب ، وكان نتيجة ضرورية وحتمية للتطورات السابقة .

في اليوم العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) اعلن بونابرت لوزرائه قراره باعادة حق الاقتراع الشامل ، وفي اليوم السادس عشر قدموا استقالاتهــم ، وفي اليوم السادس والعشرين علمــت باريس بتشكيل وزارة تورينيي . وفي الوقت ذاته نحّي مدير الشرطة كارلييه واستبدل به موبا ، بينما قام رئيس الفرقة العسكرية الاولى مانيان بتركيز اكثر الفصائل اهلا للثقة في العاصمة . وفي الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) استأنفت الجمعية الوطنية جلساتها . ولم يكن لديها ما تفعله افضل من ان تجمل في صيغة وجيزة مقتضبة الطريق الذي سلكته وان تثبت انها لم تدفن الا بعد ان ماتت .

وكان اول مركز خسرته في الصراع مع السلطة التنفيذية هو الوزارة وكان عليها ان تأخذ بوقــار علمــاً وخبراً بهذه الخسارة وذلك باعترافها التام بوزارة تورينيي الزائفة تماماً واستقبلت اللجنة الدائمــة المسيو جيرو بالضحك عندمــا قدم نفسه باسم الوزارة الجديدة مثل هذه الوزارة الضعيفة لمثل هذا الاجراء القوي كاعادة حق الاقتراع الشامل ! ومع ذلك كان الهدف بالضبط عدم اجازة شيء بواسطة البرلمان بل اجازة كل شيء ضد البرلمان .

وفي اليوم الاول بالذات لاعادة افتتــاح الجمعية الوطنية تلقت الجمعية من بونابرت الرسالة التي طلب فيها اعادة حق الاقتراع الشامل والغاء قانون ٣١ ايار (مايو) ١٨٥٠ . وفي

اليوم نفسه قدم وزراؤه مرسوماً بهذا الشأن وقد رفضت الجمعية الوطنية على الفور اقتراح استعجال المرسوم الذي قدمه الوزراء ورفضت القانون نفسه في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) بثلاثمائة وخمسة وخمسين صوتاً مقابل ثلاثمائة وثمانية واربعين . وهكذا مزقت تفويضها مرة اخرى واثبتت مرة اخرى انها قد حولت نفسها من ممثلة للشعب منتخبة انتخاباً حراً الى برلمان غاصب لطبقة واحدة ، لقد اعترفت مرة اخرى بانها قطعت بنفسها العضلات التي تصل الرأس البرلماني بجسم الامة

واذا كانت السلطة التنفيذية باقتراحها اعادة حق الاقتراع الشامل قد استأنفت الامر من الجمعية الوطنية الى الشعب ، فان السلطة التشريعية بمشروع قانون الكويستور قد استأنفت الامر من الشعب الى الجيش . وقد قصدت الجمعية الوطنية من مشروع القانون هذا ان تثبت حقها في استدعاء الجنود مباشرة وتشكيل جيش برلماني . واذا عينت الجمعية الوطنية الجيش على هذا الوجه حكماً بينها وبين الشعب ، وبينها وبين بونابرت ، واذا اعترفت بالجيش بوصفه القوة الحاسمة في الدولة فقد كان عليها ان تؤكد ، من الجهة الاخرى ، انها قد تخلت منذ زمن طويل عن ادعائها بالسيطرة على هذه القوة واذا هي ناقشت حقها في استدعاء الجنود بدلا من ان تستدعيهم على الفور فضحت الشكوك التي كانت تساورها بشأن قوتها بالذات واذا هي رفضت مشروع قانون الكويستور ، اعترفت على الملأ بعجزها ان مشروع القانون هذا هزم لأنه نال اقلية من مائة وثمانية اصوات . وهكذا فصل «الجبل» في الامر لقد وجد «الجبل» نفسه في موقف حمار بوريدان ، ولكنه لم يكن بين حزمتين من القش كان عليه ان يقرر الاطرف منهما بل كان بين زختين من

الضربات وعليه ان يقرر الاقسى منهمـا كان هنالك من جهة الخوف من شانغارنييـه ومن جهة اخرى الخوف من بونابرت وعلى المرء ان يعترف بان الموقف لم يكن بالموقف البطولي

في اليوم الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ورد تعديل على قانون الانتخابات البلدية الذي قدمه حزب النظام بالذات ، ويقضي التعديل باعتبـار الاقامـة لمدة سنة واحدة ، بدلا من ثلاث سنوات ، كافيـة بالنسبـة للناخبين البلديين . وقد خذل التعديل باغلبية صوت واحد فقط ، بيد انه تبين على الفور ان هذا الصوت الوحيد كان مسجلا من قبيل الخطا . ان حزب النظام ، وقد انقسم الى تكتلات متعادية ، قد خسر منذ زمن بعيد اكثريته البرلمانية المستقلة . وقد تبين الآن انه لم تعد هناك في البرلمان اغلبية على الاطلاق . ان الجمعية الوطنية غدت **عاجزة عن اتخاذ القرارات** . لم تعد هنالك قوة تماسك من اي نوع تشد جزئياتها بعضها لبعض . لقد لفظت نفسها الاخير . لقد ماتت .

واخيراً وقبل الكارثـة بايـام قلائل ، كان على جمهـرة البرجوازية خارج البرلمان ان تؤكد مرة اخرى على نحو مهيب انقطاع العلائق بينها وبين البرجوازية في البرلمـان ان تيير ، وهو كبطل برلماني مصـاب اكثر بكثير من الباقين بداء البلاهة البرلمانية العضال ، قد عمد ، بعد موت البرلمـان ، بالاشتراك مع مجلس الدولة ، الى تدبير مكيدة برلمانية جديدة — قانون مسؤولية من شانـه ان يقيد الرئيس تقييداً صارمـا بحدود الدستور وكمـا ان بونابرت لدى وضعه حجر الاسـاس لقاعـات السوق الجديدة المسقوفـة في باريس في ١٥ ايلول (سبتمبر) ، قد سحر ، كانه مازنيللو ثان ، سيدات السوق ، بائعات السمك — صحيح ان الواحدة منهن كانت ترجح في قوتها

الحقيقية سبعة عشر برجرافاً – وكما انه ، بعد تقديم مشروع قانون الكويستور ، فتن الملازمين الذين اقام لهم الولائم في قصر الايليزيه ، كذلك الآن في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) صاق وراءه البرجوازية الصناعية التي اجتمعت في السيرك لتستلم من يديه الاوسمة عن معرض لندن الصناعي . وساورد الجزء ذا المغزى من خطابه كما ورد في «Journal des Débats» :

ومع مثل هذه النجاحات التي لم يكن يأملها احد ، لدي ملء الحق في ان اكرر كم ستكون الجمهورية الفرنسية عظيمة لو اتيح لها ان تلاحق مصالحها الحقيقية وتصلح مؤسساتها بدلا من ان تمنى بالخسارة على الدوام بسبب من ازعاج الديماغوجيين من جهة واضغاث الملكية من جهة اخرى . (تصفيق مدو ، عاصف ، متواصل من جميع ارجاء المدرج .) ان الاضغاث الملكية تعرقل كل تقدم وكل فروع الصناعة الهامة بدلا من التقدم لا شيء سوى الصراع . ونحن نرى قوماً كانوا قبلا اشد المؤيدين الغير للسلطة الملكية والامتيازات الملكية ويعملون الآن بروح الكونفانسيون لا لشيء الا ليضعفوا السلطة التي انبثقت عن حق الاقتراع الشامل . (تصفيق مدو متواصل .) ونحن نرى قوماً عانوا اشد المعاناة من الثورة وتذمروا منها اشد التذمر يستثيرون ثورة جديدة وما ذلك الا ليقيدوا ارادة الامة التي اعدكم بالسكينة بالنسبة للمستقبل» ، الخ ، الخ (هتافات عاصفة «مرحى» ، «مرحى» ، «مرحى» .)

وهكذا تهلل البرجوازية الصناعية بصيحات الاستحسان الذليلة لانقلاب الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ولابادة البرلمان ولسقوط حكمها هي – ولديكتاتورية بونابرت . ان هدير التهليل في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) قد وجد جوابه في هدير المدافع

في ٤ كانون الاول ، وقد كان بيت المسيو سالاندروز ، الذي فاق الجميع بالتصفيق ، اكثر البيوت تعرضاً للقصف

عندما حل كرومويل البرلمان الطويل (١٠٦) ، ذهب بمفرده الى قاعة الجلسات واخرج ساعته حتى لا يبقى البرلمان دقيقة واحدة بعد الوقت الذي ضربه ، وصرف كل عضو من اعضاء البرلمان مشيعاً بالتوبيخات الفكهة المرحة . ونابوليون ، وهو اصغر من قدوته ، اخذ نفسه على الاقل في الثامن عشر من بروميير الى الجمعية التشريعية وتلا عليها ، ولو بصوت متقطع ، الحكم باعدامها . اما بونابرت الثاني الذي وجد في حيازته ، فضلا عن هذا ، سلطة تنفيذية تختلف كل الاختلاف عن سلطة كرومويل او نابوليون فقد بحث عن نموذجه لا في صحائف تاريخ العالم بل في تاريخ جمعية العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ، في تاريخ المحاكم الجنائية فقد سلب بنك فرنسا خمسة وعشرين مليونا من الفرنكات فاشترى الجنرال مانيان بمليون والجنود بخمسة عشر فرنكا للنفر الواحد وبالخمر واجتمع بشركائه في الجريمة سراً كاللص في الليل واوعز باقتحام منازل اشد الزعماء البرلمانيين خطراً وبجر كافينياك ولاموريسيير وليفلو وشانغارنييه وشاراس وتيير وباز ، الخ .، من الفراش وبسوقهم الى السجن وباحتلال الجنود للمراكز الرئيسية في باريس ولمبنى البرلمان وبتعليق اعلانات في الصباح الباكر على جميع الجدران في العاصمة تعلن حل الجمعية الوطنية ومجلس الدولة واعادة حق الاقتراع الشامل وفرض حالة الحصار في مقاطعة السين . وبعد مدة وجيزة نشر في «Moniteur» وثيقة مزورة تزعم ان ذوي النفوذ من البرلمانيين قد اجتمعوا حوله وشكّلوا مجلس دولة استثنائيا .

واجتمعت بقايـا البرلمان في مبنى بلدية الدائرة العاشرة وكانت تتـالف بصورة رئيسيـة من الشرعيين والاورليانيين ، وقرروا خلع بونـابرت وسط الصيحـات المتكررة «عاشت الجمهورية !» ، وجلجلوا عبثـاً في الجماهير الفضوليـة امام المبنى ، ثم سيقوا اخيراً في حراسـة الرمـاة الافريقيين اولا الى ثكنات اورسي وكدسوا بعد ذلك في عربات السجن ونقلوا الى سجون مازاس وهام وفنسين . وهكذا انتهى حزب النظام والجمعية التشريعية وثورة شباط (فبراير) .

وقبل ان نبادر الى الختام لنلخص بايجاز تاريخ الاخيرة

١ ـ **الفترة الاولى** : من ٢٤ شباط (فبراير) لغاية ٤ أيار (مايو) ١٨٤٨ . فترة شباط تمهيد . مهزلة التآخي الشامل .

٢ ـ **الفترة الثانية** : فترة تاسيس الجمهوريـة والجمعيـة الوطنية التاسيسية

١) من ٤ أيـار (مايو) لغاية ٢٥ حزيران (يونيو) ١٨٤٨ نضال جميع الطبقـات ضد البروليتاريـا هزيمـة البروليتاريا في ايام حزيران .

٢) من ٢٥ حزيران (يونيـو) لغايـة ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ . ديكتاتورية الجمهوريين البرجوازيين الصرف . صياغة الدستور اعلان حالـة الحصـار في باريس تنحيـة الديكتاتورية البرجوازية في ١٠ كانون الاول (ديسمبر) بانتخاب بونابرت رئيسا للجمهورية

٣) من ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ لغاية ٢٨ ايار (مايو) ١٨٤٩ . صراع الجمعية التاسيسية ضد بونابرت وضد حزب النظام المتحالف معه . هلاك الجمعية التاسيسية . هزيمة البرجوازية الجمهورية .

٣ ـ الفترة الثالثة : فترة الجمهورية الدستورية والجمعية الوطنية التشريعية .

١) من ٢٨ ايــار (مايو) ١٨٤٩ لغايــة ١٣ حزيران (يوليو) ١٨٤٩ . صراع البرجوازية الصغيرة ضد البرجوازية وضد بونابرت . هزيمة الديموقراطية البرجوازية الصغيرة

٢) من ١٣ حزيران (يوليو) ١٨٤٩ لغاية ٣١ ايــار (مايو) ١٨٥٠ . الديكتاتورية البرلمانية لحزب النظام الحزب يكمل حكمه بالغاء حق الاقتراع الشامل ولكنه يخسر الوزارة البرلمانية .

٣) من ٣١ ايار (مايو) ١٨٥٠ لغاية ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ . الصراع بين البرجوازيــة البرلمانيــة وبونابرت

أ ــ من ٣١ ايار (مايو) ١٨٥٠ لغاية ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٨٥١ . البرلمان يخسر القيادة العليا للجيش

ب ــ من ١٢ كانون الثاني (يناير) لغايــة ١١ نيســان (ابريل) ١٨٥١ البرلمان يخذل في محاولاته لاخضاع السلطة الادارية لنفسه ثانية . حزب النظام يخسر اكثريته البرلمانية المستقلة . ائتلافه مع الجمهوريين و«الجبل» .

ج ــ من ١١ نيســان (ابريل) ١٨٥١ لغاية ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٥١ محاولات لاعادة النظر في الصلاحيات وصهرها وتمديدها حزب النظام ينحل الى عناصره الاصلية القطيعة النهائية بين البرلمان البرجوازي والصحافة البرجوازية ، وجمهرة البرجوازية .

د ــ من ٩ تشرين الاول لغاية ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ . القطيعة المكشوفة بين البرلمان والسلطة التنفيذية .

البرلمان يلفظ نفسه الاخير ، فقد سقط وتركته طبقته ذاتهـــا والجيش وجميع الطبقات الباقية هلاك النظام البرلماني وحكم البرجوازية انتصار بونابرت مهزلة اعادة الامبراطورية

٧

لقد ظهرت الجمهورية الاجتماعية على عتبة ثورة شباط (فبراير) كانها لفظة ، كانها نبوءة . وفي ايام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ اغرقت بدم بروليتاريا باريس ، بيد انها تخيم كالشبح على الفصول التالية من الدراما وظهرت الجمهورية الديموقراطية على الحلبة وفي ١٣ حزيران ١٨٤٩ تزول هي وبرجوازيوها الصغار الذين يتشتتون ، لكنها في اثناء هروبها تتغنى بمناقبها بتبجح مضاعف . وتستولي الجمهورية البرلمانية ، هي والبرجوازية ، على المسرح بأسره . وتتمتع هذه بالبقاء غاية التمتع ؛ بيد ان الثاني من كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٥١ يدفنها على وقع صيحـــه الرعب التي يطلقهـــا الملكيون المؤتلفون «عاشت الجمهورية !»

ان البرجوازية الفرنسية قد تمردت على سلطة البروليتاريا العاملة وجلبت حثالة البروليتاريـــا الى السلطة وعلى رأسهم رئيس جمعيـــة العاشر من كانون الاول (ديسمبر) وابقـــت البرجوازية فرنسا في خوف يكتم الانفاس من الفظائع المقبلة للفوضى الحمراء وقد خصم بونابرت لها هذا المستقبل عندما ترك جيش النظام الذي لعبت به نشوة الخمر يقتل رمياً بالرصاص في ٤ كانون الاول اعيان البرجوازية في بولفار مونمارتر وبولفار الطليان وهم على نوافذ بيوتهم لقد الّهت السيف ، فحكمهـــا السيف . لقد دمرت الصحافة الثورية ، فدمرت صحافتها هي .

لقد وضعت الاجتماعات الشعبية تحت رقابة الشرطة ، فوضعت صالوناتها تحت رقابة الشرطـة . لقد سرحت الحرس الوطني الديموقراطي ، فسرح حرسها الوطني . لقد فرضت حالة الحصار ، ففرضت عليها حالة الحصار لقد استعاضت عن محاكم المحلفين باللجان العسكرية ، فاستعيض عن محاكم محلفيهـا باللجـان العسكرية . لقد اخضعت التعليم العام لحكم الكهنـة ، فاخضع الكهنة تعليمها هي . لقد ابعدت الناس دون محاكمة ، فأُبعدت هي دون محاكمة لقد قمعت كل حركة في المجتمع بواسطة سلطة الدولة ، فاخمدت سلطة الدولة كل حركة في مجتمعها لقد ثارت ، بدافع الغيرة على جزدانها ، ضد ساستها وادبائها ، فكُنِّس ساستها وادباؤها جانباً ولكن جزدانها ينهب الآن وقد كمم فمها وكسر قلمها ان البرجوازية لم تكل ابداً من الصياح للثورة بمثل ما صاح القديس ارسينيوس بالمسيحيين Fuge, tace, quiesce! الهرب ، الصمت ، السكينة ! » ، وصاح بونابرت بالبرجوازيـة Fuge, tace, quiesce! الهرب ، الصمـت ، السكينة ! » .

ان البرجوازية الفرنسية قد وجدت منذ زمن بعيد حلا لمعضلة نابوليون المزدوجـة : -Dans cinquante ans l'Eu * rope sera républicaine ou cosaque . انها وجدت الحل في «république cosaque»** ما من ساحرة افريقية مسخت بسحرهـا الشرير ذلك العمل الفني ، الجمهوريـة البرجوازية ،

* «في مدى خمسين سنة ستكون اوروبا اما جمهورية او قوزاقية». الناشر .

** «الجمهورية القوزاقية» . الناشر .

فاحالته الى شكل وحش فظيع ان تلك الجمهورية لم تفقد شيئاً الا مظاهر اللياقة ان فرنسا الراهنة* كانت تضمها الجمهورية البرلمانية وهي في حالة كمال وانتهاء . ولم تكن تحتاج الا الى طعنة حربة حتى تنفجر الفقاعة ويثب الوحش امام عيوننا

لماذا لم تهب بروليتاريا باريس ثائرة بعد ٢ كانون الاول (ديسمبر) ؟

ان قلب البرجوازية كان حتى ذلك الحين قد صدر به قرار فحسب ، ولم يكن هذا القرار قد وضع موضع التنفيذ . وقد كان من شأن اي تمرد جدي تقوم به البروليتاريا ان يبعث في البرجوازية حياة جديدة على الفور وان يصالحها مع الجيش ويضمن هزيمة جديدة للعمال كهزيمة حزيران (يونيو)

في الرابع من كانون الاول (ديسمبر) قام البرجوازيون واصحاب الدكاكين بتحريض البروليتاريا على القتال وفي مساء ذلك اليوم وعدت عدة فرق من الحرس الوطني بالظهور بسلاحها ولباسها العسكري في مسرح المعركة ذلك ان البرجوازيين واصحاب الدكاكين بلغ مسامعهم ان بونابرت قد الغى الاقتراع السري في احد القرارات التي اصدرها في ٢ كانون الاول واوجب عليهم ان يسجلوا كلمة «نعم» او «لا» في سجلات الناخبين الرسمية بعد اسمائهم ان مقاومة ٤ كانون الاول قد ارهبت بونابرت فاوعز بتعليق لافتات اثناء الليل على جميع منعطفات الشوارع في باريس تعلن اعادة الاقتراع السري واعتقد البرجوازيون واصحاب الدكاكين انهم ادركوا غايتهم وكان

* اي فرنسا بعد انقلاب سنة ١٨٥١ . الناشر .

الذين تخلفوا عن الحضور في الصبــاح التــالي هم البرجوازيون واصحاب الدكاكين بالذات

وبضربة مفاجئة في ليلة ١ الى ٢ كانون الاول (ديسمبر) افقد بونابرت بروليتاريا باريس زعماءها ، قادة المتاريس واذ غدت البروليتاريا جيشاً بلا ضباط ، عازفاً عن القتال تحت لواء «الجبل» بسبب ذكريات حزيران (يونيو) ١٨٤٨ و١٨٤٩ وايار (مايو) ١٨٥٠ ، فقد تركت لطليعتها ، الجمعيات السرية ، مهمة انقاذ شرف التمرد لمدينــة باريس وهو الذي سلمتــه البرجوازية للجند دون ادنى مقاومة حتى ان بونابرت استطاع فيما بعد ان يفسر متهكماً الدافع الذي حدا به الى نزع سلاح الحرس الوطني بانه كان يخشى ان يوجه الفوضويون انفسهم هذا السلاح ضد الحرس نفسه !

*« C'est le triomphe complet et définitif du socialisme! » هكذا وصف غيزو انقلاب ٢ كانون الاول . ولكن اذا كانت الاطاحة بالجمهورية البرلمانيــة تحمل في طياتهــا بذرة انتصار الثورة البروليتارية فان نتيجتها المباشرة والمحسوسة كانت **انتصار بونابرت على البرلمان وانتصار السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية وانتصــار القوة بلا كلام على قوة الكلام** . في البرلمان جعلت الامة ارادتها العمومية هي القانون اي انهــا جعلت قانون الطبقة الحاكمة ارادتهــا العمومية وهي امــام السلطة التنفيذية تتخلى عن كل ارادة خاصة بها وتذعن لامرة ارادة غريبة ، للسلطة ان السلطة التنفيذية ، بالمقابلة مع السلطة التشريعية ، تعبر عن خضوع الامة لحكم الغير بالمقابلة مع ممارستها للحكم الذاتي ولهذا يبدو ان فرنسا لم تنج من

* وهذا هو انتصار الاشتراكية التام النهائي ! » الناشر .

استبداد طبقة برمتهـا الا لتقع تحت استبداد فرد بل وتحت سلطة فرد بلا سلطة ويبدو ان الصراع قد انتهى بحيث ان جميع الطبقات ، وقد تساوت عجزاً وسكوتاً ، جثت على ركبها امام عقب البندقية .

بيد ان الثورة عميقة الجذور انها ما تزال في رحلتهـا خلال المطهر وهي تقوم بعملها بصورة منهجية وقد كانت لغاية ٢ كانون الاول ١٨٥١ قد اتمت نصف عملها التحضيري وهي الآن تتم النصف الآخر انها اكملت اولا السلطة البرلمانية حتى تتمكن من الاطاحة بهـا امـا الآن وقد بلغت هذه الغاية فهي تكمل السلطة التنفيذية ، تردها الى اخلص تعبيراتها وتعزلها ثم تنصبها في مواجهتها هي باعتبارها الهدف الوحيد حتى تركز جميع قواتها التدميرية ضدها وعندما تكون قد انجزت هذا النصف الثاني من عملها التمهيدي ستثب اوروبـا من مقعدهـا وتصيح متهللة لقد أحسنت نبشا ايها الخلد العجوز !*

ان هذه السلطة التنفيذية ، بما لها من منظمة بيروقراطية وعسكرية ضخمة وبما لها من جهاز دولة معقد جداً ومضخم قصداً وجيش من الموظفين يبلغ نصف مليون رجل ، فضلا عن جيش عدده نصف مليون آخر ، هذه الهيئة الطفيلية المريعة التي تلتف حول كل جسد المجتمع الفرنسي كالشباك وتخنق جميع مسامّه ، نشـات ايام الملكية المطلقـة ، مع تدهور الاقطاعية الذي ساعدت هذه الهيئة على التعجيل به ان امتيازات السيادة التي كان يتمتع بها ملاكو الاراضي وتتمتع بها المدن قد تحولت بالكثرة لنفسهـا الى خصائص لسلطة الدولة وتحول الاعيـان الاقطاعيون الى موظفين ذوي مرتبات وتحولت الخريطة المبرقشة

* شكسبير . «هملت» ، الفصل الاول ، المشهد الخامس . الناشر .

من الحقوق الاقطاعية المطلقة المتنازعة التي كانت قائمة في القرون الوسطى الى خطة منسقة لسلطة الدولة التي ينقسم عملها ويتمركز كما هو في مصنع من المصانع . ان الثورة الفرنسية الاولى ، بما اخذته على عاتقها من تحطيم لجميع السلطات المحلية والاقليمية المتفرقة وسلطات المدن والمقاطعات حتى يتسنى لها خلق الوحدة الاهلية للامة ، كانت ملزمة بان تطور ذلك الذي بدأت به الملكية المطلقة : المركزية ، ولكنها ضخمت في الوقت نفسه امتداد السلطة الحكومية وخصائصها وعدد الوكلاء العاملين فيها وقد اكمل نابوليون جهاز الدولة هذا . ولم تضف الملكية الشرعية وملكية تموز (يوليو) شيئاً اليه سوى مزيد من تقسيم العمل كان ينمو بقدر ما كان تقسيم العمل ضمن المجتمع البرجوازي يخلق مجموعات مصالح جديدة فيخلق بالتالي مادة جديدة لادارة الدولة ان كل مصلحة مشتركة كانت تفصل تواً عن المجتمع وتوضع في مواجهته باعتبارها مصلحة عامة اعلى وتنزع من مجال نشاط اعضاء المجتمع انفسهم وتجعل موضوعاً للنشاط الحكومي ، ابتداء من الجسر ومبنى المدرسة والملكية المشاعية لمجتمع قرية من القرى حتى السكك الحديدية والثروة القومية وجامعات فرنسا الحكومية . واخيراً وجدت الجمهورية البرلمانية نفسها ، في صراعها ضد الثورة ، مرغمة على تعزيز وسائل سلطة الحكومة ومركزتها جنباً الى جنب مع اتخاذ الاجراءات القمعية ان جميع الانقلابات اكملت هذه الآلة بدلا من ان تحطمها . وكانت الاحزاب التي تنازعت السيطرة بالتناوب تعتبر حيازة صرح الدولة الضخم هذا الغنيمة الرئيسية للمنتصر

ولكن البيروقراطية ، في ظل الملكية المطلقة وخلال الثورة الاولى وفي عهد نابوليون ، لم تكن الا وسيلة لاعداد الحكم

الطبقي للبرجوازية . وقد كانت في عهد العودة وعهد لويس فيليب وعهد الجمهورية البرلمانية اداة الطبقة السائدة ، رغم كل جهادها (اي البيروقراطية) لكي تجعل من نفسها سلطة مستبدة

وفي عهد بونابرت الثاني فقط ، بدا ان الدولة جعلت نفسها مستقلة تمام الاستقلال وقد وطد جهاز الدولة مركزه ازاء المجتمع المدني حتى انه اصبح ممكناً ان يكون على راسه رئيس جمعية العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ، وهو مغامر جاء من الخارج ورفعته على الترس ايدي الجند السكارى الذين اشتراهم بالخمر والمقانق وكان عليه ان يمونهم على الدوام بالمقانق من جديد ومن هنا كان الياس الذليل وشعور الاذلال والامتهان الفظيع الذي يثقل صدر فرنسا ويحبس انفاسها انها تشعر بالعار

ومع هذا فان سلطة الدولة ليست معلقة في الهواء ان بونابرت يمثل طبقة هي فضلا عن ذلك ، اكثر طبقات المجتمع الفرنسي عددا ونعني بها الفلاحين الصغار

وكما ان البوربونيين كانوا اسرة العقارات الكبيرة وكما ان الاورليانيين كانوا اسرة المال كذلك البونابرتيون هم اسرة الفلاحين اي جمهرة الشعب الفرنسي . فليس بونابرت الذي خضع للبرلمان البرجوازي بل بونابرت الذي شتت البرلمان البرجوازي هو مختار الفلاحين لقد نجحت المدن طيلة ثلاث سنين في تزوير معنى انتخاب العاشر من كانون الاول (ديسمبر) وفي خداع الفلاحين وتخييب لملهم بعودة الامبراطورية ان انتخاب العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ لم يبلغ تمامه الا بانقلاب الثاني من كانون الاول ١٨٥١ .

ان الفلاحين الصغار يشكلون كتلة ضخمة يعيش اعضاؤها في ظروف متشابهة ولكن دون ان يدخلوا في علاقات متشعبة بعضهم مع بعض . ان اسلوبهم في الانتاج يعزلهم الواحد عن الآخر بدلا من ان يدفعهم الى التعامل المتبادل وتشتد هذه العزلة بسبب وسائل المواصلات السيئة في فرنسا وبسبب فقر الفلاحين ان ميدان انتاجهم – وهو قطعة الارض الصغيرة – لا يسمح بتقسيم العمل في فلاحتها ولا بتطبيق العلم ولا يسمح بالتالي بتنوع اشكال التطور ولا بتنوع المواهب ولا بغنى العلاقات الاجتماعية . ان كل اسرة فلاحية بمفردها مكتفية ذاتيا تقريبا ، وهي نفسها تنتج مباشرة الجزء الاكبر من استهلاكها وتحصل بذلك وسائل عيشها من التبادل مع الطبيعة اكثر مما تحصلها من التعامل مع المجتمع قطعة ارض صغيرة ، فلاح واسرته . والى جوارهم قطعة ارض صغيرة اخرى وفلاح آخر واسرة اخرى ان حفنة من هذه الوحدات تشكل قرية وحفنة من القرى تشكل مقاطعة . وبهذه الطريقة تتكون الجمهرة العظمى من الامة الفرلسية بمجرد اضافة مقادير متناظرة مثلما تكوّن رؤوس البطاطا في كيس كيس بطاطا . وبما ان ملايين الأسر تعيش في ظروف اقتصادية تفصل نمط حياتها ومصالحها وثقافتها عن نمط حياة الطبقات الاخرى ومصالحها وثقافتها ، وتضعها في موضع التضاد العدائي مع الاخيرة فانها تشكل طبقة وبما انه لا يقوم بين هؤلاء الفلاحين الصغار غير علاقات محلية وبما ان تطابق مصالحهم لا يخلق بينهم رابطة مشتركة او رابطة وطنية او تنظيما سياسيا فهم لا يشكلون طبقة . ولذلك يعجزون عن الدفاع عن مصلحتهم الطبقية باسمهم الخاص سواء أكان ذلك بواسطة برلمان ام بواسطة كونفانسيون .

انهم لا يستطيعون تمثيل انفسهم ولا بد ان يمثلهم غيرهم . ولا بد لممثلهم ان يظهر في الوقت نفسه كسيد لهم ، كسلطة فوقهم ، كسلطة حكومية غير محدودة تحميهم ضد الطبقات الاخرى وترسل لهم الغيث وضوء الشمس من فوق . ولهذا يجد النفوذ السياسي للفلاحين الصغار تعبيره النهائي في واقع ان السلطة التنفيذية تخضع المجتمع لنفسها

ان التقليد التاريخي المتوارث ولد عند الفلاحين الفرنسيين الاعتقاد الصوفي بان رجلا يدعى نابوليون سيعيد لهم جميع الخيرات المفقودة . وطلع شخص ادعى بانه هو هذا الرجل لمجرد انه يحمل اسم نابوليون ، بناء على مادة من Code Napoléon * تنص : «La recherche de la paternité est interdite» بعد تشرد دام عشرين سنة وبعد سلسلة من المغامرات السخيفة يتحقق التكهن ويصبح الرجل امبراطور الفرنسيين . لقد تحققت فكرة ابن الاخ الراسخة لانها انطبقت تمام الانطباق على الفكرة الراسخة لدى اكثر طبقات المجتمع الفرنسي عدداً .

ورب معترض يقول ولكن ما شان انتفاضات الفلاحين في نصف فرنسا والغارات التي شنها الجيش على الفلاحين وحبس الفلاحين بالجملة ونفيهم بالجملة ؟

ان فرنسا لم تشهد منذ لويس الرابع عشر مثل هذا الاضطهاد للفلاحين «بسبب الدسائس الديماغوجية»

ولكن لنكن على بينة من الامر ان اسرة بونابرت لا تمثل الفلاح الثوري بل الفلاح المحافظ ، لا تمثل الفلاح الذي يسعى الى التخلص من ظروف وجوده الاجتماعية التي تحددها قطعة

---

* مجموعة قوانين نابوليون : «التحقيق في الابوة ممنوع» . الناشر .

ارضه الصغيرة ، بل تمثل بالاحرى الفلاح الذي يريد توطيد هذه الظروف وهذه الارض ، لا سكان الريف الذين يريدون الارتباط مع المدن والاطاحة بالنظام القديم بجهودهم الخاصة بل ، على النقيض ، اولئك الذين يعزلون انفسهم بعناد بليد ضمن هذا النظام القديم منتظرين ان ينقذهم شبح الامبراطورية وينقذ قطع اراضيهم ويمنحهم وضعاً مميزاً . ان آل بونابرت لا يمثلون استنارة الفلاح بل خرافاته ، لا عقله بل اوهامه ، لا مستقبله بل ماضيه ، لا سيفين الحديثة بل فنده الحديثة(١٠٧)

ان حكم الجمهورية البرلمانية القاسي الذي دام ثلاث سنوات قد حرر قسماً من الفلاحين الفرنسيين من الوهم النابوليوني واحدث انقلاباً ثورياً في نفوسهم ، وان كان ذلك بصورة سطحية فحسب ؛ بيد ان البرجوازية كانت تدفعهم بالقوة الى الخلف كلما كانوا ياخذون في التحرك . وفي ظل الجمهورية البرلمانية كان الوعي العصري للفلاح الفرنسي ووعيه التقليدي يتنازعان السيادة كانت هذه العملية تجري بشكل صراع مستمر بين معلمي المدارس والكهنة — وكانت البرجوازية تقمع المعلمين . ولاول مرة بذل الفلاحون جهوداً في التصرف بصورة مستقلة ازاء نشاط الحكومة ، وتجلى هذا في النزاع المتواصل بين رؤساء البلديات والحكام الاداريين وكانت البرجوازية تعزل رؤساء البلديات . واخيراً ثار الفلاحون الفرنسيون في اماكن متعددة خلال فترة الجمهورية البرلمانية ضد وليدهم هم الجيش . وكانت البرجوازية تعاقبهم بفرض حالات الحصار وبالحملات التاديبية وهذه البرجوازية نفسها تصيح الآن من بلادة الجماهير ، من هذه *vile multitude

* السوقة الحقيرة . الناشر .

زاعمة بانها خانتها لصالح بونابرت. وهي نفسها التي عززت بالقوة المشاعر الامبراطورية عند طبقة الفلاحين وحفظت بعناية الظروف التي كانت بمثابة التربة التي تنبت عليهـا ديانـة الفلاح هذه صحيح انه ينبغي على البرجوازية ان تخشى جهل الجماهير طالما ظلت محافظة ، ووعي هذه الجماهير حالما تصبح ثورية .

في الانتفاضـات التي اعقبت coup d'etat احتج قسم من الفلاحين الفرنسيين ، والسلاح في ايديهم ، ضد صوتهم الانتخابي الذي ادلوا به هم انفسهم في العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ ان المدرسة التي اجتازوها منذ عام ١٨٤٨ قد شحذت ذكاءهم بيد انهم اسلموا انفسهم الى جحيم التاريخ ، والتاريخ قيدهم بكلمتهم ، وكانت الاكثرية منهم ما تزال غارقة في الضلال لدرجة ان سكان الريف في اشد المقاطعات احمراراً بالذات صوتوا بصورة مكشوفة لبونابرت كانوا يرون ان الجمعية الوطنيـة قد عرقلت تقدمه وكل ما فعله بونـابرت الآن هو انه كسر القيود التي فرضتها المدن على ارادة الريف بل ان الفلاحين في بعض الانحـاء داعبتهـم الفكرة السخيفـة فكرة قيـام كونفانسيون(١٠٨) جنباً الى جنب مع نابوليون .

بعد ان حولت الثورة الاولى الفلاحين من اشباه اقنان الى ملاكين للارض احرار ثبت نابوليون ونظم الشروط التي يمكنهم بموجبها ان يستغلوا دونما عائق ارض فرنسا التي آلت اليهم قبيل ذلك بقليل ويطفئوا غليلهم الفتي للتملك بيد ان سبب املاق الفلاح الفرنسي الآن انما هو ارضه الصغيرة نفسها ، تجزئة الارض ، شكل الملكية الذي وطده نابوليون في فرنسـا انهـا بالضبط تلك الظروف المادية التي جعلت من الفلاح الفرنسي من عهد الاقطـاع ، مالكا عقاريـا صغيراً ، وجعلت من نابوليون

امبراطوراً . وقد كفى جيلان لبلوغ النتيجة التي لا مناص منها التدهور المتزايد في الزراعة والدين المتزايد على المشتغلين بالزراعة . ان الشكل «النابوليوني» للملكية الذي كان في بداية القرن التاسع عشر شرطا لتحرير اهل الريف الفرنسيين واثرائهم قد تطور في بحر هذا القرن الى قانون يثبت استعبادهم وفقرهم وهذا القانون بالضبط هو اول فكرة من «idées napoléniennes»* كان يترتب على بونابرت الثاني ان يذود عنها . واذا كان ما يزال يشاطر الفلاحين الوهم القائل بان سبب خرابهم ينبغي تلمسه لا في هذه الملكية العقارية الصغيرة ذاتها بل في خارجها ، في تأثير ظروف ثانوية ، فان تجاربه سوف تنفجر كفقاعات الصابون لدى ملامستها علاقات الانتاج .

ان التطور الاقتصادي للملكية العقارية الصغيرة قد غير علاقات الفلاحين بطبقات المجتمع الاخرى تغييراً جذريا ففي عهد نابوليون كان تقسيم الارض في الريف الى قسائم صغيرة يكمل المزاحمة الحرة والصناعة الكبيرة المبتدئة في المدن . وكانت طبقة الفلاحين في جميع الاماكن هي الاحتجاج ضد اريستقراطية الارض التي اطيح بها قبل ذلك بقليل فحسب . ان الجذور التي ضربتها الملكية العقاريه الصغيرة في التربة الفرنسية قد حرمت الاقطاع من كل غذاء . وكانت علامات الحدود لقطعة الارض الصغيرة بمثابة التحصينات الطبيعية للبرجوازية ضد اي هجوم عليها من جانب اسيادها القدماء . بيد ان امراء الاقطاع حل محلهم في غضون القرن التاسع عشر مرابو المدن ، والالتزام الاقطاعي الذي ينيخ بكلكله على الارض حل محله الرهن ، والملكية

* «الافكار النابوليونية» . الناشر .

الاريستقراطية للارض حل محلها رأس المال البرجوازي ان قطعة ارض الفلاح لم تعد سوى ذريعة تتيح للرأسمالي ان يجني من الارض ربحاً وفائدة وريعاً ، وان يترك لمالك الارض نفسه امر الاهتمام بالطريقة التي يراها ناجحة للحصول على اجرته ان ديـن الرهن الذي يثقل ارض فرنسا يفرض على الفلاحين الفرنسيين دفع مبلغ من الفائدة يعادل الفائدة السنوية المترتبة على الدين القومي البريطاني باسره . ان الملكية العقارية الصغيرة ، التي استعبدها الرأسمال لهذه الدرجة – ويؤول تطور هذه الملكية الى هذا الاستعبـاد بصورة محتومة – قد حولت اغلبية الامة الفرنسية الى سكان كهوف . ستة عشر مليوناً من الفلاحين (بمن فيهم النساء والاطفال) يسكنون في أخصاص معظمها ليست له سوى فتحة واحدة ، وبعضها الآخر له فتحتان فقط ، واحسنها حظاً له ثلاث فتحات فحسب والنوافـذ بالنسبـة للبيت هي كالحواس الخمس بالنسبة للرأس ان النظام البرجوازي الذي اقام الدولة في بداية القرن حارساً على الملكية العقارية الصغيرة الناشئة تواً وسمدها بالغار اصبح الآن عفريتاً يمتص دماءها ودماغهـا ويقذف بهـا في القدر الكيميـاوي لرأس المال ان Code Napoléon ليست الآن سوى مجموعـة قوانين لتنفيـذ قرارات المحاكم واجراءات الحجز والبيع بالمزاد العلني ولا بد لنـا ان نضيف الى الملايين الاربعة (بمن فيهم الاطفـال ، الخ .) من المتسولين والمتشردين والمجرمين والمومسـات في فرنسا ، المعترف بهم رسمياً ، خمسة ملايين يحومون على شفا البقاء وهم اما يسكنون الريف نفسه او يهجرون الريف باستمرار ، هم وخرقهم واطفالهم ، الى المدن او يهجرون المدن الى الريف . وبكلمة ، ان مصالح الفلاحين لم تعد ، كما كانت في عهد نابوليون ،

تتفق مع مصالح البرجوازية ، مع رأس المال بل هي في تناقض مستعص معهما . ومن هنا يجد الفلاحون حليفهم الطبيعي وقائدهم في بروليتاريا المدن التي مهمتها الاطاحة بالنظام البرجوازي . ولكن الحكومة القوية غير المحدودة – وهذه هي «idée napoléonienne» الثانية التي يترتب على نابوليون الثاني تنفيذها – مدعوة للدفاع عن هذا النظــام «المادي» بالقوة . والحقيقــة ، ان هذا «ordre matériel»* يتكرر كاللازمـة في جميع بلاغـات بونـابرت ضد الفلاحين العاصين .

وبالاضافة الى دين الرهن الذي يثقل به رأس المال قطعة الارض الصغيرة ، ترهق الضرائب هذه القطعـة . ان الضرائب هي ينبوع الحياة بالنسبة للبيروقراطية والجيش والكهان والبلاط وبالاختصار بالنسبة لجهاز السلطة التنفيذية بأسره . ان الحكومة القوية والضرائب الباهظة هما شيء واحد ان الملكية العقارية الصغيرة تشكل بطبيعتها اساساً مناسباً لبيروقراطية كاملة الجبروت ولا حصر لها . انها تخلق مستوى متناسقاً للعلاقات والاشخاص فوق اديم البلاد جميعها . ولذا تتيح ايضاً ممارسة تأثير متناسق من مركز واحد اعلى وعلى جميع نقاط هذه الكتلة الرتيبة انها تقضي على الدرجات الاريستقراطية المتوسطة بين جمهرة الشعب وسلطـة الدولة . وهي لذلك تستدعي التدخل المباشر الشامل لسلطة الدولة هذه وتدخل اجهزتها المباشرة في كل مكان . وهي تخلق اخيراً فيضاً من السكان العاطلين الذين لا مكان لهم سواء في الريف او في المدن والذين يمدون ايديهم بناء على ذلك الى وظائف الدولة بوصفها صدقات لائقة وتشكل حافزاً لزيادة عدد

---

* «النظام المادي» . الناشر .

المناصب في جهاز الدولة . كان نابوليون يسدد الضرائب الاجبارية مع الفوائد وذلك بالاسواق الجديدة التي افتتحها بالحراب وبنهب القارة . وقد كانت هذه الضرائب النابوليونية حافزاً لنمو الحرف الفلاحية بينما هي تسلب الآن هذه الحرف مواردها الاخيرة وآخر امكانية لمقاومة الاملاق والبيروقراطية الضخمة ، التي تنعم بالحلل الموشاة والطعام الطيب ، انما هي «idée napo-léonienne» كانت اقرب فكرة الى نفس بونابرت الثاني . وكيف يمكن ان يكون الامر بخلاف ذلك ونحن نراه مرغماً على ان يخلق الى جانب الطبقات الفعلية في المجتمع طائفة اصطناعية تصبح المحافظة على حكمه بالنسبة لها مسألة رزق وعيش ؟ وعليه كان من اوائل العمليات المالية التي قام بها رفع مرتبات الموظفين التي جرى تخفيضها من قبل الى مستواها القديم وايجاد وظائف جديدة بلا عمل

وهناك «idée napoléonienne» اخرى هي سيطرة الكهان بوصفها أداة في يدي الحكومة . ولكن بينما تكون قطعة الارض الصغيرة التي برزت الى الوجود حديثاً ، في وفاقها مع المجتمع واعتمادها على القوى الطبيعية وخضوعها للسلطة التي هي حاميها الاعلى ، متدينة بطبيعة الحال ، فان قطعة الارض الصغيرة التي تخربها الديون والتي هي والمجتمع والسلطة على طرفي نقيض والتي تُكَلَّف فوق ما في وسعها والمضطرة الى ان تخرج من نطاق محدوديتها ذاتها ، تصبح بطبيعة الحال غير متدينة ان السماء كانت ملحقاً لا باس به بالنسبة لقطعة الارض الصغيرة التي كسبت حديثاً خصوصاً لان السماء تصنع الطقس ، ولكن هذه السماء تغدو اهانة حالما تطرح بمثابة بديل عن القطعة الصغيرة . وعندئذ يتحول القسيس الى كلب ممسوح بالميرون من كلاب

الشرطة الدنيوية – وهذه ايضاً «idée napoléonienne» وفي المناسبة التالية ستجري الحملة على روما في فرنسا نفسها ولكن بمعنى معاكس لذلك الذي يقصده المسيو دي مونتالمبير

واخيراً ان ذروة «idées napoléoniennes» هي غلبة اهمية الجيش . ان الجيش كان point d'honneur* للفلاحين الصغار كان الجيش يجعل منهم ابطالا يدافعون عن ممتلكاتهم الجديدة ضد الاعداء الخارجيين ، ويمجدون الوحدة القومية التي اكتسبوها مؤخراً ، وينهبون الدنيا وينفخون فيها روح الثورة البزات العسكرية كانت لباسهم للاحتفالات والحرب كانت قصيدهم ، وقطعة الارض الصغيرة التي يضخمها الخيال ويكملها كانت وطنهم ، والشعور الوطني كان الشكل المثالي للشعور بالملكية بيد ان الاعداء الذين كان على الفلاح الفرنسي الآن ان يحمي ملكيته منهم ليسوا هم القوزاق ، انهم مامورو الاجراء وجباة الضرائب وقطعة الارض الصغيرة لم تعد تقع فيما يدعى بالوطن بل في سجل الرهون . والجيش نفسه لم يعد زهرة شباب الفلاحين انه زهرة مستنقع حثالة الفلاحين ، انه يتالف الى حد كبير من المتجندين البدلاء تماماً كما ان بونابرت الثاني نفسه ليس الا بديلا عن نابوليون . ان مآثره البطولية تتجلى الآن في مطاردة الفلاحين وفي القيام بوظيفة الدركي ولو ان التناقضات الداخلية لنظام رئيس جمعية العاشر من كانون الاول طاردت هذا الرئيس الى ما وراء الحدود الفرنسية فان جيشه سوف يجني ، بعد بضعة اعمال لصوصية ، لا اكاليل الغار بل الضربات .

---

* مناط العزة . الناشر .

وهكذا نرى ان جميع «idées napoléoniennes» هي افكار قطعة الارض الصغيرة غير المتطورة ، والتي لا تزال بعد في ريعان شبابها ، اما بالنسبة لقطعة الارض الصغيرة التي انقضى زمانها فهي سخافة ، انها مجرد اضغاث نزعها الاخير ، كلمات تحولت الى عبارات ، ارواح تحولت الى اشباح . بيد ان مهزلة الامبراطورية كانت ضرورية لتحرير جمهرة الامة الفرنسية من وطأة التقاليد ولاستجلاء التناقض بين سلطة الدولة والمجتمع بصورته الخالصة . ومع التدهور المتزايد الذي طرأ على الملكية العقارية الصغيرة ينهار مبنى الدولة المشيد فوقها ان مركزية الدولة التي يتطلبها المجتمع المعاصر تنشأ فقط على انقاض جهاز الحكم العسكري البيروقراطي الذي صُنع في سياق النضال ضد الاقطاعية *

ان حال الفلاحين الفرنسيين تكشف لنا عن لغز الانتخابات العامة في ٢٠ و٢١ كانون الاول (ديسمبر) التي قادت بونابرت الثاني الى اعلى طور سيناء(١٠٩) لا ليتلقى التشريعات بل ليعطيها

---

* بدلا عن الجملتين الاخيرتين في آخر الفقرة المعنية ورد في طبعة عام ١٨٥٢ ما يلي وان تحطيم آلة الدولة لا يشكل اي خطر على المركزية . فان البيروقراطية ما هي غير الشكل الواطيء والفظ من اشكال المركزية التي ما تزال مصابة بنقيضها ، الاقطاعية وعندما تخيب آمال الفلاح الفرنسي في العودة النابوليونية ، فانه سيتخلى كذلك عن ايمانه بقطعة ارضه الصغيرة ، وينهار كل صرح الدولة المشيد على قطعة الارض هذه ، وتحظى الثورة البروليتارية بتلك الجوقة التي بدونها يتحول غناؤها المنفرد في جميع البلدان الفلاحية الى غناء طير التم» . (هذا التعبير الاخير يعني غناء الاحتضار . المترجم .) الناشر .

وظاهر ان البرجوازية لم يكن لديها الآن خيار الا انتخاب بونابرت . عندما شكا انصار الاخلاق الصارمة في مجمع كونستانسيا(١١٠) من الحياة المنحلة التي يحياهـا الباباوات واعولوا حول ضرورة الاصلاح الخلقي ، أرعد الكاردينال بيير دايي قائلا لهم : «ما من احد الا الشيطان بشخصه يستطيع الآن انقاذ الكنيسة الكاثوليكية وانتم تطلبون ملائكة !» وبمثل هذا صاحت البرجوازية الفرنسية بعد الانقلاب : ما من احد الا رئيس جمعية العاشر من كانون الاول (ديسمبر) يستطيع الآن انقاذ المجتمع البرجوازي ! السرقة وحدها هي التي تستطيع الآن انقاذ المُلكية ، والزور وحده انقاذ الدين والنغولة انقـاذ العائلـة ، والفوضى انقاذ النظام !

ان بونابرت ، بوصفه السلطة التنفيذية التي جعلت نفسها قوة مستقلة ، يعتبر ان رسالته هي حماية «النظام البرجوازي» ؛ امـا قوة هذا النظـام البرجوازي فتكمن في الطبقة الوسطى ولذا ينظر الى نفسه باعتباره ممثلا للطبقة الوسطى ويصدر مراسيم مناسبة . ولكنه ، مع ذلك لم يصبح شيئـا يُذكر الا لانه حطم القوة السياسية لهذه الطبقة الوسطى ولأنه يحطمها مجدداً في كل يوم وبنـاء على ذلك ينظر الى نفسه كخصم للقوة السياسية والادبية للطبقة الوسطى . ولكنه اذ يحمي قوتها المادية ، يولد قوتها السياسية من جديد . ولهذا لا بد للعلة ان تبقى على قيد الحياة ؛ اما المعلول ، حيثما ظهر ، فينبغي ان يقضى عليه . بيد ان هذا لا يمكن ان يحدث دون خلط بسيـط بين العلـة والمعلـول لانهما كليهما يفقدان في تفاعلهما المشترك خصائصهما المميزة مراسيم جديدة متوالية تمحو خط الحدود . وبونابرت ينظر الى نفسه ، في الوقت ذاته ، باعتباره ممثلا للفلاحين وللشعب

بصورة عامة ضد البرجوازية ، ممثلا يريد ان يسعد الطبقات الدنيا من الشعب ضمن اطار المجتمع البرجوازي . مراسيم جديدة تحتال على «الاشتراكيين الحقيقيين» (١١١) وتسلبهم سلفاً قدرتهم على ادارة الدولة . ولكن بونابرت ينظر دائماً الى نفسه ، قبل كل شيء ، بوصفه رئيساً لجمعية العاشر من كانون الاول ، بوصفه ممثلا لحثالة البروليتاريا التي ينتمي هو نفسه وبطانته وحكومته وجيشه اليها والتي همها الاول هو العيش كما يطيب لها وسحب جوائز يانصيب كاليفورنيا من خزينة الدولة . وهو يزكي لقبه كرئيس لجمعية العاشر من كانون الاول بمراسيم وبدون مراسيم وبرغم المراسيم

ان مهمة هذا الرجل المتناقضة هذه تفسر الاجراءات المتناقضة لحكومته التي تتصرف على غير هدى وتسعى تارة لتكسب وطوراً لتذل اولا هذه الطبقة ثم تلك وتصف الطبقات جميعاً ضدها على حد سواء ، تلك الحكومة التي يشكل ما بها من الحيرة العملية مفارقة مضحكة جداً مع الاسلوب العاتي القاطع لمراسيم الحكومة ، وهو اسلوب منقول بمذلة وخنوع عن مراسيم العم

ان الصناعة والتجارة ، اي اشغال الطبقة الوسطى ، ينبغي لها ان تزدهر برعاية حكومة قوية كانها في مستنبت دافئ فيجري منح ما لا حصر له من امتيازات سكك الحديد بيد ان حثالة البروليتاريا من البونابرتيين ينبغي ان تثري فيبدأ الاشخاص المطلعون سلفاً على اسرار امتيازات سكك الحديد لعبة الغش في البورصة ولكن رأس مال السكك الحديدية لا يظهر له اثر ، ويلزمون البنك بتقديم سلف على اسهم السكة الحديدية . غير ان البنك ، في الوقت نفسه ، سيستغله بونابرت لاغراضه

الشخصية ولا بدّ من مداجاته لهذا السبب يعفون البنك من الالتزام بنشر تقريره اسبوعيا ويعقد البنك اتفاقية مع الحكومة تضمن له حصة الاسد . والشعب لا بد من ايجاد اعمال له ، فيشرعون في الاشغال العمومية . ولكن الاشغال العمومية تزيد من اعباء الشعب الضرائبية . من هنا تخفيض الضرائب بالهجوم على ايرادات اصحاب الدخل والريع بتحويل ريع الخمسة في المائة الى اربعة ونصف في المائة . ولكن لا بد للبرجوازية ان تأخذ الحلوى من جديد مع الحبة المرة ومن مضاعفة ضريبة الخمر على الشعب الذي يشتريه en detail* وانقاص ضريبه الخمر الى النصف بالنسبة للطبقة الوسطى التي تشربه en gros** تحل جمعيات العمال القائمة فعلا ولكن الحكومة تعد بمعجزات بعد تشكيل الجمعيات في المستقبل . الفلاحون لا بد من تقديم المساعدات لهم تؤسس بنوك الرهن التي تعجل في ايقاعهم بالديون وفي تركيز المُلْكية . ولكن يجب استخدام هذه البنوك لابتزاز المال من املاك آل اورليان المصادرة . ما من رأسمالي يريد ان يوافق على هذا الشرط الذي لم يذكر في المرسوم ويبقى بنك الرهن مجرد مرسوم ، الخ ..، الخ ..

ان بونابرت يحب ان يظهر بمظهر الأب المنعم لجميع الطبقات . ولكنه لا يستطيع ان يعطي طبقة من الطبقات دون ان يأخذ من الاخرى . وكما كان يقال عن الدوق جيز زمن الفروند بانه كان اعظم متفضل في فرنسا لانه حول جميع املاكه الى التزامات في ذمة انصاره يدينون له بها ، كذلك سيقبل

---

* بالمفرق . الناشر .

** بالجملة . الناشر .

بونابرت راضياً بان يكون اعظم متفضل في فرنسا ويحول كل ممتلكات فرنسا وكل شغلها الى التزام شخصي له . انه يحب ان يسرق فرنسا بكاملها حتى يتسنى له ان يقدمها هدية الى فرنسا لو بالاحرى حتى يتسنى له ان يشتري فرنسا من جديد بنقـــود فرنسية وذلك لانه ينبغي عليه بالضرورة ، باعتبـــاره رئيس جمعية العاشر من كانون الاول ، ان يشتري ما ينبغي ان يكون له . وجميع مؤسسات الدولة ومجلس الشيوخ ومجلس الدولة والهيئة التشريعية ووسام جوقة الشرف ومداليات الجنود ومحال الغسيل والاشغال العمومية والسكك الحديدية والاركان العامة للحرس الوطني باستثنـــاء عامة الجند والاملاك المصـــادرة لآل اورليان ــ جميعها تصبح موضوعاً للبيع والشراء وكل مركز في الجيش وفي جهاز الحكومة يصبح وسيلة للرشوة بيد ان اهم ملامح هذه العملية التي يكمن معناها في أخذ فرنسا من اجل اعدائها اياها نفسها ، انما هو الفوائد المئوية التي تجد طريقها الى جيوب رئيس جمعية العاشر من كانون الاول (ديسمبر) واعضائها اثناء دورة رأس المال ان الملحة التي وصفت بهـــا الكونتسة ل . ، حظية المسيو دي مورني ، مصادرة املاك اورليان : «C'est le premier vol de l'aigle»* (وهـــذا اول طـــيران للنسر») تنطبق على كل طيران لهـــذا النسر الذي هو اشبـــه بالغراب انه هو واشياعه ينطقون كل يوم بالنسهم لانفسهم كلمة الراهب الكارتيزياني الايطالي اذ وعظ البخيل الذي تباهى بعدّ المتاع الذي كان في وسعه ان يعيش عليه لسنين مقبلـــة طويلة : «Tu fai conto sopra i beni, bisogna prima far il

* كلمة "vol" تعني طيران وسرقة .

conto sopra gli anni»* ولئـلا يخطئـوا في السنين عـدوا الدقائق . لقد شقت جماعة من الاشخاص طريقها الى البلاط ، الى الوزارات ، الى رأس الادارة والجيش ، جماعة من الاجلاف ينبغي ان يقال عن احسنهم بان احداً لا يعرف اصله ، جماعة بوهيمية صخابة نهابة شائنة السمعة تدب في المعاطف المقصبة بعين الوجاهة المضحكة مثل اعيان سولوك . وفي وسع المرء ان يتصور بوضوح هذه الطبقة العليا من جمعية العاشر من كانون الاول (ديسمبر) اذا اخذ بعين الاعتبار ان فيرون-كريفيل** هو واعظها الاخلاقي وان غرانييه دي كاسانيـاك هو مفكرهـا كان غيزو ، ابان وزارته ، يستخدم غرانييه هذا للعمل في صحيفة سيئة السمعة ضدّ المعارضة الأسْرية وكان يباهي به قائلا عادة في تملق : «C'est le roi des drôles» «وانه ملك المهرجين» ومن الخطأ ان يعيد المرء عهد الوصاية(١١٢) او لويس الخامس عشر الى ذهنه في مجـال الحديـث عن بلاط لويس بونابرت وعصابتـه . وذلك لان «فرنسـا قد بلت مراراً من قبل حكم محظيات ، بيد انها لم تبل قط حكم قوادين»***

ان بونابرت ، وقد ساقته الى ذلك مطالب وضعه المتناقضة وكان في الوقت نفسه يقوم بدور الحاوي المضطر الى ابقاء نفسه محط الانظار كبديل لنابوليون ، وذلك بقيامه بالمفاجئـات

---

* «انت تحصي معاطفك ، ولولى لك ان تحصي سنيك»

** لقد حدد بلزاك في روايته «ابنة العم بيتي» معالم الباريسي التافه المنحل كليا في شخصية كريفيل ، وهي شخصية روائية رسمها على غرار الدكتور فيرون صاحب جريدة "Constitutionnel" .

*** الكلام المقتبس هو كلام مدام جيراردين .

المستمرة ، اي بالاحرى الى اجراء انقلاب مصغر كل يوم ، ان بونابرت هذا قد القى الاقتصـــاد البرجوازي برمتـــه في هاوية الفوضى والتهك كل ما كان يبدو مصوناً بالنسبة لثورة ١٨٤٨ ، وجعل البعض يتسامحون مع الثورة ، وآخرين يرغبون في الثورة ، وخلق فوضى فعلية باسم النظام ، بينما كان في الوقت نفسه يجرد جهاز الدولة بكامله من الهالة التي تحيط به ويلوثـــه ويجعلـــه بغيضاً ومحلا للسخرية في آن واحد . انه يعيد في باريس بصورة مزورة ساخرة عبادة الرداء المقدس في ترير(١١٣) على شاكلة عبادة العباءة الامبراطورية النابوليونية ولكن عندما تسقط العباءة الامبراطورية اخيراً على كتفي لويس بونابرت ، سيهوى تمثـــال نابوليون البرونزي من على قمة مسلـــة فندوم(١١٤) ويتحطم .

كتبه ماركس في كانون الاول	يصدر حسب نص طبعة
(ديـــسمبر) ١٨٥١ ــ آذار (مـــارس)	عام ١٨٦٩ المقارنة بنصي
١٨٥٢ نشر على شكل طبعة مجلة	طبعتي عام ١٨٥٢ وعام ١٨٨٥
"Die Revolution" الاول ، نيويورك ،	تمت الترجمة نقلاً من الالمانية
عام ١٨٥٢	
التوقيع : كارل ماركس	

ملاحظات

١ – «موضوعات عن فورباخ» كتبها ماركس في بروكسل في ربيع ١٨٤٥ ، عندما كان قد أتم ، من حيث الخطوط الكبرى ، تطوير نظريته المادية عن التاريخ ، ونشر المادية في مفهوم عن المجتمع البشري وقد قال انجلس ان هذه «اول وثيقة تحتوي النواة العبقرية للمفهوم الجديد عن العالم» (راجع الطبعة الحالية ، القسم الرابع ، مقدمة لكتاب «لودفيغ فورباخ»)

في «موضوعات عن فورباخ» يكشف ماركس النقص الجذري الذي يشوب على السواء مادية فورباخ وكل المادية السابقة ، اي طابعها التاملي الجامد ، وعدم فهم اهمية النشاط الثوري ، «العملي النقدي» الذي يقوم به الانسان ؛ كذلك يشير ماركس الى دور الممارسة الثورية الحاسم في معرفة العالم وتحويله . – ص ٢٧

٢ – «بيان الحزب الشيوعي» ، اول وثيقة برنامجية للشيوعية العلمية تتضمن عرضاً كاملاً ومتناسقاً عن اسس تعاليم ماركس وانجلس العظيمة «وان هذا الكتاب يعرض بوضوح ودقة عبقريين المفهوم الجديد للعالم ، يعرض المادية المتماسكة التي تشمل ايضاً ميدان الحياة الاجتماعية ، والديالكتيك بوصفه العلم الاوسع والاعمق للتطور ، ونظرية النضال الطبقي والدور الثوري الذي تضطلع به في التاريخ العالمي البروليتاريا ، خالقة المجتمع الجديد ، المجتمع الشيوعي» (لينين ، الطبعة الحالية ، الجزء الاول ، ص ١١) .

سلح «بيان الحزب الشيوعي» البروليتاريا ببرهان علمي على حتمية

افلاس الرأسمالية وانتصار الثورة البروليتارية ، وحدد مهام واهداف الحركة البروليتارية الثورية . — ص ٤١

٣ — عصبة الشيوعيين ، اول منظمة شيوعية عالمية للبروليتاريا انشأها ماركس وانجلس . دامت من ١٨٤٧ الى ١٨٥٢ . راجع مقالة انجلس «مساهمة في تاريخ عصبة الشيوعيين» (المجموعة الحالية ، الجزء ٢) . — ص ٤١

٤ — المقصود هنا ثورة شباط (فبراير) عام ١٨٤٨ في فرنسا — ص ٤١

٥ — "The Red Republican" («ذي ريد ريببليكان» — «الجمهوري الاحمر») — جريدة اسبوعية شارتية ، اصدرها جون هارني في لندن من حزيران (يونيو) الى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٠ نشرت «البيان» بصورة موجزة في الاعداد ٢١—٢٤ من شهر تشرين الثاني ١٨٥٠ — ص ٤١

٦ — انتفاضة حزيران ، انتفاضة باسلة قام بها عمال باريس من ٢٣ الى ٢٦ حزيران (يونيو) ١٨٤٨ ، وقمعتها البرجوازية الفرنسية بضراوة خارقة . كانت هذه الانتفاضة اول حرب اهلية كبيرة في التاريخ بين البروليتاريا والبرجوازية . — ص ٤١

٧ — "Le Socialiste" («لسوسياليست» — «الاشتراكي») ، جريدة يومية ، صدرت في نيويورك من تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧١ الى ايار (مايو) ١٨٧٣ باللغة الفرنسية كانت لسان حال الفروع الفرنسية في اتحاد الاممية بامريكا الشمالية بعد مؤتمر لاهاي ، قطعت صلتها بالاممية

الترجمة الفرنسية المنوه بها «لبيان الحزب الشيوعي» نشرتها جريدة "Le Socialiste" من كانون الثاني (يناير) الى آذار (مارس) ١٨٧٢ . — ص ٤١ .

٨ ـ كومونة باريس ، حكومة ثورية للطبقة العاملة ، دامت من ٢٨ آذار (مارس) الى ٢٨ ايار (مايو) ١٨٧١ بمعنى الكلمة الواسع ، يسمون كذلك كومونة باريس الثورة البروليتارية بالذات التي نشبت في ١٨ آذار ١٨٧١ ومرحلة ديكتاتورية البروليتاريا التي تلتها ويتناول مؤلف «الحرب الاهلية في فرنسا» تاريخ كومونة باريس ويكشف جوهرها بالتفصيل (راجع المجموعة الحالية ، الجزء ٢) . ـ ص ٤٢

٩ ـ محاكمة الشيوعيين في كولونيا (من ٤ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ الى ١٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٥٢) ، محاكمة استفزازية دبرتها الحكومة البروسية ضد ١١ عضواً من اعضاء عصبة الشيوعيين وقد وجهت الى سبعة اشخاص من المتهمين تهمة الخيانة العظمى بالاستناد الى وثائق مزورة وشهادات كاذبة ؛ وحكم عليهم بالسجن في القلعة لمدة تتراوح بين ٣ سنوات و٦ . فضح ماركس وانجلس الطرائق الاستفزازية الخسيسة التي لجأت اليها الدولة البوليسية البروسية ضد الحركة العمالية العالمية . ـ ص ٤٤

١٠ ـ المقصود هنا انتفاضة حزيران في باريس عام ١٨٤٨ (راجع ملاحظة رقم ٦) . ـ ص ٤٧

١١ ـ هذه المقدمة كتبها انجلس في اول ايار (مايو) ١٨٩٠ ، اي في اليوم الذي جرت فيه في جملة من بلدان اوروبا واميركا ، بناء على قرار من مؤتمر الاممية الثانية في باريس (تموز ـ يوليو ـ ١٨٨٩) مظاهرات جماهيرية واضرابات واجتماعات حاشدة للعمال طالبوا فيها بيوم العمل من ٨ ساعات وبتنفيذ مطالب المؤتمر الاخرى ومذ ذاك ، اخذ العمال في جميع البلدان يحتفلون باول ايار بوصفه يوم الاستعراض الكفاحي للقوى الثورية ولتضامن البروليتاريا العالمي . ـ ص ٤٧

١٢ ـ الحروب الصليبية ، حركة استعمارية حربية باتجاه بلدان الشرق قام بها كبار الاقطاعيين والفرسان من اوروبا الغربية ، والمدن الايطالية التجارية في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ،

تحت راية الدين لاجل تحرير المقدسات المسيحية في القدس وسائر «الاماكن المقدسة» من حكم المسلمين . كانت الكنيسة الكاثوليكية والكرسي البابوي الساعي الى السيطرة العالمية ايديولوجيي وملهمي الحروب الصليبية ، وكان الفرسان قوتها العسكرية الرئيسية كذلك اشترك الفلاحون في الحملات ، سعيا وراء الخلاص من اضطهاد الاقطاعيين . اقترنت هذه الحملات باعمال النهب والعنف سواء حيال المسلمين ام حيال السكان المسيحيين في البلدان التي مر بها الصليبيون . ولم تقتصر مطامع الصليبيين الفتوحية على الدول الاسلامية في سوريا وفلسطين ومصر وتونس ، بل شملت ايضا الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية ولكن فتوحات الصليبيين في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط لم تكن وطيدة ، وسرعان ما عادت الاراضي التي استولوا عليها الى المسلمين . — ص ٥٤

١٣ — عوضا عن مفهومي «قيمة العمل» و«ثمن العمل» ، استعمل ماركس وانجلس ، في المؤلفات اللاحقة ، مفهومين ادق ادخلهما ماركس وهما «قيمة قوة العمل» و«ثمن قوة العمل» (راجع بهذا الصدد مقدمة انجلس لمؤلف ماركس «العمل المأجور والرأسمال» ، المجموعة الحالية ، ص‌ص ٩٧-١٠٩) . — ص ٥٩

١٤ — المقصود هنا الثورة البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر . — ص ٦٨

١٥ — المقصود هنا الحركة من اجل اصلاح قانون الانتخابات ، الذي اقره مجلس العموم البريطاني في عام ١٨٣١ تحت ضغط الجماهير الشعبية والذى صادق عليه مجلس اللوردات بصورة نهائية في حزيران (يوليو) ١٨٣٢ وكان الاصلاح موجها ضد الاحتكار السياسي للارستقراطية العقارية والمالية ، وافسح الطريق لوصول ممثلي البرجوازية الصناعية الى البرلمان اما البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة اللتان كانتا القوة الرئيسية في النضال من اجل الاصلاح فقد خدعتهما البرجوازية الليبيرالية ولم تحصلا على الحقوق الانتخابية . — ص ٧٩ .

١٦ ـ **عودة الملكية** ١٦٦٠–١٦٨٩ ، المرحلة الثانية من حكم سلالة ستيوارت في انجلترا التي اسقطتها الثورة البرجوازية الانجليزية في القرن السابع عشر (راجع ايضا الملاحظة ١٠٦)

عودة الملكية ١٨١٤–١٨٣٠ ، المرحلة الثانية من حكم سلالة بوربون في فرنسا اطاحت ثورة تموز (يوليو) ١٨٣٠ بنظام آل بوربون الرجعي الذي كان يمثل مصالح النبلاء والاكليريكيين . ـ ص ٧٩

١٧ ـ **الليجيتيميون** (الشرعيون) ، انصار سلالة بوربون "Légitime" («الشرعية») التي اسقطت في عام ١٨٣٠ وكانت تمثل مصالح الملكية العقارية الكبيرة الوراثية وفي الصراع ضد آل اورليان الحاكم (١٨٣٠–١٨٤٨) والمعتمد على الارستقراطية المالية والبرجوازية الكبيرة ، لجأ قسم من الشرعيين في احيان كثيرة الى الديماغوجية الاجتماعية مصورين انفسهم مدافعين عن الشغيلة دون المستثمرين البرجوازيين ـ ص ٨٠ .

١٨ ـ **«انجلترا الفتاة»** ، فريق من السياسيين والادباء الانجليز من حزب التوري (راجع الملاحظة ٨٣) تشكل في بداية الاربعينيات من القرن التاسع عشر وتعبيراً عن استياء الارستقراطية العقارية من تعاظم جبروت البرجوازية الاقتصادي والسياسي ، لجأت «انجلترا الفتاة» الى الاساليب الديماغوجية لكي تضع الطبقة العاملة تحت نفوذها وتستغلها في صراعها ضد البرجوازية . ـ ص ٨٠

١٩ ـ **اليونكر** ، بمعنى الكلمة الضيق ، طبقة النبلاء ملاكي الاراضي في بروسيا الشرقية . بالمعنى الواسع ، طبقة الاقطاعيين العقاريين الالمان . ـ ص ٨١

٢٠ ـ المقصود هنا ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ البرجوازية الديموقراطية في المانيا . ـ ص ٨٧

٢١ ـ **ارض الميعاد الجديدة** رمز الفردوس في التقاليد المسيحية . ـ ص ٨٨ .

٢٢ – الشارتية (من الكلمة الانجليزية «Charter» – «ميثاق») حركة سياسية قام بها عمال بريطانيا العظمى في الثلاثينيات وفي اواسط الخمسينيات من القرن التاسع عشر بسبب وضعهم الاقتصادي المرهق وحرمانهم من الحقوق السياسية جرت هذه الحركة تحت شعار النضال من اجل تطبيق ميثاق شعبي يتضمن مطلب حق الانتخاب العام وعدداً من الشروط التي تؤمن هذا الحق للعمال كانت الشارتية ، حسب تعريف لينين ، «اول حركة واسعة ، جماهيرية فعلا ، منظمة سياسياً ، وثورية بالروح البروليتارية» . – ص ٩٣

٢٣ – المقصود هنا الجمهوريون الديموقراطيون من صغار البرجوازيين والاشتراكيون من صغار البرجوازيين ، – انصار الجريدة الفرنسية «الاصلاح» "La Réforme" – «لاريفورم» الذين طالبوا باقامة الجمهورية واجراء اصلاحات ديموقراطية واجتماعية . – ص ٩٣

٢٤ – "La Réforme" («لاريفورم» – «الاصلاح») ، جريدة يومية فرنسية ، صدرت في باريس من عام ١٨٤٣ الى عام ١٨٥٠ – ص ٩٤

٢٥ – في شباط (فبراير) ١٨٤٦ ، جرت الاستعدادات لانتفاضة في الاراضي البولونية تستهدف تحرير بولونيا الوطني كان الديموقراطيون الثوريون البولونيون (دمبوفسكي وغيره) المبادرين الرئيسيين الى الانتفاضة ولكن الانتفاضة العامة احبطت ولم تقم غير بعض الاعمال الثورية ، وذلك من جراء خيانة العناصر الاقطاعية واعتقال البوليس البروسي لقادة الانتفاضة فقط في كراكوفيا ، الخاضعة منذ ١٨١٥ لمراقبة مشتركة من جانب النمسا وروسيا وبروسيا ، استطاع الثوار ان يحرزوا انتصاراً في ٢٢ شباط وان يؤلفوا حكومة وطنية اصدرت بياناً بالغاء الاتاوات والفرائض الاقطاعية في اوائل آذار (مارس) عام ١٨٤٦ تم قمع الانتفاضة في كراكوفيا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٨ ، وقعت النمسا وبروسيا وروسيا معاهدة بضم كراكوفيا الى الامبراطورية النمساوية . – ص ٩٤ .

٢٦ – قصد ماركس من نشر «العمل المأجور والرأسمال» ان يرسم باسلوب مبسط العلاقات الاقتصادية التي تؤلف الاساس المادي للنضال الطبقي في المجتمع الرأسمالي وقد حاول ان يعطي البروليتاريا سلاحا نظريا هو الفهم العلمي العريق للاساس الذي ترتكز عليه في المجتمع الرأسمالي سيادة البرجوازيين الطبقية وعبودية العمل المأجور طور ماركس الموضوعات الاساسية في نظريته حول القيمة الزائدة ، وصاغ بصورة عامة موضوعة املاق الطبقة العاملة النسبي والمطلق في ظل الرأسمالية . – ص ٩٧

٢٧ – „Neue Rheinische Zeitung. Organ der Demokratie" («الجريدة الرينانية الجديدة لسان حال الديموقراطية») صدرت يوميا في كولونيا بتحرير ماركس من اول حزيران (يونيو) ١٨٤٨ الى ١٩ ايار (مايو) ١٨٤٩ كان انجلس عضواً في هيئة تحريرها – ص ٩٧

٢٨ – رابطة العمال الالمان ببروكسل اسسها ماركس وانجلس في اواخر آب (اغسطس) ١٨٤٧ من اجل تثقيف العمال الالمان المقيمين في بلجيكا وتنويرهم السياسي ، ومن اجل ترويج افكار الشيوعية العلمية بينهم بقيادة ماركس وانجلس وانصارهما ، غدت الرابطة مركزاً علنيا لتوحيد البروليتاريين الثوريين الالمان في بلجيكا انضمت خيرة عناصر الرابطة الى محفل عصبة الشيوعيين في بروكسل بعد ثورة شباط (فبراير) البرجوازية في فرنسا في عام ١٨٤٨ بفترة وجيزة توقف نشاط رابطة العمال الالمان في بروكسل نظراً لاعتقال ونفي اعضائها من قبل البوليس البلجيكي . – ص ٩٧

٢٩ – المقصود هنا غزو القوات الروسية القيصرية في المجر في عام ١٨٤٩ من اجل قمع الثورة البرجوازية المجرية واعادة حكم سلالة هابسبورغ النمساوية . – ص ٩٧

٣٠ – المقصود هنا انتفاضات الجماهير الشعبية في المانيا من ايار (مايو) الى تموز (يوليو) ١٨٤٩ دفاعا عن دستور الامبراطورية (الذي

اقرته الجمعية الوطنية في فرانكفورت في ٢٨ آذار (مارس) ١٨٤٩ ورفضته جملة من الدويلات الالمانية) كانت هذه الانتفاضات متفرقة وعفوية ، وتم قمعها في لواسط تموز ١٨٤٩ . — ص ٩٧

٣١ — فيما بعد ، وجدت في مخطوطات ماركس رؤوس اللام (مسودة اعدادية) للمحاضرة الاخيرة او لبعض المحاضرات الاخيرة في موضوع العمل الماجور والرأسمال وذلك بصورة مخطوطة عنوانها «الاجرة» وكتبت على غلافها الاشارة التالية «بروكسل كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٧» ان هذه المخطوطة تكمل جزئيا ، من حيث مضمونها ، بحث ماركس غير التاجز «العمل الماجور والرأسمال» . ولكن الاقسام الختامية من بحث «العمل الماجور والرأسمال» المعدة للطبع لم تكتشف بين مخطوطات ماركس . — ص ٩٧

٣٢ — كتب ماركس في «رأس المال» يقول «واني اعني بالاقتصاد السياسي الكلاسيكي كل الاقتصاد السياسي ، الذي يبدأ مع وليام بيتي ، ويبحث في الارتباطات الداخلية المتبادلة لعلاقات الانتاج البرجوازية» وكان آدام سميث ودافيد ريكاردو من اكبر الاقتصاديين السياسيين الكلاسيكيين في انجلترا . — ص ٩٩

٣٣ — كتب انجلس في مؤلف «ضد دوهرينغ» يقول «وان الاقتصاد السياسي بمعنى اضيق ، وان كان قد نشأ في رؤوس العباقرة في اواخر القرن السابع عشر ، الا انه في صيغته الايجابية التي اضفاها عليه الفيزيوقراطيون وآدام سميث ، هو ، من حيث الجوهر ، وليد القرن الثامن عشر» . — ص ٩٩

٣٤ — يقصد انجلس الاحتفال بعيد اول ايار (مايو) في عام ١٨٩١ في بعض البلدان (بريطانيا ، المانيا) احتفل بعيد اول ايار في اول يوم احد يلي اول ايار ، وقد صادف في عام ١٨٩١ يوم الثالث من ايار . — ص ١٠٩

٣٥ — المقصود هنا ثورة آذار (مارس) في عام ١٨٤٨ في بروسيا . — ص ١١٠ .

٣٦ - بعد معارك طاحنة دامت اسبوعا كاملا ، قمعت القوات المسلحة الامبراطورية النمساوية في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٨ الانتفاضة الشعبية في فيينا واحتلت المدينة

في تشرين الثاني - كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ ، جرى في بروسيا انقلاب تلته مرحلة الردة الرجعية في اول تشرين الثاني جاءت الى الحكم وزارة معادية صراحة للثورة وفي ٩ تشرين الثاني ، نقل اجتماع الجمعية الوطنية البروسية من برلين الى بلدة براندنبورغ النائية وواصلت اغلبية الجمعية عقد جلساتها في برلين ففرقتها القوات المسلحة في ١٥ تشرين الثاني انتهى الانقلاب بحل الجمعية في ٥ كانون الاول واعلان دستور رجعي . - ص ١١١

٣٧ - يقصد ماركس انتفاضات التحرر الوطني التي جرت في المجر وايطاليا وبولونيا في ١٨٤٨ و١٨٤٩ . - ص ١١١

٣٨ - تلميح الى اسطورة العقدة الفائقة التعقد التي كان يشد بها غوردي ، ملك فريجيا ، النير الى عريش عربته وبموجب نبوءة العرّيف ، كان لا بد لمن يفك هذه العقدة ان يسود آسيا وعوضا عن فك العقدة ، قطعها الاسكندر ذو القرنين بسيفه . - ص ١١٩

٣٩ - «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» ، من اهم المؤلفات الماركسية وقد كتبه ماركس على اساس تحليل الاحداث الثورية التي جرت في فرنسا من عام ١٨٤٨ الى عام ١٨٥١ تحليلا دقيقا ملموسا . طور ماركس في هذا المؤلف جميع الموضوعات الاساسية للمادية التاريخية نظرية النضال الطبقي والثورة البروليتارية ، مذهب الدولة وديكتاتورية البروليتاريا ويتسم باقصى الاهمية الاستنتاج الذي استخلصه ماركس في مسألة موقف البروليتاريا من الدولة البرجوازية «ان جميع الانقلابات اكملت هذه الآلة بدلاً من ان تحطمها» (راجع المجموعة الحالية ، ص ٢٨٢) وصف لينين هذا الاستنتاج بانه من اهم واكبر الاستنتاجات في مذهب الماركسية عن الدولة

في مؤلف «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» درس ماركس

بمزيد من التفصيل والتحليل مسالة الفلاحين بوصفهم حلفاء الطبقة العاملة في الثورة العتيدة ، واوضح دور الاحزاب السياسية في الحياة الاجتماعية ، واعطى وصفا عميقا لجوهر البونابرتية . — ص ١٤٨

٤٠–٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، يوم الانقلاب المعادي للثورة الذي قام به لويس بونابرت وانصاره في فرنسا . — ص ١٤٨

٤١ — عهد النهضة او «الرينيسانس» ، مرحلة في تطور جملة من بلدان اوروبا الغربية والوسطى في الحقلين الثقافي والايديولوجي ، اشترطها نشوء العلاقات الرأسمالية وشملت النصف الثاني من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر وعادة يقرنون مرحلة النهضة بازدهار الفن والعلم ازدهاراً عاصفا ، وبتجدد الاهتمام بثقافة العالم القديم (ومن هنا جاء اسم هذه المرحلة) وصف انجلس عهد النهضة في مؤلفه «مقدمة «لديالكتيك الطبيعة» (راجع المجموعة الحالية ، الجزء الثاني) — ص ١٤٩

٤٢ — دامت الجمهورية الثانية في فرنسا من عام ١٨٤٨ الى عام ١٨٥٢ . وصف ماركس هذه المرحلة في مؤلفه «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥١» وفي مؤلفه «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» . — ص ١٥٠

٤٣ — الجبل ١٧٩٣–١٧٩٥ ، (Montagne — مونتان) الجبليون ، تكتل ثوري ديموقراطي في الكونفانسيون ابان الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر . — ص ١٥١

٤٤ — Brumaire (برومير) ، اسم شهر في التقويم الجمهوري الفرنسي

الثامن عشر من برومير (٩ تشرين الثاني — نوفمبر) ١٧٩٩ في هذا اليوم قام نابوليون بونابرت بانقلاب واقام الديكتاتورية العسكرية . ويعني ماركس على نحو سخري «بالطبعة الثانية للثامن عشر من برومير» انقلاب الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ . — ص ١٥١ .

٤٥ – «العهد القديم» . التوراة بالمعنى الحصري هي قسم اكبر من الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) يشمل الاسفار الخمسة الاولى وغير ذلك من الاسفار والنبوءات من العهد القديم (قبل المسيح) ؛ وهي عبارة عن مجموعة واسعة من مؤلفات دينية ودنيوية من الابداع الشعبي والادب ، صاغها ودونها رجال الدين لمصلحة الطبقات السائدة – ص ١٥٣

٤٦ – المقصود هنا الثورة البرجوازية الانجليزية في القرن السابع عشر . – ص ١٥٣

٤٧ – البدلام ، مستشفى للمجانين في لندن . – ص ١٥٤

٤٨ – في العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ ، انتخب لويس بونابرت رئيساً للجمهورية الفرنسية بنتيجة اقتراع عام – ص ١٥٥

٤٩ – تعبير «تأسف على حلل اللحوم المصرية» مقتبس من حكاية واردة في التوراة اثناء فرار اليهود من الأسر في مصر ، شرع الجبناء بينهم ، من جراء مصاعب الطريق وبسبب من الجوع ، يتأسفون للايام التي قضوها في الأسر ، اذ كانوا آنذاك ، على كل حال ، شبعانين – ص ١٥٥

٥٠ – Hic Rhodus, hic salta! (هنا رودوس ، فلتقفز هنا !) ، كلمات من خرافة لمؤلف الخرافات ايزوب من اليونان القديمة ، تحكي عن متبجح تباهى بان لديه شهوداً يؤكدون انه قفز ذات مرة في رودوس قفزة رائعة فقالوا له «ولم الشهود هنا رودوس ، فلتقفز هنا» ويعني هنا الأمر الرئيسي ، وهنا قدم البرهان

هنا الوردة ، فلترقص هنا ! – تعديل للقول السابق (Rhodus – رودوس – باليونانية اسم الجزيرة وتعني كذلك «الوردة») ، اورده هيغل في مقدمة كتابه «فلسفة الحق» . – ص ١٥٧ .

٥١ ـ بموجب الدستور الفرنسي لعام ١٨٤٨ ، كان ينبغي انتخاب الرئيس الجديد مرة كل اربع سنوات في الاحد الثاني من شهر ايار (مايو) في ايار ١٨٥٢ ، انتهت مدة رئاسة لويس بونابرت ـ ص ١٥٧

٥٢ ـ الالفيون دعاة مذهب ديني صوفي يقول بمجيء المسيح ثانية وقيام «العهد الالفي» الذي تسوده العدالة والمساواة العامة والبركة والخير ـ ص ١٥٨

٥٣ ـ In partibus infidelium (حرفيا وفي بلاد الكفار) ، اضافة الى لقب الاساقفة الكاثوليكيين المعينين في مناصب الاساقفة الاسمية الصرف في البلدان غير المسيحية . وكثيراً ما يرد هذا التعبير عند ماركس وانجلس بصدد مختلف حكومات المهاجرين التي كانت تتشكل في الخارج دون حسبان الحساب للوضع الفعلي في البلد . ـ ١٥٨

٥٤ ـ الكابيتول ، تلة في روما كانت عبارة عن قلعة محصنة تقول الاساطير ان روما قد أنقذت في عام ٣٩٠ قبل الميلاد ، اثناء زحف الغاليين ، بفضل صياح الاوز من هيكل جونون ، وايقاظها للحراس النيام . ـ ص ١٥٨

٥٥ ـ المقصود هنا من يسمون «بالافريقيين» او «الجزائريين» وكانوا في فرنسا يسمون بهذا الاسم الجنرالات والضباط ممن ترقوا في الحروب الاستعمارية ضد القبائل الجزائرية المناضلة في سبيل استقلالها كان الجنرالات الافريقيون كافينياك ولاموريسيير وبيدو يترأسون كتلة الجمهوريين في الجمعية الوطنية التشريعية . ـ ص ١٥٨

٥٦ ـ المعارضة الاسرية ، كتلة معارضة في مجلس النواب الفرنسي في عهد ملكية تموز (يوليو) كان ممثلو هذه الكتلة التي تفصح عن مزاج الاوساط الليبيرالية من البرجوازية الصناعية والتجارية ، يطالبون باجراء اصلاح انتخابي معتدل بوصفه وسيلة لتحاشي الثورة وللحفاظ

على سلالة اورليان كان لوديلون بارو زعيم المعارضة الاسرية
– ص ١٦٠

٥٧ – ملكية تموز ، عهد حكم الملك لويس فيليب (١٨٣٠–١٨٤٨) ، اسمي بهذا الاسم نسبة الى ثورة تموز (يوليو)
– ص ١٦١

٥٨ – ١٥ ايار (مايو) ١٨٤٨ ، اثناء مظاهرة شعبية دخل العمال والحرفيون الباريسيون الى قاعة جلسات الجمعية التاسيسية ، واعلنوا حلها وشكلوا حكومة ثورية . ولكن سرعان ما هرع رجال الحرس الوطني والقوات المسلحة وفرقوا المتظاهرين واعتقلوا زعماء العمال (بلانكي وبربيس والبر وراسبايل وسوبريه وغيرهم) . – ص ١٦١

٥٩ – انشئ الحرس المتنقل بمرسوم من الحكومة الموقتة بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) ١٨٤٨ لاجل مكافحة الجماهير الشعبية الثورية المزاج كانت فصائل هذه الحرس تتالف اساسا من حثالة البروليتاريا ، وقد استخدمت لاجل قمع ثورة حزيران (يوليو)
– ص ١٦٢

٦٠ – يزعم المؤرخ الروماني كيماريسكي ان الامبراطور قسطنطين الاول راى في عام ٣١٢ ، عشية انتصاره على خصمه ماكسانس ، رسم الصليب في السماء مع الآية التالية «بهذه العلامة سوف تغلبون!»
– ص ١٦٤

٦١ – كانت بيثية الكاهنة العرافة في اليونان القديمة تذيع تنبوءاتها من على منصب ثلاثي القوائم في هيكل الاله ابولّو في مدينة دلفيس
– ١٦٥

٦٢ – "Le National" («الجريدة الوطنية») ، جريدة يومية فرنسية ، صدرت في باريس من ١٨٣٠ الى ١٨٥١ لسان حال الجمهوريين البرجوازيين المعتدلين كان ماراست وباستيد وغارنيه – باجيس ابرز ممثلي هذا الاتجاه في الحكومة الموقتة . – ص ١٦٦ .

٦٣ — — "Journal des Débats politiques et littéraires" (وجريدة المناقشات السياسية والادبية») ، جريدة يومية برجوازية فرنسية تأسست في باريس في عام ١٧٨٩ في عهد ملكية تموز (يوليو) ، جريدة حكومية ولسان حال البرجوازية الاورليانية ابان ثورة ١٨٤٨ ، اعربت الجريدة عن نظرات البرجوازية المعادية للثورة والمسماة بحزب النظام . — ص ١٦٦

٦٤ — معاهدات فيينا ، معاهدات عقدت في فيينا في ايار (مايو) وحزيران (يونيو) ١٨١٥ بين الدول المشتركة في الحروب النابليونية بموجب الصك النهائي الذي اقره مؤتمر فيينا (١٨١٤-١٨١٥) ، اعيدت فرنسا الى حدود عام ١٧٩٢ ، ووضعت تحت مراقبة صارمة من الدول الظافرة ، ومنع عليها الاستيلاء على الاراضي في اوروبا — ص ١٦٦

٦٥ — الميثاق الدستوري ، اقر بعد الثورة البرجوازية في فرنسا عام ١٨٣٠ ، وكان القانون الاساسي لملكية تموز (يوليو) اعلن الميثاق شكلا حقوق السيادة للامة ، وقيد بعض الشيء سلطة الملك — ص ١٦٨

٦٦ — الايليزيه ، جادة في باريس يقوم فيها قصر الايليزيه الذي كان ، بموجب دستور ١٨٤٨ ، مقر رئيس الجمهورية . وهنا يلمح ماركس بسخرية الى تطابق اسم الجادة مع مرادف الفردوس عند المؤلفين القدماء . — ص ١٧٢

٦٧ — كليشي ، سجن المدينين في باريس من عام ١٨٢٦ الى عام ١٨٦٧ . — ص ١٧٢

٦٨ — في الايام الاولى من وجود الجمهورية الفرنسية ، اثيرت مسالة اختيار راية الدولة طالب عمال باريس الثوريون باعتبار الراية الحمراء التي ارتفعت في ضواحي باريس العمالية اثناء انتفاضة حزيران (يونيو) ١٨٣٢ راية الدولة . واصر ممثلو البرجوازية على العلم المثلث

الالوان (الازرق والابيض والاحمر) التي كانت راية فرنسا في عهد الثورة البرجوازية في اواخر القرن الثامن عشر وفي عهد امبراطورية نابليون الاول . وكانت هذه الراية قبل ثورة ١٨٤٨ شعار الجمهوريين البرجوازيين الملتفين حول جريدة "Le National" اضطر ممثلو العمال للموافقة على اعتبار الراية الثلاثية الالوان راية الدولة للجمهورية الفرنسية ولكن عقدة حمراء كانت تربط بعصا الراية . — ص ١٧٥

٦٩ — البريتوريون في روما القديمة كانوا يسمون الحرس الخاص الممتاز للقائد العسكري او الامبراطور اشترك البريتوريون على الدوام في الفتن الداخلية ، وغالبا ما نصبوا صنائعهم على العرش . والمقصود هنا جمعية ١٠ كانون الاول (ديسمبر) (راجع بصددها هذه المجموعة ، ص‌ص ٢٢٤—٢٢٨) . — ص ١٧٦

٧٠ — المقصود هنا اشتراك مملكة نابولي والنمسا في التدخل ضد جمهورية روما في ايار (مايو) — تموز (يوليو) ١٨٤٩ . — ص ١٧٦

٧١ — يقصد ماركس هنا الوقائع التالية من حياة لويس بونابرت : في عام ١٨٣٢ ، تجنس لويس بونابرت بالجنسية السويسرية في كانتون (قضاء) تورغاو ؛ في عام ١٨٤٨ ، تطوع لويس بونابرت ، اثناء اقامته في بريطانيا ، في صفوف «الكونستابل» الخصوصيين (وهؤلاء في بريطانيا هم رجال البوليس الاحتياطي من المدنيين) . — ص ١٧٧

٧٢ — الاورليانيون ، انصار دوقات اورليان الذين هم الفرع الاصغر من سلالة بوربون الذي تسلم زمام الحكم منذ ثورة تموز (يوليو) ١٨٣٠ والذي اسقطته ثورة ١٨٤٨ ؛ عبر عن مصالح ارستوقراطية المال والبرجوازية الكبيرة . — ص ١٧٨

٧٣ — حزب النظام ، كان حزب البرجوازية المحافظة الكبيرة الذي تاسس في عام ١٨٤٨ ، يمثل ائتلاف فرعي انصار الملكية في فرنسا الليجيتيميين (الشرعيين) والاورليانيين ؛ منذ عام ١٨٤٩ حتى انقلاب

٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، احتل مركزاً قياديا في الجمعية التشريعية للجمهورية الثانية . — ص ١٧٨

٧٤ — الامبراطور الروماني كاليغولا (٣٧—٤١) رفعه الحرس البريتوري الى العرش . — ص ١٨١

٧٥ — انتزعت الحكومة الفرنسية من الجمعية التاسيسية اعتمادات لاجل تجهيز جيش الغزو الى ايطاليا في نيسان (ابريل) ١٨٤٩ ، بحجة مساندة البيمون في كفاحها ضد النمسا والدفاع عن جمهورية روما اما الهدف الحقيقي من الحملة ، فكان التدخل ضد جمهورية روما واعادة سلطة البابا الدنيوية . — ص ١٨٢

٧٦ — "Le Moniteur universel" (والبشير العام) ، جريدة يومية فرنسية ، لسان حال الحكومة الرسمي صدرت في باريس من عام ١٧٨٩ الى عام ١٩٠١ كانت "Moniteur" تنشر بصورة الزامية المراسيم الحكومية والتقارير البرلمانية ، وغير ذلك من المواد الرسمية . — ص ١٨٢

٧٧ — الكويستور ، كانوا يسمون في الجمعية التشريعية بهذا الاسم المسؤولين عن الاشراف على اقتصاد ومالية وامن الجمعية التشريعية (على غرار الكويستور في روما القديمة) . في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١ قدم الكويستور الملكيون ليفلو وبـاز وبانا مشروع قانون بتخويل رئيس الجمعية الوطنية حق استدعاء القوات المسلحة بعد مناقشات حادة ، رفض المشروع في ١٧ تشرين الثاني . — ص ١٨٣

٧٨ — الدستوريون ، انصار الملكية الدستورية ، وممثلو البرجوازية الكبيرة الوثيقة الصلة بسلطة الملك والنبلاء الليبيراليين

الجيرونديون ، كتلة سياسية للبرجوازية في عهد الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر كان الجيرونديون يعبرون عن مصالح البرجوازية المعتدلة فتارجحوا بين الثورة والحركة المعادية للثورة

وساروا في طريق المساومة مع الملكية اطلق عليهم هذا الاسم نسبة الى محافظة الجيروند التي كان عدد كبير من قادة هذه الكتلة يمثلها في الجمعية التشريعية والكونفانسيون

اليعاقبة ، كتلة سياسية للبرجوازية في عهد الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر ، ممثلو الجناح اليساري للبرجوازية الفرنسية ، المدافعون بانسجام وداب عن ضرورة القضاء على الحكم المطلق والاقطاعية . — ص ١٨٤

٧٩ — ١٦ نيسان (ابريل) ١٨٤٨ ، في هذا اليوم قام العمال في باريس بمظاهرة سلمية حملوا فيها عريضة الى الحكومة الموقتة طالبوا فيها «بتنظيم العمل» و«القضاء على استثمار الانسان من قبل الانسان» ، فأوقف الحرس الوطني البرجوازي المظاهرة ، وكان قد دعي خصيصا لهذا الغرض . — ص ١٨٤

٨٠ — الفروند ، حركة النبلاء والبرجوازيين ضد الحكم المطلق في فرنسا في اعوام ١٦٤٨—١٦٥٣ اعتمد زعماء الحركة النبلاء على حاشياتهم وعلى الجنود الاجانب ، واستغلوا في مصلحتهم انتفاضات الفلاحين والحركة الديموقراطية في المدن، التي جرت في ذلك الوقت — ص ١٨٦

٨١ — القبعة الفريجية ، العمرة الحمراء عند الفريجيين القدامى فيما بعد ، صارت نموذجا لقبعات اليعاقبة ابان الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر ، واصبحت مذ ذاك رمز الحرية — ص ١٨٦

٨٢ — الزنبقة ، شعار ملكية آل بوربون . — ص ١٨٩

٨٣ — التوري ، حزب سياسي بريطاني ، ظهر في اواخر القرن السابع عشر اعرب عن مصالح الارستوقراطية العقارية ورجال الدين ، ودافع عن تقاليد الماضي الاقطاعي ، وناضل ضد المطالب الليبرالية

والتقدمية في اواسط القرن التاسع عشر ، انشق حزب المحافظين على اساس حزب التوري . — ص ١٩١

٨٤ — كانت مدينة ايمز في المانيا الغربية احد المقرات الدائمة التي اتخذها الكونت شامبور (الذي سمى نفسه باسم هنري الخامس) المدعي بالعرش الفرنسي عن الفرع الاكبر الاقدم من آل بوربون في كليرمونت بضواحي لندن ، عاش لويس فيليب الذي فر من فرنسا بعد ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ . — ص ١٩١

٨٥ — اريحا ، تروي التوراة ان مدينة اريحا كانت اول مدينة استولى عليها اليهود بعد دخولهم الى فلسطين . وقد سقطت اسوار اريحا على اصوات ابواق المحاصرين . — ص ١٩٧

٨٦ — تلميح الى خطط لويس بونابرت الذي كان يأمل باستلام التاج الفرنسي من يدي بابا روما بيوس التاسع وتروي التوراة ان النبي صموئيل نصب داود ملكا لليهود القدامى . — ص ٢٠٢

٨٧ — في ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٠٥ انتهت معركة اوسترليتز (مورافيا) بانتصار نابليون الاول على القوات الروسية والنمساوية . — ص ٢٠٣

٨٨ — المقصود هنا ثورة تموز (يوليو) ١٨٣٠ . — ص ٢٠٣

٨٩ — تلميح الى كتاب لويس بونابرت «الافكار النابوليونية» "Des idées napoléoniennes" ، الذي صدر في باريس عام ١٨٣٩ — ص ٢١٠

٩٠ — البورغراف ، اطلق هذا اللقب على زعماء الاورليانيين والليجيتيميين (الشرعيين) السبعة عشر الذين اشتركوا في لجنة الجمعية التشريعية لوضع مشروع قانون انتخابي جديد ، وذلك لادعاءاتهم التي

لا مبرر لها بالسلطة ولميولهم الرجعية . واللقب مأخوذ من رواية تاريخية بالاسم نفسه للكتور هوغو من الحياة في المانيا القرون الوسطى وكانوا في المانيا يطلقون لقب برجراف على حكام المدن والدوائر الذين يعينهم الامبراطور . — ص ٢١٧

٩١ — بموجب قانون الصحافة الذي اقرته الجمعية التشريعية في تموز (يوليو) ١٨٥٠ ، زيدت الضمانة النقدية التي كان اصحاب الصحف ملزمين بدفعها زيادة كبيرة ، وفرضت ضريبة جديدة — ضريبة طابع اميري شملت كذلك الكراريس . — ص ٢١٩

٩٢ — "La Presse" («لابريس» — «الصحافة») ، جريدة يومية ، صدرت في باريس منذ عام ١٨٣٦ . في عهد ملكية تموز (يوليو) اتخذت صفة المعارضة في عامي ١٨٤٨—١٨٤٩ ، لسان حال الجمهوريين البرجوازيين ، وفيما بعد لسان حال بونابرتي . — ص ٢١٩

٩٣ — مشعوذون ومتسكعون ، عناصر متفسخة طبقيا من حثالة البروليتاريا في ايطاليا . وغير مرة ، استخدمتهم الاوساط الملكية الرجعية في النضال ضد الحركة الليبيرالية والديموقراطية . — ص ٢٢٥

٩٤ — تلميح الى واقعتين من سيرة حياة لويس بونابرت ففي ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٦ حاول استثارة تمرد في ستراسبورغ بمساعدة فوجين من المدفعية تم نزع سلاح المتمردين ، واعتقل لويس بونابرت نفسه ونفي الى اميركا وفي ٦ آب (اغسطس) ١٨٤٠ ، حاول من جديد استثارة تمرد بين رجال الحامية المحلية في بولون بعد اخفاق هذا التمرد حكم على بونابرت بالسجن المؤبد ، ولكنه فر من السجن الى بريطانيا في عام ١٨٤٦ . — ص ٢٢٥

٩٥ — المقصود هنا الجرائد ذات الاتجاه البونابرتي والتسمية مأخوذة من قصر الايليزيه ، مقر لويس بونابرت في باريس زمن رئاسته . — ص ٢٢٩

٩٦ – يلجأ ماركس هنا الى تلاعب بكلام بيت من قصيدة شيلر «الفرحة» وفيها ينشد الشاعر الفرحة – وابنة الايليزيوم» او ميادين الايليزيه (وهي مرادف الفردوس في آثار المؤلفين الاقدمين) وميدان الايليزيه اسم جادة في باريس كان فيها مقر لويس بونابرت . – ص ٢٣٦

٩٧ – البرلمانات ، مؤسسات قضائية عليا في فرنسا قبل الثورة البرجوازية في اواخر القرن الثامن عشر كانت البرلمانات تسجل الاوامر الملكية وتملك حق الاحتجاج على الاوامر التي لا تتطابق مع عادات البلاد وقوانينها . – ص ٢٤١

٩٨ – بيل-ايل ، جزيرة في خليج بيسكاو ، مكان لحبس السجناء السياسيين . – ص ٢٤٦

٩٩ – ينقل ماركس هنا حادثة ، رواها الكاتب القديم اثينه (القرن الثاني والثالث بعد الميلاد) في كتابه «احاديث العلماء حول المائدة» ("Deipnosophistes") . فقد قال الفرعون المصري تاخوس ، ملمحا الى صغر قامة اجيسلاوس ، ملك اسبارطه ، الذي جاء بجنوده لنجدة الفرعون «تمخض الجبل فخاف زوس ولكن الجبل ولد فارة» فاجابه اجيسلاوس «وانا ابدو لعينيك فارة ، ولكن سيأتي يوم ابدو فيه لعينيك اسدا» . – ص ٢٤٨

١٠٠ – "L'Assemblée nationale" («الجمعية الوطنية») ، جريدة يومية فرنسية ، ذات اتجاه ملكي شرعي ، صدرت في باريس من عام ١٨٤٨ الى عام ١٨٥٧ في اعوام ١٨٤٨–١٨٥١ ، عكست نظرات القائلين بدمج الحزبين الملكيين ، حزبي الشرعيين والاورليانيين – ص ٢٥٢

١٠١ – كانت البندقية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر محل اقامة الطامع الليجيتيمي (الشرعي) بالعرش الفرنسي الكونت شامبور . – ص ٢٥٣ .

١٠٢ ـ المقصود هنا الخلافات التاكتيكية في معسكر الشرعيين في عهد العودة في اعوام ١٨١٤ـ١٨٣٠ فان فيليل (من انصار لويس الثامن عشر) كان يقول بتطبيق التدابير الرجعية بمزيد من الحذر، بينما بولينياك (من انصار الكونت دارتوا، الملك شارل العاشر ابتداء من ١٨٢٤) يقول ببعث انظمة ما قبل الثورة كليا

قصر التويلري في باريس، مقر لويس الثامن عشر. جناح مارسان، احد اجنحة القصر وكان مقر الكونت دارتوا في عهد العودة. ـ ص ٢٥٥

١٠٣ ـ "The Economist" («الاقتصادي»)، مجلة اسبوعية انجليزية في قضايا الاقتصاد والسياسة؛ لسان حال البرجوازية الصناعية الكبيرة، تصدر في لندن ابتداء من ١٨٤٣. ـ ص ٢٥٩

١٠٤ ـ المعرض الصناعي في لندن، اول معرض صناعي تجاري عالمي اقيم في ايار ـ تشرين الاول (مايو ـ اكتوبر) ١٨٥١ ـ ص ٢٦٥

١٠٥ ـ "Le Messager de l'Assemblée" («بشير الجمعية»)، جريدة يومية فرنسية ذات اتجاه معاد لبونابرت صدرت في باريس من ١٦ شباط (فبراير) الى ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ـ ص ٢٦٨

١٠٦ ـ البرلمان الطويل (١٦٤٠ـ١٦٥٣)، برلمان بريطاني عقده الملك شارل الاول في ظروف الثورة البرجوازية الناشئة، واصبح هيئتها التشريعية في ١٦٤٩، حكم البرلمان على شارل الاول بالاعدام واعلن بريطانيا جمهورية؛ حل كرومويل هذا البرلمان في ١٦٥٣. ـ ص ٢٧٤

١٠٧ ـ سيفين، منطقة جبلية في اقليم لانغيدوك بفرنسا، نشبت فيها في اعوام ١٧٠٢ ـ ١٧٠٥ بسبب من ملاحقة البروتستانت، انتفاضة فلاحية اتخذت طابعا معاديا للاقطاعية ساطع التعبير.

تلميح الى الفتنة المعادية للثورة في فنده (وهي اقليم في غربي فرنسا) نشبت الفتنة في عام ١٧٩٣ بتحريض الملكيين الفرنسيين الذين استغلوا الفلاحين المتاخرين في هذا الاقليم لاجل محاربة الثورة الفرنسية — ص ٢٨٦

١٠٨ — **الكونفانسيون الوطنية** ، هيئة تمثيلية عليا في فرنسا اثناء الثورة البرجوازية في اواخر القرن الثامن عشر ، دامت من ايلول (سبتمبر) ١٧٩٢ حتى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٩٥ . عملت الكونفانسيون في مرحلة صعود الثورة ، فاعربت عن مصالح البرجوازية الفرنسية الساعية الى توطيد مكاسب الثورة وتصفية العلاقات الاقطاعية — ص ٢٨٧

١٠٩ — **سيناء** ، جبل في شبه جزيرة سيناء حسب التوراة ، تلقى النبي موسى في طور سيناء الواح الوصايا من الرب . — ص ٢٩٣

١١٠ — **مجمع كونستانسيا** (١٤١٤—١٤١٨) ، انعقد من اجل توطيد وضع الكنيسة الكاثوليكية المتقلقل في ظرف الحركة الاصلاحية البادئة شجب المجمع تعاليم زعيمي الاصلاح جون ويكليف ويان هوس قضى المجمع على الانشقاق في الكنيسة الكاثوليكية بانتخابه رئيساً جديداً للكنيسة بدلاً من الباباوات الثلاثة المتنافسين على السلطة . — ص ٢٩٤

١١١ — تلميح الى مؤلفات ممثلي الاشتراكية الالمانية او «الاشتراكية الصحيحة» ، تيار رجعي انتشر في المانيا في الاربعينيات من القرن التاسع عشر بين المثقفين البرجوازيين الصغار على الغالب . وصف ماركس وانجلس «الاشتراكية الصحيحة» في «بيان الحزب الشيوعي» (راجع هذه المجموعة ، ص‌ص ٨٣—٨٧) . — ص ٢٩٥

١١٢ — المقصود هنا عهد وصاية فيليب اورليان في فرنسا في اعوام ١٧١٥—١٧٢٣ ، عندما كان لويس الخامس عشر لا يزال قاصراً . — ص ٢٩٨ .

١١٣ ـ الرداء المقدس في ترير ، ذخر كاثوليكي محفوظ في كاتدرائية ترير (المانيا الغربية) ويقال انه رداء مقدس أخذ عن المسيح عند صلبه . وكان الرداء المقدس في ترير موضع اجلال الحجاج . ـ ص ٢٩٩

١١٤ ـ مسلة فندوم ، اقيمت في باريس في اعوام ١٨٠٦ـ١٨١٠ تخليداً لانتصارات فرنسا النابليونية . وقد صنعت من برونز مدافع الاعداء . وكانت تنتهي في اعلاها بتمثال نابليون في ١٦ ايار (مايو) ١٨٧١ ، جرى تدمير مسلة فندوم بناء على قرار من كومونة باريس ؛ في عام ١٨٧٥ ، نصبتها الرجعية من جديد . ـ ص ٢٩٩

دليل الاسماء

الرجعية ؛ في الفلسفة جمع بين المثالية والمادية المبتذلة والوضعية ميتافيزيائي من ١٨٦٣ الى ١٨٧٧ استاذ محاضر في جامعة برلين . ــ ص‌ص ٢٣ ، ٣٠

ديفلوت بول (١٨١٧ــ١٨٦٠) ــ ضابط بحري فرنسي نصير بلانكي . مشترك نشيط في احداث ١٥ ايار (مايو) وانتفاضة حزيران (يونيو) ١٨٤٨ في باريس نائب في الجمعية التشريعية (١٨٥٠ــ١٨٥١) . ــ ص ٢١٦

ديمولان كميل (١٧٦٠ــ١٧٩٤) ــ كاتب سياسي فرنسي من رجالات الثورة البرجوازية في اواخر القرن الثامن عشر . يعقوبي يميني . ــ ص ١٥٢

راتو جان بيير (١٨٠٠ــ١٨٨٧) ــ محام فرنسي في عهد الجمهورية الثانية ، نائب في الجمعية التاسيسية والجمعية التشريعية . بونابرتي . ــ ص ١٨٠

روبسبيير ماكسيميليان (١٧٥٨ــ١٧٩٤) ــ قائد بارز في الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر زعيم اليعاقبة رئيس الحكومة الثورية (١٧٩٣-١٧٩٤) ــ ص‌ص ١٥١ ، ١٥٢

روغه ارنولد (١٨٠٢-١٨٨٠) ــ كاتب سياسي الماني من اعضاء الهيغلية الفتاة . راديكالي برجوازي . في ١٨٤٨ كان نائبا في مجلس فرانكفورت الوطني وانضم الى جناحه اليساري في الخمسينيات احد زعماء المهاجرين البرجوازيين الصغار الالمان في بريطانيا بعد ١٨٦٦ ، ليبيرالي قومي . ــ ص‌ص ١٠ ، ٢١

رويه‌كولار بيير بول (١٧٦٣ــ١٨٤٥) ــ فيلسوف وسياسي فرنسي . ملكي . ــ ص ١٥٣ .

الشخصيات الادبية والاسطورية

اخيل – في الميثولوجيا الاغريقية ، اشجع الابطال اليونانيين الذين حاصروا طروادة احد الابطال الرئيسيين في «اليـاذة» هوميروس تقول الاسطورة ان اخيل اصيب بجرح مميت في عقبه ، المكان الوحيد الذي تمكن اصابته من جسـده – ص ١٧٠ ، ١٧٣

باخوس – اله الخمر والمرح عند قدماء الرومان . – ص ٢٢٨

بولس – الرسول بولس من رسل المسيح . – ص ١٥٢

حبقوق – نبي في التوراة . – ص ١٥٣

داموكليس – تقول اسطورة يونانية قديمة ان داموكليس كان من بطانة الطاغية ديونيسيوس (القرن الرابع قبل الميلاد) من سيراكوس دعاه ديونيسيوس يوما الى وليمة ورغبة في اقناع داموكليس الذي كان يحسده بوهن الازدهار البشري ، اجلسه على عرشه ، وعلق بشعرة فوق راسه سيفا قاطعا واصبح تعبير «سيف داموكليس» رمزاً للخطر الرهيـب الدائم ، القريب . – ص ٢١٥

سيرسيا (كيركا) – حسب الاساطير اليونانية القديمة ، ســاحرة من جزيرة إيا ؛ حولت رفاق اوليس الى خنازير ، وابقته هو سنة كاملة في جزيرتها . رمز الحسنـاء الفاتنـة . – ص ٢٧٨ .

شليمل بيتر – بطل قصة شاميسو «قصة بيتر شليمل المدهشة» الذي باع ظله مقابل صرة سحرية من النقود . – ص ١٨٦

شوفتيرله وشبيغلبرغ – شخصيتان من مسرحية شيلر «قطاع الطرق» ، نموذجان عن اللصوص والقتلة الخالين من كل ذرة من الاخلاق . – ص ٢٢٧

صموئيل – نبي في التوراة . – ص ٢٠٣

فيتيدا – حسب الاساطير اليونانية ، الهة البحر ووالدة اخيل ؛ حذرته من الا يكون اول النازلين على ساحل طروادة (لان الموت ينتظر النازل الاول) . – ص ١٧٣

كرابولنسكي – بطل قصيدة هينه «الفارسان» ، نبيل بولوني مبذر . واسم عائلة كرابولنسكي مركب من الكلمة الفرنسية "crapule" وتعني الانهماك في الخلاعة والأكل والسكر كما تعني ايضاً السفلاق . باسم كرابولنسكي يقصد ماركس لويس بونابرت . – ص ١٦٥

كريفيل – شخصية من رواية بلزاك «ابنة العم بيتا» ؛ نموذج الحشري والفاسق والطماع . – ص ٢٩٨

نك بوتوم – شخصية من مسرحية شكسبير الهزلية «حلم ليلة صيف» . – ص ٢٢٥

محتويات

Подписано к печати 11/II 1974. Формат 84×108¹/₃₂. Бум. л. 5¹/₂.
Печ. л. 18,48+0,21 п. л. вклеек. Уч.-изд. л. 20,86. Изд. № 18382.
Заказ 1230. Цена 98 коп. Тираж 15 000.

Издательство «Прогресс» Государственного комитета
Совета Министров СССР по делам издательств, полиграфии
и книжной торговли
Москва Г-21, Зубовский бульвар, 21

Ордена Трудового Красного Знамени Калининский
полиграфический комбинат Союзполиграфпрома при
Государственном комитете Совета Министров СССР по делам
издательств, полиграфии и книжной торговли,
г. Калинин, пр. Ленина, 5.

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١
موسكو ـ الاتحاد السوفييتي